نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثالث عشر

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي
وصلّى الله على سيّدنا محمد
وآله وصحبه وسلّم

الفنّ الخامس
في التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام:

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: الآية ٢٦]؛ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: الآية ٨٢]؛ إلى غير ذلك من الآي.

والتاريخ ممّا يَحتاج إليه الملِك والوزير، والقائد والأمير، والكاتب والمُشير والغنيّ والفقير؛ والبادي والحاضر، والمقيم والمسافر.

فالملِك يعتبر بما مضى من الدّول ومن سلف من الأمم، والوزير يقتدي بأفعالِ من تقدّمه ممّن حاز فضيلتي السيف والقلم؛ وقائد الجيش يطّلع منه على مَكايد الحرب، ومواقف الطعن والضرب؛ والمشير يتدبّر الرأي فلا يُصدره إلّا عن رويّة ويتأمّل الأمر فكأنه أعطي درجة

المعيّة وحاز فضيلة الألمعية[١]؛ والكاتب يستشهد به في رسائله وكتبه، ويتوسّع به إذا ضاق عليه المجال في سِربه[٢]، والغنيّ يحمد الله تعالى على ما أولاه من نعمه ورزقه من نواله[٣]، وينفِق مما آتاه الله إذا علم أنه لا بدّ من زواله وانتقاله؛ والفقير يرغب في الزهد لعلمه أن الدنيا لا تدوم، ولتيقّنه أن سَعتها بضيقها لا تقوم. ومن عدا هؤلاء يسمعه على سبيل المسامرة، ووجه المحاضَرة والمذاكرة؛ والرغبة في الاطلاع على أخبار الأمم، ومعرفة أيام العرب وحروب العجم.

فقد تبيّن بهذه المقدّمة تعويل الأمر عليه، وميل المرء إليه.

وسأورد إن شاء الله في هذا الفنّ جُملًا من تواريخ الأمم السالفة[٤] والعصور الخالية[٥]، وأطرّزه من القصص والسِّيَر بما تصبح به صفحات الطروس[٦] خالية.

ولمّا رأيتُ غالب من أرّخ في الملة الإسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ومَساقِها، لا الدّول واتّساقها؛ علمتُ أن ذلك ربما قطع على المُطالع لذّةَ واقعة استحلاها، وقضيّة استجلاها؛ فانقضت أخبار السنة ولا استوعب تكملةَ فصولها ولا انتهى إلى جملتها وتفصيلها؛ وانتقل المؤرّخ بدخول السنة التي تليها من تلك الوقائع وأخبارها، والممالك وآثارها، والدولة وسِيرَها، والحالة وخبرها؛ فتنقّل من الشرق إلى الغرب، وعَدَلَ عن السّلم إلى الحرب؛ وعطف من الجنوب إلى الشمال وتحوّل من البُكَر إلى الآصال؛ وقد تجول به خيلُ الاستطراد فيُبعِد، وتحول بينه وبين مقصده السِّنون

(١) الألمعيّة: الذّكاء والتوقّد فيه.
(٢) السّرب: الجماعة، أو الطريقة في الكتابة.
(٣) النّوال: العطاء.
(٤) السالفة: الماضية المتقدّمة في الزمن.
(٥) الخالية: الغابرة.
(٦) الطروس: مفردها «الطّرس» وهو الصحيفة.

فيغور[١] تارة وتارة يُنجِد[٢]، فلا يرجع المُطالع إلى ما كان قد أهمّه إلّا بعد مشقّة، وقد يعدل عنه إذا طالت المسافة وبعُدت عليه الشُّقّة.

فاخترتُ أن أقيم التاريخ دُوَلًا، ولا أبغي عن دولة إذا شرعتُ فيها حِوَلًا[٣]؛ حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها، وأذكرَ جُملًا من وقائعها ومآثرها؛ وسِياقة أخبار ملوكها، ونظم عقود سلوكها؛ ومقرّ ممالكها، وتشعُّب مَسالكها.

فإذا انقضت مدّتها، وانقرضت عِدّتها؛ وانتقلت من العين إلى الأثر، ومن العِيان إلى الخبر؛ رجعتُ إلى غيرها فقفوتُ أثرها، وشرحت خبرَها، وبيّنتُ خُبرها؛ وذكرتُ أسبابها، وسردت أنسابها؛ وبدأت بأصلها، ونَوَّهْتُ بأخبار من نبغ من أهلها؛ واستقصيتها[٤] دولة بعد دولة، وجالت بي خيول المطالعة[٥] جَولة ناهيك[٦] بها من جوله؛ ورغبتُ مع ذلك في الاختصار دون الاقتصار[٧]، وأوردت ما يُحتاج إلى إيراده من غير تَكرار ولا إكثار.

فإن عرضتْ واقعة كانت بين ملكين كان وقتهما واحدًا، وكان الدهر لأحدهما على الآخر مساعدًا؛ شرحتها بجملتها في أخبار الظافر منهما؛ وأحلت في أخبار المغلوب عليها، واكتفيت بإيرادها في أحد الموضعين ولم أعرّج في الآخر إلا بالإشارة إليها.

---

(١) يغور: ينخفض، والغَور: ما انخفض من الأرض.
(٢) ينجد: يرتفع، والنّجد: ما ارتفع من الأرض والاستعمال هنا في هذا الموضع على سبيل الاستعارة.
(٣) الحول: التوقّف. (٤) استقصيتها: تتبّعت أخبارها باحثًا ومنقّبًا.
(٥) خيول المطالعة: يريد بها هنا الأفكار أو الشغف والجموح إلى نيل المراد والغاية.
(٦) ناهيك: كلمة تعجب، يقال: هو رجل ناهيك من رجل: أي هو رجل يكفيك عن غيره.
(٧) الاختصار والاقتصار: المراد بالاختصار: الإيجاز في الشرح وغير ذلك، أمّا الاقتصار: فيراد بها الاكتفاء بذكر بعض الحوادث دون بعض.

وجريت في تقسيم هذا الفنّ على القاعدة التي تقدّمت فيما قبله من الفنون ليكون أبسطَ للنفوس وأنشطَ للخواطر وأقرَّ للعيون؛ وجعلتُه خمسة أقسام، ووضعتُه على أحسن اتّساق[1] وأكمل انتظام.

القسم الأوّل: في مبدأ خلق آدم ـ عليه السلام ـ وحوّاء، وأخبارهما، ومَن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ. وفيه ثمانية أبواب:

الباب الأوّل: في مبدأ خلق آدم وحوّاء ـ عليهما السلام ـ، وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما.

الباب الثاني: في خبر شيث بن آدم ـ عليهما السلام ـ، وأولاده.

الباب الثالث: في أخبار إدريس النبيّ عليه السلام.

الباب الرابع: في قصة نوح ـ عليه السلام ـ، وخبر الطُّوفان.

الباب الخامس: في قصة هود ـ عليه السلام ـ مع عاد، وهلاكهم بالريح العقيم.

الباب السادس: في قصة صالح ـ عليه السلام ـ مع ثمود، وعَقْرهم الناقة وهلاكهم.

الباب السابع: في أخبار أصحاب البئر المُعَطَّلة، والقصر المَشِيد، وهلاكهم.

الباب الثامن: في أخبار أصحاب الرّسّ، وما كان من أمرهم.

القسم الثاني: في قصّة إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام، وخبره مع النُّمْروذ ـ لعنه الله ـ، وقصّة لوط،

(١) الاتساق: الاستواء والانتظام.

وخبر إسحٰق، ويعقوب، وقصة يوسف، وأيُّوب، وذي الكِفْل، وشُعيب ـ عليهم السلام ـ وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في قصّة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وأخبار نمروذ بن كنعان

الباب الثاني: في خبر لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه، وقلب المدائن.

الباب الثالث: في خبر إسحٰق، ويعقوب عليهما السلام.

الباب الرابع: في قصة يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

الباب الخامس: في قصّة أيوب ـ عليه السلام ـ، وابتلائه وعافيته.

الباب السادس: في خبر ذي الكِفْل بن أيوب عليهما السلام.

الباب السابع: في خبر شُعَيْب ـ عليه السلام ـ، وقصته مع مَدْيَنَ[1].

القسم الثالث: يشتمل على قصّة موسى بن عِمْران ـ عليه السلام ـ، وخبره مع فِرْعَوْن وخبر يُوشَع ومَن بعده وخبر حِزْقِيلَ وإلياس والْيَسَع وغيلا وأَشْمَويل وطالوت وجالوت وداود وسليمان وسَعْيَا وإرْمِيَاءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عُزَير وقصّة يُونس بن متّى وخبر بلوقيا وخبر زكريا ويحيىٰ وعِمران ومريم وعيسى ـ عليهم السلام ـ وخبر الحواريِّين وما كان من أمرهم وخبر جِرجيسَ. وفيه ستة أبواب:

(١) مع مدين: أي مع أهل مدين: مدينة على بحر القلزم، محاذية لتبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام السائمة شعيب عليه السلام ومدين اسم القبيلة «انظر: معجم البلدان ٥/ ٧٧».

وذيَّلتُ على هذا القسم ذيلًا يشتمل على أبواب أربعة، ذكرتُ فيها ما قيل في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ـ عليه السلام ـ إلى الأرض، وأخبار المهديّ والدجّال، ونزول عيسى ـ عليه السلام ـ ومدّة إقامته في الأرض ووفاته وما يكون بعده وشيئًا من أخبار الحشر والمعاد.

وإنما ذكرتُ هذا الذيل في هذا الموضع ـ وإن كان غير داخل في فنّ التاريخ ـ لأن النفوس لما كانت مائلةً إلى الاطّلاع على أخبار ما مضى من الزمان ومَن سلف من الأمم، فميلُها إلى الاطّلاع على ما يظهر في مستقبل الزمان أكثر وتشوّقها إليه أوفر؛ فأوردتُ ما أذكره لهذا السبب، ولأن كتابنا هذا ليس مبناه على مجرّد التاريخ بل هو كتاب أدب، لا تُخرجه هذه الزيادة عن شرطه.

الباب الأوّل: في قصّة موسى بن عِمْران وهارون عليهما السلام وغرق فِرْعَون، وأخبار بني إسرائيل، وخبر قارون وحروب موسى وخبر الجبّارين وبَلْعَمَ وغير ذلك.

الباب الثاني: فيما كان بعد موسى بن عِمْران ـ عليه السلام ـ وهو أخبار يُوشَع وخبر حِزْقِيلَ وإلياس والْيَسَع وغيلا وأشمويل وطالوت وجالوت وداود وسليمان ـ عليهم السلام ـ ومَن بعدهم.

الباب الثالث: في أخبار سَعْيَا وإرْمِياءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتّصل بذلك من خبر عُزَير.

الباب الرابع: في قصّة ذي النُّون يونُس بن متّى ـ عليه السلام ـ، وخبر بلوقيا.

الباب الخامس: في خبر زكريّا ويحيىٰ وعِمْران ومريم ابنته وعيسى ابن مريم عليهم السلام.

الباب السادس: في أخبار الحواريِّين الذين أرسلهم عيسى وما كان من أمرهم وخبر جِرجِيس.

التذييل على هذا القسم ـ وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

الباب الثاني: في خبر نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام.

الباب الثالث: في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم إلى النفخة الأُولى.

الباب الرابع: في أخبار يوم القيامة والحشر والمَعاد والنفخة الثانية في الصُّور.

القسم الرابع: في أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم والطوائف، وخبر سَيْلِ العَرِم، ووقائع العرب في الجاهلية، وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في أخبار ذي القرنين المذكور في كتاب الله عزّ وجلّ.

الباب الثاني: في أخبار ملوك الأصقاع، وهم ملوك مصر والهند والصين والترك وجبل الفتح.

الباب الثالث: في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم ملوك الفُرْس الأُول، وملوك الطوائف من الفُرس، والملوك الساسانيّة منهم، وملوك اليونان والسريان والكَلدانيِّين والروم والصقالبة والنُّوبردْ[١] والفَرَنْجة والجَلَالِقة وطوائف السودان.

(١) النّوبرد: هم اللّونبرد، سكان لومبرديا، الإقليم المعروف في شمال إيطاليا «انظر: تقويم البلدان ص ٢٠٨».

الباب الرابع: في أخبار ملوك العرب، وما يتّصل بها خبر سَيْل العَرِم.

الباب الخامس: في أيّام العرب ووقائعها في الجاهليّة.

القسم الخامس: في أخبار الملّة الإسلاميّة وذكر شيء من سيرة نبيِّنا محمد ـ ﷺ ـ، وأخبار الخلفاء من بعده ـ رضي الله عنهم ـ والدولة الأُمَويّة والعباسيّة والعَلَويّة ودول ملوك الإسلام وأخبارهم، وما فتح الله عليهم، وفيه اثنا عشر بابًا:

الباب الأول: في سيرة سيّدنا رسول الله ـ ﷺ ـ.

الباب الثاني: في أخبار الخلفاء من بعده: أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وابنه الحَسَن ـ رضي الله عنهم ـ.

الباب الثالث: في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالشأم وغيره.

الباب الرابع: في أخبار الدولة العباسيّة بالعراق ومصر.

الباب الخامس: في أخبار الدولة الأُمَوِيَّة بالأندلس، وأخبار الأندلس بعد انقراض دولتهم.

الباب السادس: في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومَن وَلِيَها من العُمَّال، ومَن استقلّ بالمُلك.

الباب السابع: في أخبار مَن نهض في طلب الخلافة من الطالبيّين في مدّة الدولتين: الأُمَوِيّة، والعباسيّة، فقُتل دونها بعد مقتل الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ.

الباب الثامن: في أخبار صاحب الزّنج والقرامطة والخوارج ببلاد الموصل.

الباب التاسع: في أخبار مَن استقلَّ بالمُلك، والممالك، في البلاد الشرقيّة والشماليّة في خلال الدولة العباسية، وهم ملوك خُراسان وما وراء النهر والجبال وطَبَرسْتَان وغَزْنَة والغَوْر وبلاد السند والهند كالدولة السامانيّة، والدولة الصَفّاريّة، والدولة الغزنويّة، والدولة الغُوريّة، والدولة الدَّيْلميّة الختليّة.

الباب العاشر: في أخبار ملوك العراق وما والاه، وملوك المَوْصِل والديار الجَزِيريّة والديار البَكْريّة والبلاد الشاميّة والحَلَبيّة، كالدولة الحَمْدانيّة، والدولة الدَّيْلَميّة البُوَيهيّة، والدولة السَّلْجُقيّة، والدولة الأتابكيّة.

الباب الحادي عشر: في أخبار الدولة الخُوَارَزْميّة والدولة الجنكزخانيّة وهي دولة التتار (جنكزخان وأولاده) وما تفرّع منها.

الباب الثاني عشر: في أخبار ملوك الديار المصريّة الّذين ملكوا في خلال الدولة العباسيّة، نيابةً عن خلفائها، وهم الملوك الطُّولونيّة والملوك الإخْشِيديّة، ومَن استقلّ بمُلكها وانتزعها وأخرجها من يد نوّاب خلفاء الدولة العباسيّة، وهم الملوك العُبَيْديّون الذين انتسبوا إلى العَلَويِّين، وما كان من أمرهم من ابتدائه إلى انتهائه وما ملكوه من بلاد المغرب، وكيف استولَوْا على الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والثغور الساحلية، وانقراض دولتهم، وقيام الدولة الأيُوبيّة وأخبار ملوكها بمصر والشام إلى حين انقراضها، وقيام دولة الترك ومَن مَلَكَ منهم وما حازوه من الأقاليم، وما فتحوه من الممالك واستنقذوه من أيدي الأفرنج والأرمَنِ والتّتار وغيرهم وما استقرّ في مُلك هذه الدولة من الممالك إلى حين وضعِنا لهذا التأليف في سنة...[1] وسبعمائة في أيّام مولانا السلطان السيد الأجلّ

(١) موضع هذه النقط الثلاث بياض في الأصول، والظّاهر أنّ هذا البياض من المؤلّف نفسه، ولعلّ=

المالك (الملك الناصر)، ناصر الدنيا والدين، محمد ابن السلطان الشهيد المالك، الملك المنصور سيف الدنيا والدين (قلاوون) الصالحيّ، خلّد الله تعالى مُلكَه على ممرّ الزمان، وسَقَى عهد والده صَوْبَ الرَّحمة والرِّضوان.

هذه جملة ما اشتمل عليه هذا الفنّ من الأقسام والأبواب، والله تعالى المرشد والهادي والموفِّق إلى الصواب، بمنّه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

= سبب ذلك مردّه إلى أن كتابه هذا لم يوضع في سنة معيّنة فيحدّدها، بل وضع في سنين، والمعروف أنّ المؤلّف توفي في سنة ٧٣٢ هـ.

القسم الأوّل

من الفنّ الخامس

في مبدأ خلق آدم وحوّاء عليهما السلام ودخولِهما الجنة، وما كان بينهما وبين إبليس لعنه الله وهبوطِهما إلى الأرض واجتماعهما بعد الفرقة، وخبر حرثِه وزرعه، وحَمْلِ حوّاء ووضعِها، وخبر ابني آدم هابيلَ وقابيلَ، ونبوّة آدم عليه السلام ووفاته، وخبر شيثٍ وأولادِه، وقصّة إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام وخبر أصحاب البئر المعطَّلة والقصرِ المشيّد، وخبر أصحاب الرسّ

وفيه ثمانية أبواب:

الباب الأول من هذا القسم في مبدأ خلق آدم وحوّاء عليهما السلام وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما

ذكر خَلق آدم عليه السلام

خلق الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام من تراب، بدليل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحِجر: الآية ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عِمران: الآية ٥٩]، وقوله تعالى إخبارًا عن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [صٓ: الآية ٧٦] وهذا أمر بيّنٌ واضح لا خلاف فيه، ولا يحتاج إلى زيادة في إقامة دليل وإيضاح.

وقيل: إنما سمّي آدم لأن الله تعالى خلقه من أديم الأرض.

وعن وهب بن منبَه[١] أن رأسه من الأرض الأولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة، ويديه من الرابعة، وبطنه وظهره من الخامسة، وفخذه ومذاكيره وعجزه من السادسة، وساقيه وقدميه من السابعة.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى خلقه من الأقاليم السبعة.

وقيل: إن عزرائيل أخذ من تراب الأرض كلِّها أبيضها وأحمرها وأسودها وعَذْبِها ومالحها، فهو مخلوق من ذلك التراب.

قال: ولمّا خلقه الله عزّ وجلّ وصوّره على هذه الصورة الآدميّة، أمر الملائكة أن يحملوه ويضعوه على باب الجنّة عند ممرّ الملائكة، وكان جسدًا لا روح فيه، فكانت الملائكة يعجبون من خلقته وصورته، لأنّهم لم يكونوا رأوا مِثله قط وكان إبليس يطيل النظر إليه ويقول: ما خلق الله تعالى هذا إلّا لأمر. وربّما دخل فيه، فإذا خرج قال: إنه خَلقٌ ضعيف، خُلِق من طين أجوف، والأجوف لا بدّ له من مَطعَم ومَشرَب.

ويقال: إنه قال للملائكة: ما تعملون إذا فُضِّل هذا المخلوق عليكم؟ فقالوا: نطيع أمر ربِّنا ولا نعصيه. فقال إبليس: إنْ فضّله عليّ لأعصِينّه، وإنْ فضّلني عليه لأُهلكنّه.

ذكر دخول الرُّوح فيه

قال: ولما أراد الله تعالى نفخ الرُّوح فيه أمر بروحه فغُمستْ في جميع الأنوار وليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من المخلوقات.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: الآية ٢٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] الآية.

قال: فأمرها الله تعالى أن تدخل في جسد آدم بالتأنّي دون الاستعجال فرأت مدخلًا ضيّقًا حَرجًا؛ فقالت: يا ربّ، كيف أدخل؟ فنوديتْ «ادخلي كَرْهًا واخرجي

(١) هو وهب بن منبّه الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله، مؤرّخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين، ولا سيّما الإسرائيليات أصله من الفرس، وأمّه من حمير، ولد ومات بصنعاء وقد ولّاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، توفي سنة ١١٤ هـ.

كَرْهًا»[١]. فدخلتْ من يافوخه[٢] إلى عينيه، ففتحهما آدم ونظر إلى نفسه طينًا، ثم صارت إلى أذنيه، فسمع تسبيح الملائكة، وجعلت الروح تمرّ في رأسه والملائكة ينظرون إليه، ثم صارت إلى الخياشيم، فعطِس، فانفتحتْ المجاري المسدودة؛ وصارت إلى اللّسان؛ فقال آدم: «الحمد لله الذي لم يزل ولا يزول» وهي أوّل كلمة قالها. فناداه الرب: «يرحمك ربّك يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا لك ولذرّيتك». وسارت الروح في جسده حتى بَلغت الساقين، فصار آدم لحمًا ودمًا وعظمًا وعروقًا، غير أنّ رجليه من طين؛ فذهب ليقوم فلم يقدر وهو قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١١].

فلمّا صارت إلى الساقين والقدمين استوى قائمًا على قدميه يوم الجمعة.

فقيل: إنّ الروح استوت في جسده في خمسمائة عام عند نزول الشمس.

ذكر سجود الملائكة لآدم

قال: فلمّا استوى قائمًا أمر الله الملائكة بالسجود له؛ فسجدوا كلُّهم إلّا إبلِيس، كما أخبر الله تعالى عنه؛ قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [صَ: الآيـــات ٧٣ - ٧٦] الآيات.

قال: وكان السجود لآدم يوم الجمعة عند الزوال، فبقيت الملائكة في سجودها إلى العصر.

قال وعلّم الله تعالى آدم الأسماء كلّها واللغات بأجمعها.

قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: علّمه حتى لغة الحيتان والضفادع وجميع ما في البرّ والبحر، ثم أمر اللائكة أن يحملوه على أكتافهم، ويطوفون به في طرائق السمٰوات؛ ففعلوا ذلك.

ثم أمر جبريلَ أن ينادي في صفوف الملائكة أن يَجتمعوا؛ فاجتمعوا واصطفّوا عشرين ألف صفّ، ووُضع لآدم مِنبرُ الكرامة، وعليه ثياب السندس

(١) الكره: ما أكره عليه المرء من فعل، أو المشقّة.
(٢) اليافوخ: ملتقى عظم مقدّم الرأس ومؤخّره.

الأخضر وله ضفيرتان[١] محشوّتان بالمسك والعنبر بطُوله، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصَّع بالدرّ والجوهر؛ فانتصب على المنبر، وسلم على الملائكة، فأجابته بردّ السلام وخطب فحمد الله، ثم ذكر علم السمٰوات والأرضين وما فيهما، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ٣١ - ٣٣].

ونزل آدم عن منبره، فجيء بِقطف من عنب أبيضَ فأكله، وهو أوّل شيء أكله من طعام الجنّة، ثم أخذته سِنةٌ[٢] فنام.

ذكر خَلْق حوّاء عليها السلام

قال: ولمّا نام آدم خلق الله تعالى حوّاء من جنبه الأيسر، من ضلعه مما يلي الشُّرسوف[٣]، وهو ضِلْعٌ أعوَج، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النّساء: الآية ١] فكانت على طول آدم وحسنهِ وجماله، إلّا أنها أرقّ جِلدًا منه، وأحسن صوتًا، ولها ضفائر مرصّعة محشوّة بالمسك تُسمع لذوائبها[٤] خَشخَشة، فجلستْ عند رأسه، فانتبه فرآها، فتمكّن حبُّها من قلبه؛ فقال: يا ربّ، مَن هذه؟ قال: أَمَتي حوّاء. فقال: يا ربّ من خلقتَها؟ قال: لمن أخذها بالأمانة، وأصدقها الشكر. قال: يا ربّ، أنا أقبلها على هذا فزوِّجنيها. فزوّجها إياه قبل دخول الجنة على الطاعة والتقوى والعمل الصالح، ونَثرتْ عليهما الملائكة من نثار الجنّة، وأوحى الله إلى آدم، أن اذكر نعمتي عليك، فإنّي خلقتك ببديع فطرتي، وسوّيتك بَشرًا على مشيئتي، ونفختُ فيك من رُوحي، وأسجدتُ لك ملائكتي، وحملتُك على أكتافهم، وجعلتُك خطيبهم، وأطلقتُ على لسانك جميع اللّغات، وجعلت ذلك كلّه فخرًا وشرفًا لك، وهذا إبليس قد أبلستُه[٥] ولعنتُه حين أبى أن

(١) الضَّفيرة: جمعها ضفائر، وهي كلّ خُصْلةٍ من شعر أو نحوه.
(٢) السِّنة: النعاس.
(٣) الشرسوف: طرف الضّلع اللّين المشرف على البطن.
(٤) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر مقدّم الرأس.
(٥) أبلسه الله: أيأسه من رحمته.

يسجد لك، وقد ختمتُ كرامتي لك بأمتي حوّاء، وقد بنيتُ لكما دارَ الحيوان[١] من قبل أن أخلقكما بألفي عام، على أن تدخلاها بعهدي وأمانتي.

ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

قال: وهي أن يكافأوا على الإحسان، ويعذّبوا على الإساءة؛ فأبوا؛ فعرضتْ على آدم، فقيل له: إن أطعتَ كافأتُك بالإحسان، وخلّدتك في الجِنان؛ وإن تركتَ عهدي أخرجتك من داري، وعذّبتك بناري. فقبل آدم الأمانة، فعجب الملائكة من ذلك؛ ثم مُثِّل له ولحوّاء إبليس، وقيل له: ﴿هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية ١١٧].

ثم ناداهما الرب: إنّ من عهدي إليكما وأمانتي أن تدخلا الجنة ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٣٥]. فقبلا هذه العهود كلها.

ثم أمر الله تعالى بإدخالهما الجنّة، فحُمل آدم على الفرس الميمون، وحوّاء وراءه على الناقة، والملائكةُ عن اليمين والشمال وأمامهما وخلفهما حتى بلغوا باب الجنّة ودخلا واستقرّا بجنّة عدن في وسط الجنّة بعد أن طافا بالجِنان، فقدّم إليهما من فواكه الجنّة فأكلا، فكانا في الجنّة خمسَمائة عام من أعوام الدنيا في أتمّ السرور وأنعم الأحوال.

ذكر خبر إبليس والطاووس والحيّة

قال: ولمّا سمع إبليس أن الله تعالى أباح لآدم أن يأكل من ثمار الجنّة إلّا شجرة واحدة، فرح بذلك، وقال: لأخرجنّهما من الجنة. ثم مرّ مستخفيًا في طرقات السمٰوات حتى وقف على باب الجنّة، فإذا الطاووس قد خرج من الجنة وله جناحان إذا نشرهما غَطّى بهما سِدرةَ المنتَهى، وله ذَنَب من الزمرّد الأخضر على كلّ ريشة منه جوهرة بيضاء، وعيناه من الياقوت الأحمر؛ وهو أطيب طيور

(١) دار الحيوان: أي دار الحياة الدّائمة، وقد قال عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤].

الجنّة صوتًا وتغريدًا؛ وكان يخرج ويمرّ في السمٰوات يَخطِر في مِشيته ويرجع إلى الجنّة.

فلما رآه إبليس كلّمه بكلام ليّن، وقال: أيّها الطائر العجيب الخلق الطيّب الصوت، مَن تكون من طيور الجنة؟ فقال: أنا الطاووس، فمالك أيها الشَّخص كأنّك مرعوب تخاف من طالب يطلبك؟ قال إبليس: أنا من ملائكة الصَّفيح[1] الأعلى من زُمرة الكَرُوبيِّين[2]، وقد أحببتُ أن أنظر إلى الجنّة وإلى ما أعدّ الله فيها لأهلها فهل لك أن تُدخلني الجنّة وأنا أعلّمك ثلاثَ كلمات من قالها لا يَهرَم ولا يَسقَم ولا يموت؟ فقال له: وأهل الجنّة يموتون؟ قال: نعم ويَسقَمون ويَهرَمون إلّا من كانت عنده هذه الكلمات، وحلف له على ذلك، فوثق به الطاووس ولم يظنّ أحدًا يحلف بالله كاذبًا؛ فقال: ما أحوجني إلى هذه الكلمات، غير أنّي أخاف أن يستخبرني (رضوان)[3] عنك، ولكني أبعث إليك الحيّة فإنّها سيّدة دوابّ الجنة.

قال: وجاء الطاووس إلى الحية وهي يومئذٍ على صورة الجمل، ولها زغب كالعبْقريّ[4] ما بين أبيضَ وأحمر وأسود وأخضر، ولها عُرف من اللؤلؤ، وذوائبُ من الياقوت ورائحة كرائحة المسك والعنبر، وكان مسكنها في جنّة المأوى، وكانت تساير آدم وحوّاء في الجنة، وتخبرهما بالأشجار.

فلما أخبرها الطاووس بالخبر أسرعت الحية نحو باب الجنة، فتقدم إبليس إليها وقال لها كقوله للطاووس، وحلف لها؛ فقالت: حسبُك[5]، ولكن كيف أُدخلك؟ فقال: إني أرى ما بين نابيك فُرْجة، وهي تسعني. ففتحت الحيّة فاهَا، فوثب وقعد بين نابيها، فصار نابها إلى آخر الدهر سمًّا، وضمّت الحيّة شفتيها، ودخلتْ الجنّةَ ولم يكلّمها رضوانُ للقضاء السابق؛ فلمّا توسّطت الجنّة قالت: أُخرج وعجّل. قال: إن حاجتي من الجنة آدم وحوّاء، فإني أريد أن أكلّمهما مِن فيّك، فإن لم تفعلي ذلك فما أعلّمك الكلمات، فجاءت إلى حوّاء فقال إبليس مِن فيها: يا حوّاء، ألست تعلمين

(١) الصَّفيح: من أسماء السّماء.
(٢) الكروبيون: هم ملائكةٌ مقرّبون من الله سبحانه وتعالى، قيل: إنّهم سمّوا بهذا الاسم لأنّهم المتصدون للدّعاء بدفع الكرب عن الناس.
(٣) رضوان: ملك من الملائكة، وهو خازن الجنّة.
(٤) العبقريّ: الطّنافس الثخان، الواحدة عبقرية، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابة الكريم: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦﴾ [الرّحمٰن: الآية ٧٦].
(٥) حسبُك: أي كفاك.

أنّي معك في الجنة، وأحدّثك بكلّ ما فيها، وأنا صادقة في كلّ ما حدّثتُك به؟ قالت حوّاء: نعم؛ قال إبليس: يا حوّاء، أخبريني ما الّذي أحلّ لكما ربّكما من هذه الجنة وحرّم عليكما؟ فأخبرته بما نهاهما عنه؛ فقال إبليس: لماذا نهاكما عن شجرة الخُلد؟ فقالت حوّاء: لا أعلم بذلك؛ قال: أنا أعلم، إنما نهاكما لأنه أراد ألّا يفعل بكما ما فعل بالعبد الذي مأواه تحت شجرة الخلد.

هذا وحوّاء تظنّ أن الخطاب لها من الحيّة؛ فوثبتْ حوّاء عن سريرها لتنظر إلى العبد، فخرج إبليس من فيها كالبرق، فقعد تحت الشجرة، فأقبلتْ حوّاء فوقفت بالبعد منه ونادته: من أنت أيها الشخص؟ قال: خَلْقٌ من خَلْق الله، خلقني من نار كما تَرِينني، وأنا في هذه الجنة منذ ألفي عام، خلقني كما خلقكما بيده، ونفخ فيّ من روحه، وأسجد لي ملائكته، وأسكنني جنّته، ونهاني عن أكل هذه الشجرة، فكنت لا آكل منها، حتى نصحني بعضَ الملائكة وقال لي: كلْ منها، فإنّ من أكل منها كان مخلّدًا في الجنّة أبدًا. فأكلتُ منها، فأنا في الجنة إلى وقتي هذا، قد أمنتُ الهَرَم والسقم والموت والخروج من الجنّة.

ثـم قـال: والله ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠]، ثم نادى: يا حوّاء اسبقِي وكلي قبل زوجك، فمن سبق كان له الفضل على صاحبه. فأقبلتْ حوّاء إلى آدم وهي مستبشرة فرحة، فأخبرته بخبر الحيّة والشخص، وأنه قد حلف لها بأنّه لهما لمن الناصحين، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢١]؛ وتقدّمت حوّاء إلى الشجرة ولها أغصان لا تحصى، وعلى الأغصان سنابل، كل حبة منها مِثل قِلال هَجر[1]، ولها رائحة كالمسك، أبيض من اللبن وأحلى من العسل؛ فأخذتْ منها سبعَ سنابل من سبعة أغصان، فأكلت واحدة وادّخرت واحدة، وجاءت بخمس إلى آدم.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لم يكن لآدم في ذلك أمر ولا إرادة بل كان في سابق العلم، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]. فتناول آدم السنابلَ من يدها، وقد نسي العهد الذي أخذ عليه من

(١) القلال: جمع قلّة: وهي الجبل والقمّة، والقلال هنا: الجرّة العظيمة من فخار، وهجر: مدينة أو هي قاعدة البحرين وقيل: ناحية البحرين كلّها هجر، وقد جاء في الحديث ذكر القلال الهجريّة: قيل: إنها كانت تجلب من هجر إلى المدينة «معجم البلدان ٥/ ٣٩٣».

أجلها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: الآية ١١٥] فذاق من الشجرة كما ذاقت حواء؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٢].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: والذي نفسي بيده ما ساغ[١] آدم من تلك السنابل سنبلة واحدة حتى طار التاج عن رأسه، وعري من لباسه، وانتُزعت عنه خواتمه، وسقط كلُّ ما كان على حوّاء من لباسها وحليّها وزينتها، وناداهما كلّ ما طار عنهما: «يا آدم طال حزنك، وعظمت رزيّتك، وعليك السلام إلى يوم اللّقاء». ولم يبق عليهما من لباسهما شيء، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: الآية ٢٢]؛ ونظر كلٌّ منهما إلى سوءة[٢] صاحبه؛ وهرب إبليس فسار مستخفيًا في طرائق السمٰوات، وصاح آدم صيحة عظيمة، ولم يَبق في الجنة شيء إلّا لامه، وانقبضت عنه الأشجار؛ فلمّا كثرت عليه الملامات مرّ هاربًا على وجهه، فالتفّت عليه شجرة الطَّلْح[٣] وأمسكتْه ونادته: إلى أين تهرب يا عاصي؛ واضطربت الملائكة لذلك؛ والله الموفّق للصواب.

ذكر خروج آدم وحوّاء من الجنة

قال: وأمر الله جبريل فجاء إلى آدم وقبض على ناصيته[٤]، وخلّصه من الشجرة؛ فلما صار به إلى باب الجنة وأخرج رجله اليمنى وبقيت اليسرى، نودي: يا جبريل قف به على باب الجنّة حتى يخرج معه أعداؤه الذين حملوه على أكل الشجرة لكي يراهم ويرى ما يُفعل بهم. فوقّفه هنالك، فناداه الربّ: يا آدم إنّما خلقتك لتكون عبدًا شكورًا، لا لتكون عبدًا كفورًا. قال: يا ربّ أسألك أن تعيدني إلى تربتي التي خلقتني منها لأكون ترابًا كما كنتُ أوّل مرّة. قال: يا آدم، كيف أعيدك إلى تربتك وقد سبق علمي أن أملأ من ظهرك الجنّة والنار.

وأخرج آدمُ حوّاء وقد استترت بورقة من ورق الجنة بإذن الله؛ فلمّا رأت آدم صاحت وقالت: يا لها من حسرة؟ فوقفتْ خارج الجنّة، ثم أتى بالطاووس وقد طعنتْه الملائكة حتى قَطعت ريشه، وجبريل يجرّه ويقول: اخرج من الجنة خروج الأبد،

---

(١) ساغ: ذاق. (٢) السُوءة: العورة.

(٣) الطّلح: شجرٌ عظام ذات شوكٍ ترعاها الجمال.

(٤) الناصية: مقدّم الرأس.

فإنك شؤم أبدًا ما بقيت؛ ثم أتى بالحية وقد جذبتها الملائكة جذبًا شديدًا، وهي ممسوخة «مبطوحة» على بطنها لا قوائم لها، وصارت ممدودة مشوّهة، ومُنعت النطقَ فصارت خرساء، مشقوقة اللسان، فقالت لها الملائكة: لا رحمك الله ولا رحم من يرحمك.

ثم حُجبتْ حوّاء عن آدم من هناك؛ ومرّ به جبريل في طرائق السمٰوات، ونظرت إليه الملائكة عريانًا ففزعت منه، وقالت: إلٰهنا، هذا آدم بديع فطرتك أقله عثرته[1]. وآدم قد ترك يده اليمنى على رأسه، واليسرى على سَوأته، ودموعه تجري على خدّيه، وكلّما مرّ على ملإ من الملائكة يوبّخونه على نقض عهد ربّه وميثاقه، وأكثروا عليه في الملامة والتوبيخ؛ فقال لهم: يا ملائكة ربّي، ارحموني ولا توبّخوني، فالّذي جرى عليّ بقضاء ربّي، حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠].

ذكر سؤال إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ

قال: وقال إبليس: يا ربّ أضللتني وأغويتني وأبلستَني، وكان ذلك في سابق علمك ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحِجر: الآيات ٣٦ - ٣٨] وهي النفْحة الأولى، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعرَاف: الآيتان ١٦، ١٧].

قال الله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨].

قال إبليس: أنظرتَني[2] فأين يكون مسكني؟ قال: إذا هبطتَ إلى الأرض فمسكنك المزابل. قال: فما قراءتي؟ قال: الشعر والغناء. قال: فما مؤذّني؟ قال: المِزمار. قال: فما طعامي؟ قال: ما لم يُذْكر اسمي عليه. قال: فما شرابي؟ قال: الخمور. قال: فما بيتي؟ قال: الحمّامات؛ قال: فما مجلسي؟ قال: الأسواق. قال: فما شِعاري[3]؟ قال: لعنتي. قال: فما دِثاري[4]؟ قال: سُخطي. قال: فما

(١) أقال عثرته: صفح عنه.
(٢) أنظرتني: أمهلتني وأخّرتني.
(٣) الشّعار: اللّباس الذي يلي جسد الإنسان.
(٤) الدثار: الثوب الذي يُستدفأ به من فوق الثُّوب الذي يلي الجسد.

مَصايدي؟ قال: النساء. قال: فوعزّتك لا أخرجتُ محبّة النساء من قلوب بني آدم أبدًا. قيل له: يا ملعون، فإن ربّك لا ينزع التوبة من ولد آدم حتى يتغرغر[١] بالموت، ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [صَ: الآيتان ٧٧، ٧٨].

ذكر سؤال آدم ـ عليه السلام ـ

قال: فعند ذلك قال آدم: يا ربّ هذا إبليس قد أعطيتَه النَّظِرة[٢]، وقد أقسم بعزتك أنّه يُغوي أولادي، فبماذا أحترز من مَكايده؟ فنودي، يا آدم. إنّي قد مننتُ عليك بثلاث خصال، واحدةٌ لي، وهي أن تعبدني لا تشرك بي شيئًا؛ وواحدة لك، وهي ما عملتَ من صغيرة أو كبيرة من الحسنات فلك بالحسنة عشر وإن عملتَ سيئة فواحدة بواحدة، وإن استغفرتني غفرتها لك وأنا الغفور الرحيم. وواحدة بيني وبينك، وهي أنّ منك المسألة ومنّي الإجابة، فابسط يدك وادعني فإنّي قريب مجيب.

فصاح إبليس حسدًا لآدم وقال: كيف أكيد ولد آدم الآن؟ فنودي: يا ملعون ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ [الإسراء: الآية ٦٤]. قال إبليس: زدني يا ربّ؛ قال لا يولد لآدم ولد إلّا يولد لك سبعة. قال: ربّ زدني؛ قال: زدتك أن تَجريَ منهم مَجرَى الدم في عروقهم، وتسكنَ في صدورهم. فقال: يا ربّ حسبي؛ ثم قال: علام أهبِط إلى الأرض؟ قال: على الإياس[٣] من رحمتي.

قال: ثم نظر آدم إلى الحيّة وقال: ربِّ هذه اللعينةُ هي التي أعانت عدوّي عليّ، فبماذا أتقوّى عليها؟ فقيل له: قد جعلتُ مسكنها الظلمات، وطعامها التراب فإذا رأيتَها فاشْدَخ رأسها[٤].

وقيل للطاووس: مسكنك أطرافُ الأنهار، ورزقك ممّا تنبته الأرض منْ حَبّها، وألقي عليك المحبّة حتى لا تُقتل.

(١) يتغرغر: يردّده في حلقه، وتغرغر بالماء أو الدواء: ردّده في حلقه ولم يبلعه.
(٢) النظرة: الأجل والوقت المحدّد للانتظار. (٣) الإياس: أي اليأس.
(٤) شدخ رأسها: شقّه وهشمه.

ذكر سؤال حوّاء ـ عليها السلام ـ

قال: ثم قالت حوّاء: إلـٰهي خلقتني من ضِلْع أعوج، وجعلتني ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث، وضربتَني بالنجاسة، وحرمتَني الجُمُعة والجماعات؛ وذكرتُ مشَقّة الحمل والولادة ـ فأسألك أن تعطيني مِثلَ ما أعطيتهم.

فقيل لها: قد وهبتُ لك الحياء والأنس والرحمة، وكتبتُ لك من ثواب الحبل والولادة ما لو رأيتِه لقرّت[١] به عيناك، فأيّ امرأة ماتت في ولادتها حشرتُها في زمرة الشهداء. قالت: حسبي يا ربّ.

قال: ثم أمر الله بعد ذلك أن يهبطوا إلى الأرض؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٦]. فهبَط آدم من باب التوبة، وحوّاء من باب الرحمة، وإبليس من باب اللّعنة، والطاووس من باب الغضب، والحيّة من باب السُّخط، وكان ذلك وقت العصر.

قال السَّدّيّ[٢]: فمن هذه الأبواب تنزل التوبة والرحمة واللّعنة والغضب والسُّخط.

قال وهب[٣]: خلق الله آدم يوم الجمعة، وفيه دخل الجنّة وأقام فيها نصف يوم مقدار خمسمائة عام، وأهبط بين الظهر والعصر من باب يقال له: (المبرم)[٤] وهو حذاءَ البيت المعمور.

قال كعب[٥]: أهبط آدم إلى بلاد الهند على جبل من جبالها يقال له: (بُوذ) وهو جبل محيط بأرض الهند؛ وأهبطتْ حوّاء بجُدّة، وإبليس بدَسْتِمِيسان[٦]، والحيّة بأصفَهان، والطاووس بالبحر؛ ففرّق الله بينهم فلم ير بعضُهم بعضًا حينًا، ولم يكن

(١) قرّت عينه: سرّت واطمأنت.
(٢) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن، تابعي، سكن الكوفة، وهو صاحب التفسير والمغازي والسّير، وكان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيّام الناس: «الأعلام ١/ ٣١٧».
(٣) هو وهب بن منبه «تقدّم ذكره».
(٤) المبرم: كذا ورد هذا اللفظ في الأصل، ولعله من أبرم: أي أحكم، وأبرم الأمر: أحكمه.
(٥) كعب: هو كعب الأحبار ابن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحٰق تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في أيّام أبي بكر الصّديق، أخذ منه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الماضية، سكن حمص وتوفي فيها سنة ٣٢ هـ «الأعلام ٥/ ٢٢٨».
(٦) دستميسان: كورة بين واسط والبصرة والأهواز «معجم البلدان ٢/ ٤٥٥»

على آدم يوم أهبط إلّا ورقةٌ من أوراق الجنة، فذَرَتْها الرياح[١] في بلاد الهند فصارت معدنًا للطِّيب.

وأخذ آدم في البكاء مائة عام حتى نبت من دموعه العُود[٢] والزنجبيل[٣] والصندل[٤] والكافور[٥] وأنواع الطِّيب، وامتلأت الأودية بأطيب الأشجار؛ وبكت حوّاء فنبت من دموعها القرنفل والأفاويه[٦]؛ وكانت الريح تحمل كلامه إليها وكلامها إليه.

ثم أنبت الله عزّ وجلّ لآدم الشَّعر واللّحية، وكان قبل ذلك أمرد[٧] وجسده كالفضّة، فتألّم لذلك ألمًا شديدًا.

قال وهب: أوّل من علم بهبوط آدم من حيوان الأرض النَّسْر، وكان قد أَلِف الحوت، فجاء إليه وقال له: إني رأيت اليوم خَلْقًا عظيمًا ينقبض وينبسط، ويقوم ويقعد، ويجيء ويذهب. فقال الحوت: إن كان ما تقوله حقًّا فقد حان ألّا يكون لي معه مقرّ في البحر ولا لك في البرّ، وهذا الوداع بيني وبينَك. فجاء النَّسر إلى آدم وأَلِفه، وجاءه الوحش والطير وأَلِفوه وبكَوا لبكائه دهرًا طويلًا، فلمّا أضجرهم ذلك نفروا عنه ولم يبق عنده إلّا النَّسْر وحده وهو لا يَفتُر عن البكاء.

قال وهب: بكى آدم حتى بكت الملائكة لبكائه وقالوا: «إلٰهنا أقله عثرتَه».

قال: وبقي من دموعه في الأرض ـ بعد أن كَفّ عن البكاء ـ ما شربه الوحش والطير والهوامّ مائةَ عام؛ وكان لدموعه رائحة كالمِسك، ولذلك كثر الطِّيب في الهند.

وقال كعب: بكى آدم ثلاثمَائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء وهو يقول: «إلٰهي بأي وجه أنظر إلى السماء». فألهم الله سائر الحيوانات أن تأتي لآدم وتعزّيَه في مصيبته، فعزّاه جميعها ونهتْه عن البكاء وأمرتْه بالتسبيح والتقديس.

---

(١) ذرتها الرّياح: أي حملتها وفرّقتها. (٢) العود: نوعٌ من الطّيب يتبخر به.
(٣) الزنجبيل: نبات له عروق في الأرض حرّيفة الطعم لها عقد.
(٤) الصّندل: شجر هندي أبيض الزهر خشبه طيّب الرائحة.
(٥) الكافور: نبت طيّب زهره كزهر الأقحوان، تؤخذ من شجره مادة عطريّة تستعمل في الطبّ.
(٦) الأفاوية: التوابل.
(٧) الأمرد: الذي لم تنبت لحيته بعد وقد طلع شاربه.

ذكر توبة آدم عليه السلام

قال: فعند ذلك أمر الله تعالى جبريل أن يهبط على آدم، وقال له: «إن آدم بديعَ فِطْرتي قد أبكى أهل سمٰواتي وأرضي، ولا يَذكر غيري، ولم يخَفْ سواي، وهو أوّل من حمدني، وأوّل من دعاني بأسمائي الحسنى، وأنا الرحمٰن الّذي سبقت رحمتي غضبي، وهذه الكلمات قد خصصتُ بها آدم لتكون له توبة، وتخرجه من الظلمات إلى النور». فهبط عليه جبريل بالكلمات ولها نور عظيم، فقال: «السلام عليك يا طويل البكاء والحزن»؛ فلم يسمعه آدم لغليان صدره؛ فناداه بصوت رفيع: السلام عليك يا آدم. وأمرّ جناحَه على صدره ووجهِه حتى هدّأ من بكائه، وسمع الصوت فقال: أبنداء السُخط تنادي، أم بنداء الإحسان والغفران؟ قال: بل بنداء الرحمة والغفران، يا آدم: لقد أبكيتَ ملائكة السمٰوات والأرض، فدونك هذه الكلمات، فإنّها كلمات الرحمة والتوبة.

قال كعب: كانت الكلمات ما قالها يونس في ظُلماتٍ ثلاث: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧].

وقال عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما كانت: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كانت «لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءًا وظلمتُ نفسي فتُب عليّ يا خير التوّابين».

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٧].

قال: فلمّا قالها آدم انتشر صوتُه في الآفاق، فقالت الأرض والشجر والجبال: «أقرّ الله عينَك يا آدم، وهنّاك الله بتوبتك». وأمره الله أن يبعث بالكلمات إلى حوّاء؛ فحملتْها الريح إليها، فقالتها، فتاب الله عليها.

قال: ولمّا فرغ آدم من الدعاء والسجود قال له جبريل: ارفع رأسك. فرفعه وإذا قد رُفع له حجاب النور، وفُتحت له السمٰوات، ونودي بالتوبة والرضوان وقيل له: يا آدم، إنّ الله قد قبل توبتك. فذهب ليقوم فلم يقدر لأنه كان قد رَسَب[1] في الأرض

---

(١) رسب في الأرض: استقر ورسخ.

كعروق الشجر، فاقتلعه جبريل، فصاح صيحة شديدة للألم الذي أصابه، وقال: «ماذا تفعل الخطيئة»؟

ثم ضرب جبريل بجناحه الأرض فانفجرتْ عينُ ماءٍ مَعِينٍ برائحة كالمسك فاغتسل آدم منها، ثم كساه الله حُلَّتين من سُندس[1] الجنّة، وبعث الله تعالى ميكائيل إلى حوّاء، فبشرها بالتوبة، وكساها كذلك؛ وسأل آدم جبريلَ عنها؛ فأخبره أن الله قد قبل توبتها، وأنه يجمع بينهما في أشرف الأعياد وأكرم البقاع.

قال: وأمر الله عزّ وجلّ الملائكة والحيوانات أن يَقرُبوا من آدم ليهنّئوه فأتوه وهنّأوه كما كانوا عزَّوْه.

ثم أمر الله تعالى جبريل أن يضع يده على رأس آدم ليقصِّر من طُوله، وكان إذا قام وصل رأسُه إلى السماء، فيسمَع تسبيح الملائكة، فلمّا قصُر اغتمّ لفقد ذلك، فقال له جبريل: لا يغمّك ذلك فإن الله يفعل ما يريد.

وأمره الله ببناء بيت يحاذي البيت المعمور[2] ليطوف به هو وأولاده من بعده كما رأى الملائكة تفعل حول البيت المعمور؛ فبناه.

وقد ذكرنا صفة بنائه في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الأوّل من هذا الكتاب في خصائص البلاد، وهو في السفر الأوّل، فلا حاجة إلى إعادته هٰهنا. فلنذكر غير ذلك.

قال: وسار آدم من موضعه إلى موضع البيت؛ والله الهادي.

ذكر أخذ الميثاق على ذريّة آدم ـ عليه السلام ـ

قال: وأوحى الله تعالى إلى آدم: أنّي أريد أن آخذ على وديعتي الّتي في ظهرك الميثاق، فأحاطت الملائكة بآدم في أحسن صُورهم، فوقعت الرِّعدة على آدم من الخوف، فضمّه جبريل إلى صدره، واضطرب الوادي وارتجّ، فقال جبريل: اسكن فإنّك أوّل شاهد على الميثاق الذي يأخذه الله على ذريّة آدم. فسكن، ومسح الله تعالى على ظهر آدم كما شاء، وقال: «انظر يا آدم إلى من يخرج من ظهرك» فأوّل من بادر وكان أسرعَ خروجًا نبيُّنا محمد ﷺ فأجاب بالتلبية وأوى إلى ذات اليمين وهو يقول:

---

(١) السّندس: نوعٌ من رقيق الحرير.
(٢) البيت المعمور: الكعبة الشّريفة في مكّة المكرّمة.

أنا أوّل من يَشهد لك بالتوحيد، ويقرّ لك بالعُبوديّة، وأشهد أنّي عبدك ورسولك. فهو ﷺ أوّل الأنبياء في الخَلق، وآخرهم في البعث، وفي ذلك من الحكمة الإلٰهية والقدرة الربّانيّة ما لم يَخفَ على ذي لُبٍّ[(١)] وفهم، وليس هذا موضع ذكر ذلك. ثم أجابت الطبقة الثانية من النبيّين والمرسلين نبيًّا بعد نبيّ في نورهم وبهائهم، ثم خرجت زُمرة من المؤمنين بِيض الوجوه، معلنين بالتوحيد، فوقفوا دون النبيّين.

ثم مسح الله مسحة أخرى فخرج (قابيل) بن آدم مبادرًا وقد تبعه أهل الشِّمال[(٢)] فوقفوا ذات الشِّمال كلُّهم سود الوجوه. ثم قيل لآدم: «انظر إلى ولدك هؤلاء لتعرفهم بأسمائهم وأزمانهم» فنظر إلى أهل اليمين فضحك منهم، وبارك عليهم؛ ونظر إلى أهل الشِّمال فلعنهم وصرف وجهه عنهم؛ ثم استنطقهم الله تعالى فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] وأقررنا.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أمّا أهل اليمين فأجابوا بالسرعة، وأمّا أهل الشِّمال فأجابوا بالتثاقل. قال الله تعالى: «يا ملائكتي اشهدوا على ذرّيّة آدم بأنهم أقرّوا أنّي ربّهم لا يجحدونني شيئًا، وأنّ آدم قد بارك على أهل يمينه، ولعن أهلَ شِماله، فأهل اليمين في جنّتي برحمتي، وأهل الشِّمال في النار بما جحدوا من حقّي[(٣)]».

ثم ردّهم الله إلى ظهره كما أخرجهم بقدرته.

قال وهب: إذا كان يوم القيامة وحُشر الخَلْق لفَصْل القضاء قيل: يا آدم، «ابعثْ بعْثَ الجنّة إلى الجنّة، وبعثَ النار إليها». فيعرفهم بصوَرهم وأسمائهم؛ فيقول: «نَعَم يا ربّ»؛ ويراهم كما رآهم في الذرّيَّة، ويُقبل عليهم بوجهه ويقول: أَنَسيتم عهد ربّكم وشهادتَكم له بأنّه الله الواحد الأحد؟ فيقولون ما أخبرنا الله تعالى به عنهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣] يعنون قابيل بنَ آدم، لأنه أوّل من عصى ربَّه؛ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٩] يعنون إبليس وقابيل، فيقبض آدم بشِماله من كلّ ألفٍ تسعَمائة وتسعةٍ وتسعين إلى النار، وواحدًا بيمينه إلى الجنة؛ ثم يقول: يا ربّ هل وفيتُ؟ فيقال له: نعم ادخل الجنّة برحمتي.

---

(١) اللّب: العقل.

(٢) أهل الشّمال: أهل النّار.

(٣) جحدوا الحقّ: أنكروه.

ذكر اجتماع آدم بحوّاء

قال: وأقبل ملَك إلى حوّاء وهي جالسة بجُدّةَ على ساحل البحر، فقال لها: «خذي لباسك وانطلقي إلى الحرم»؛ ثم رمى بها بقميص وخِمار[١] من الجنّة، وتَوارى عنها حتى لبست القميصَ وتخمّرتْ بالخمار، ومضت إلى مكّة فدخلت الحرم من شرقيّه يومَ الجمعة من شهر المحرّم؛ فأمرها الملَك أن تقعد على جبل المروة؛ وإنّما سمّيت المروةَ لقعود المرأة عليها.

قال وهب: دخلتْ حوّاء الحرم قبل آدم بسبعة أيّام، ودخل آدمُ من غربيّ مكّة وحوّاء من شرقيّها، فصار آدم إلى جبل الصفا، فناداه: «مرحبًا بك يا صفيّ الله»، فسمّيَ الصّفا لذلك؛ وناداه الربّ: يا آدم، فقال: «لبّيك اللّهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنّعمة لك والمُلكَ لا شريك لك». فصار ذلك سنّة في الحجّ والعُمرة.

ثم أوحى الله إليه: «اليوم حرّمتُ مكّة وما حولها». فهي حرام إلى يوم القيامة. فقال آدم: يا رب، إنك وعدتني أن تجمع بيني وبين حوّاء في هذا المقام. فنوديَ: إنّها أمامك على المروة، وأنت على الصَّفا، فانظر إليها ولا تمسّها حتى تقضيَ المناسك. فهبَط آدم إليها، والتَقيا، وفرِح كلّ منهما بصاحبه، وسعى هو من الصفا، وسعت هي من المروة، فكانا يجتمعان بالنهار، فإذا أمسَيا رجع إلى الصفا، ورجعتْ إلى المروة، فكانا كذلك حتى دخل ذو القعدة، فأعاد آدم التلبية وعقدَ الإزار[٢]، ولم يزل يلبّي حتّى دخل ذو الحجّة؛ فهبَط جبريل وعلّمه المناسك وكساه ثوبًا أبيضَ لإحرامه، وطاف به، وعرّفه المناسك، أمره أن يطوف بالبيت سبعًا؛ فلمّا فعل ذلك قال له جبريل: «حَسْبُك[٣] يا آدم قد أحللتَ»؛ فانطلق آدم إلى حوّاء فاجتمع بها في ليلة الجمعة فحملتْ من ساعتها.

قال كعب: ما حملتْ حوّاء حتّى رأت الحيض ففزِعتْ وأخبرتْ آدم بذلك فمنعها من الصّلاة أيّامَ حيضها حتى ينقطع الدم؛ ثم جاءها ملَك فوقَفَها على زمزم[٤] وقال لآدم: اركُض برِجلِك في هذا الموضع. فركضها، فانفجرتْ الأرض

---

(١) الخمار: السّتر، وثوب تغطي به المرأة رأسها.

(٢) الإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) حسبُك: كفاك.

(٤) زمزم: هي البئر المباركة المشهورة، وسمّيت زمزم لكثرة مائها «معجم البلدان ٣/ ١٤٧».

بإذن الله عينَ ماءٍ مَعين؛ فكبّر آدم وحوّاء، وهمّت أن تشرب فمنعها وقال: «حتى يأذن لي ربّي». فاغتسلتْ حوّاء، وكان في ذوائبها[1] بقيّة من مِسك الجنّة، ففاحت الدنيا.

ذكر أبناء آدم وزرعِه وحرثِه

قال: ثم أوحى الله تعالى إلى آدم: «أنك إن لم تَعمُر هذه الدنيا لم يَعمُرها أحد من أولادك، فاعمرها». فبنى له مسكنًا يأوي إليه هو وحوّاء؛ ثم أخذ بعد ذلك في الحرث والزرع وحفر الآبار؛ وجاءه جبريل بالحبّة وهي على قدر بَيض النَّعام، بيضاء في لون الثلج وأحلى من العسل؛ وجاءه بثورين من ثيران الفردوس وجاءه بالحديد؛ فلمّا نظر آدم إلى الحَبّ صاح صيحة عظيمة، وقال: مالي ولهذا الحَبّ الّذي أخرجني من الجنّة.

قال: «هذا رزقك في الدنيا، لأنك اخترته في الجنّة، فهو غذاء لك ولذرّيّتك».

ثم قال له جبريل: يا آدم، قم فكن حرّاثًا زرّاعًا، وأتاه بالنار وقد غمسها في سبعين ماءً حتّى اعتدلتْ وكَمَنتْ في الحديد والحجر، وأمره أن يوقد النار ويُلين الحديد، ويتّخذ منه مِطرَقة وسَنْدانًا، ففعل؛ ثم اتخذ مُدية يذبح بها، وفأسًا يحفر بها ويكسر، ومحراثًا يحرُث به الأرض، ونيرًا؛ كلّ ذلك وجبريل يعلّمه.

قال وهب: أوّلُ ما اتخذ آدم من الحديد سَنْدانٌ ومِطرَقة وكلبتان[2]؛ ثم اتخذ بعد ذلك آلة النجارة، وأتاه جبريل بكبش من الجنّة، فنحره آدم، وأكل هو وحوّاء من لحمه، واتخذا مقراضًا فجزّا به الصوف من الكبش، وغزلاه، واتخذا منه جبّتين بغير كمّين، وكساءين، فاكتسى كلّ واحد منهما جبّة وكساء، فلما مسّت جلدَهما خشونة الصوف بكيا شوقًا إلى السندس والاستَبرق؛ فقيل لهما: «هذا لباس أهل الطاعة في الدنيا». وجيء بالأشجار التي ذكرناها في الفن الرابع من هذا الكتاب، وهو فنّ النباتات؛ وقد قدّمنا ذكرها فيما سلف منه.

وعن كعب أن الذي جاء بالحَبّ ميكائيل، لأنّه الموكَّل بالحَبّ والقَطر والنبات.

---

(١) الذوائب: جمع ذؤابة وهي شعر مقدّم الرأس.

(٢) الكلبتان: آلة من حديد يتناول بها الحدّاد الحديد المحمّى.

قال: فقام آدم فعقَد النِّير على عنقَي الثورين؛ ثم حرث وبذر، وكان يقف على الزرع ويقول: متى يُدرِك؟. فيسمع هاتفًا يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٣٧]؛ وكان الزرع في طول النخل، والسنبلة في طول مائة ذراع، بيضاء كالفضّة.

قال كعب: فلمّا استحقّ الزرع[١] كان آدم يَحصُد، وحوّاء تجمع؛ ثم عُلِّم آدم الدّراسةَ والتذريةَ والطحن والعجم والخَبز؛ ثم أكلا وشربا فأصابتهما النفخة والقَرقَرة[٢] في بطونهما؛ فتجشّأ آدم[٣] جُشاء متغيّرًا، وتغيّر عليه بدنُه وثَقُل؛ فلمّا ثَقُلتْ عليهما بطونهما أمرهما الملَك أن يتبرزا[٤] إلى الصحراء لقضاء الحاجة؛ فلمّا رأيا ذلك من أنفسهما بكيا بكاءً شديدًا، وقالا: «هذا الذي أورثنا ذنبنا».

ثم أمرهما الملَك أن يمسحا بالمَدَر[٥]، ثم يغسلا بالماء؛ ثم علّمهما الوضوء فتوضأ وضوء الإسلام؛ ثم أمرهما بالصلاة، فكان أوّل صلاة صلّاها آدم الظهر.

وكان آدم ربّما اشتغل عن صلاته ولا يعرف الأوقات، فأعطاه الله ديكًا ودجاجة، فكان الديك أبيضَ أفرقَ[٦] أصفرَ الرجلين، كالثور العظيم، وكان يضرب بجناحه عند أوقات الصلاة ويقول: سبحان من يسبّحه كلُّ شيء سبحان الله وبحمده، يا آدم: الصلاة يرحمك الله.

قال: وأخذَ آدم في الغرس حتى غرس كلَّ ما على وجه الأرض من أنواع الثمار والأشجار، وأخذت الأرض زَهرتَهَا؛ وكان آدم يأكل من بقول الأرض ونباتها.

قال وهب: أوّل بقلة زرعها آدم الهِنْدَبا، وأوّل ما زرع من الرياحين الحنّاء، ثم الآس.

ذكر حمل حوّاء ـ عليها السلام ـ وولادتها

قال: وواقع آدم حوّاء في ليلة الجمعة، فحملتْ بذكر وأنثى، وأسقطتهما في الشهر الثامن، فكان أوّل سِقْط في الدنيا؛ ثم حَملتْ ثانيًا كذلك، فأصابهما مِثلُ

---

(١) استحقّ الزّرع: نضج واستوفى وبلغ أوان الحصاد.
(٢) القرقرة: صوتٌ تحدثه الأرياح من الأمعاء، وتجشّأت المعدة: تنفست من امتلائها.
(٣) تجشأ الرّجل: اضطربت نفسه وثارت للقيء.
(٤) البراز: قضاء الحاجة.
(٥) المدر: الطين اللزج الذي لا يخالطه رمل.
(٦) الدّيك الأفرق: ذو العرفين أي أنّ عرفه مفروق.

الأوّل؛ ثم حملت ثالثة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩].

قال: فجاء إبليس إلى حوّاء وقال: أتحبّين أن يعيش في بطنك؟ قالت: نعم. قال: سمّيه (عبد الحارث).

وقال ابن حبيب[1] عن ابن عباس: أنها لمّا وضعته جاء إبليس وقال: ألا تسمّيانه باسمي؟ قالت له حوّاء: ما اسمك؟ فذهب ولم يتسمّ، ثم عاد إليهما فقال: كيف تريدان أن تسمّياه؟ قالا: نسمّيه (عبد الله). قال: أفتظنّان أنّ الله يترك عبده عندكما إن سمّيتماه (عبد الله)، لا والله لا يدعه عندكما حتى يقبضه، ولكن سمّياه (عبد شمس) فإنّه يبقى ما بقيت الشمس. فأطاعاه وسمّياه (عبد شمس)؛ فمات صغيرًا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: الآية ١٩٠].

قال وهب: أوحى الله إليهما «إنّكما أطعتما إبليس في هذه التسمية، فهلّا سمّيتُماه عبد الله أو عبد الرحمٰن أو عبد الرحيم» فجزِعا لذلك جزعًا شديدًا، وقالا: «لا حاجة لنا في هذا المولود». فأماته الله.

ثم حملت بذكر وأنثى، فلما وضعتهما سمّتهما (عبد الله) (وأمة الله)؛ ثم وضعت بطنًا آخر فسمّتهما (عبد الرحيم) (وأمة الرحيم)؛ ولم تزل كذلك حتى وضعت مائة بطن؛ ثم وضعت بعد ذلك هابيل وأختَه في بطن، ثم قابيلَ وأخته في بطن، حتى وضعت عشرين ومائةَ بطن ذكرٍ وأنثى، فتَناسَلوا وكثُروا.

ذكر مبعث آدم ـ عليه السلام ـ إلى أولاده

قال: ثم بعث الله عزّ وجلّ آدم إلى ذرّيّته رسولًا، وذلك في أوّل ليلة من شهر رمضان، وخصّه بالوحي، وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة فيها سُور مقطّعة الحروف، لا يتّصل حرف بحرف، وهو أوّل كتاب أُنزِل، وهو بألف لغة فيها

---

(١) ابن حبيب: هو محمد بن حبيب بن أميّة بن عمرو الهاشمي بالولاء، أبو جعفر البغدادي من موالي بني العبّاس، علامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، مولده ببغداد ووفاته بسامراء سنة ٢٤٥ هـ كثير التصانيف «الأعلام ٦/ ٧٨».

الفرائض[١] والسنن[٢] والشرائع[٣] والوعد والوعيد وأخبار الدنيا، وبيّن له فيها أهل كل زمان وصورهم وسِيرهم، وما يحدث في الأرض حتى المأكل والمشرب.

ثم أمره الله تعالى أن يكتبها بالقلم، فأخذ جلود الضأن فدبغها حتى صارت رَقًّا[٤]، وكتب فيها الحروف التسعة والعشرين، وهي في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، أوّلها: (أ) معناها، أنا الله الواحد الأحد الذي لم يزل. (ب) بديعُ السمٰوات والأرض. (ت) توحّد في ملكه، وتواضع كلّ شيء لعظمته. (ث) ثابت لم يَزَل ولا يزال. (ج) جميل الفعال، جواد، جليل المقال. (ح) حليم على من عصاه، حميد عند من أنشأه. (خ) خبير ببواطن الأشياء وظواهرها، خالق كلِّ شيء. (د) ديّان[٥] يومِ الدين، دانَ مَن خَلَقه. (ذ) ذو الفضل العظيم، والعرش المجيد، ذو الطَّول القَديم. (ر) ربّ الخلائق رزّاق رؤوف رحمٰن رحيم. (ز) زرّاع زرع من غير بَذْر، زائد لمن شكر، زيّن كلّ شيء برحمته. (س) سريع الحساب، سميع الدعاء، سريع الإجابة. (ش) شديد العقاب والبطش، شاهد كلّ نجوى. (ص) صمد صادق الوعد. (ض) ضياء السمٰوات والأرض، ضمن لأوليائه المغفرة. (ط) طاب من أخلص له من المطيعين، طوبى[٦] لمن أطاعه. (ظ) ظهر أمره، وظفِر أهلُ محبّته بالجنّة. (ع) عليم عالم علّام علا بالربوبيّة. (غ) غياث المستغيثين، غنيّ لا يفتقِر. (ف) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧]، فرد ليس له شريك. (ق) قيّوم، ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣]، قدير قاهر. (ك) كريم كان قبل كلّ شيء، كائن بعد كلّ شيء، كافي كلِّ بليّة. (ل) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]، وله الخلق والأمر. (م) مالك يوم الدين، متكبّر محسن محمود متين معبود منعم مِن قَبلُ ومِن بَعد. (ن) نور السمٰوات والأرض ناره مُعَدّة لأهل عذابه. (و) وليّ المؤمنين، ويل لمن عصاه، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطفّفين: الآية ١]. (هـ) هادٍ هدى من الضلالة من قدّر له ذلك برحمته ومشيئته. (لا) لا إلـٰه إلا الله الواحد القهّار، الّذي لا إلـٰه إلّا هو العزيز الحكيم. (ي) يعلم ما في السمٰوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما تُخفي الصدور.

---

(١) الفرائض: جمع فريضة، وهي ما تفرضه الأديان على أتباعها من واجبات.
(٢) السّنن: مفردها «سنّة»: وهي الطريقة والسّيرة.
(٣) الشرائع: مفردها «شريعة» وهي ما شرعه الله للناس من سنن وأحكام.
(٤) الرق: الصحيفة من جلد يكتب عليها. (٥) الدّيّان: الله الحاكم القاضي.
(٦) طوبى: قيل: هي منزلة في الجنّة أعدّت للمتّقين، والطوبى: السعادة والغبطة.

قال: فلما نزلت هذه الحروف علّمها آدم لولده، فتوارثها ولده، إلى أن بعث الله تعالى إدريس، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وأنزل عليه هذه الحروف.

ذكر قتل قابيل هابيلَ

قال: ودعا آدم ابنيه (هابيل) (وقابيل) ـ وكان يحبّهما من بين أولاده ـ فذكر لهما ما كان من أمره ودخوله الجنة، وسبب خروجه، وغير ذلك، ثم أمرهما أن يقرّبا قربانًا، وكان هابيل صاحب غنم، وقابيل صاحبَ زرع، فأخذ هابيل من غنمه كبشًا سمينًا لم يكن في غنمه خير منه، فجعله قربانًا؛ وأخذ قابيل من زرعه أدناه فقرّبه؛ فنزلتْ من السماء نار بيضاء لا حرّ ولا دخان فيها، فأحرقتْ قُربانَ هابيل، ولم تحرق قربان قابيل، فداخله الحسد من ذلك، وقال: إن أولاد هذا تفتخر على أولادي من بعدي، فوالله لأقتلنه. قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المَائدة: الآيتان ٢٧، ٢٨].

قال: ثم رجعا من مِنًى[1] ـ وهو موضع القربان ـ يريدان أباهما وهابيل أمام قابيل؛ فعمَد قابيل إلى حجر فضرب به رأس أخيه (هابيل) فقتله، ثم مرّ على وجهه هاربًا. قال الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المَائدة: الآية ٣٠]؛ وإذا هو بغرابين قد اقتتلا، فقَتَل أحدُهما الآخر، وجعل يبحث في الأرض برجليه حتى حفر حفرة ودَفن فيها المقتول؛ فقال قابيل في نفسه ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٣١].

فلما أبطأ على آدم خرج في طلبهما، فأصاب هابيلَ مقتولًا، فساءه ذلك واغتمّ غمًّا شديدًا، وكانت الأرض لمّا شربتْ دمه تغيّرت الأشجار عن نَضارتها، فيقال: إن آدم قال: [من الوافر]

تغيّرت البلادُ ومن عليها　　　فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحْ

(١) مِنًى: من مهبط العقبة إلى محسّر وموقف المزدلفة، من محسّر إلى أنصاب الحرم وموقف عرفة في الحلّ لا في الحرم، وهو مذكّر مصروف قال ابن الأعرابي: أمْنى القوم ومنى الله الشيء قدّره، وبه سمّي منى، وقال ابن شميل: سمّي منًى لأنّ الكبش مُني به أي ذبح «معجم البلدان ١٩٨/٥».

تـغـيّـر كـلُّ ذي لـونٍ وطـعـم وقـلّ بـشـاشـة الـوجـه الـمـليـحْ
قَـتَـلْ[١] قـابـيـلُ هـابـيـلًا أخـاه فوا أسفَى على الوجه الصبيحْ

ثم حمل آدم هابيلَ على عاتقه[٢] وهو باك، ثم دفنه، وبكى عليه هو وحوّاء أربعين يومًا، فأوحى الله تعالى إليه أن كُفّ عن بكائك، فإنّي سأهب لك غلامًا زكيًّا على صورة هابيل يكون أبا النبيّين والمرسلين. فسُرِّيَ[٣] عنه، وجامع حوّاء فحمَلت بشِيثٍ واسمه (هِبة الله) فلمّا وضعتْه كان على صفة هابيل وصورته؛ فلمّا ترعرع وبلغ بعث الله تعالى له قضيبًا من سدرة المنتهى[٤] في صفاء الجوهر، ورزق الله شيئًا الأولاد في حياة آدم؛ والله أعلم.

ذكر وفاة آدم ـ عليه السلام ـ

قال: وكان آدم لمّا أخرج الله تعالى الذرية من ظهره رأى داود عليه السلام وحُسنَ صورته، فسأل عنه وعمّا رزقه الله تعالى من العمر؛ فقيل له: إنه نبيّ الله داود، وإنّ عمره الذي كتبه الله له أربعون سنة. فقال: يا ربّ زد في عمره. قال: ذلك الذي كتبتُ له. فقال: يا ربّ فإنّي قد وهبته من عمري ستّين سنة. فلمّا انقضى من عمره تسعُمائة سنة وأربعون سنة أتاه ملَك الموت، فقال له آدم: قد عَجِلتَ عليّ، لأنّ ربّي كتب لي ألفَ سنة. قال: ألم تهَب منها لولدك داود ستّين سنة؟ قال: لا. قال: فجحد[٥] آدم وجحدت ذرّيّته من بعده، ونَسي فنَسيتْ.

وقيل في عمر داود: ستون سنة، وإن آدم وهبه أربعين سنة؛ والله أعلم.

فلما استكمل عدّته أمر الله بقبض روحه، فعَهِد إلى ابنه شيثٍ وأوصاه، وسلّم إليه التابوت، وكان فيه نَمَط[٦] من الجنّة أبيض أهداه الله تعالى لآدم، فيه صور الأنبياء والفراعنة من ذرّيته؛ فنشر آدم النَّمَط وأراه لابنه شيث، فنظر إليه، ثم أمر بطيّه ووضعه في التابوت؛ وعمد آدم إلى طاقات من شعر لحيته فوضعها في التابوت وقال له: يا بنيّ، إنك لا تزال مظفَّرًا على أعدائك ما دامت هذه

(١) قَتَلْ: بتسكين اللام، للضّرورة الشعرية، وقد ورد هذا البيت في كثير من الكتب بروايات أخرى وزيادات على هذه الأبيات، وهو في رأي كثير من النّقاد مختلق وموضوع ولا تثبت صحته أمام النقد الرّصين.

(٢) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

(٣) سرّي عنه: كشف عنه غضبه وهمّه.

(٤) سدرة المنتهى: شجرة في أقصى الجنّة عن يمين العرش.

(٥) جحد: أنكر على علم.

(٦) النمط: نوعٌ من البسط.

الشعرات سودًا فإذا ابيضّت فاعلم أنّك ميّت، فأوص إلى خير أولادك. وأوصاه بقتال أخيه قابيل.

ثم قبض الله تعالى نبيّه آدم في يوم الجمعة بعد أن استكمل ألف سنة، وصلّت عليه الملائكة صفوفًا، وصلّى عليه شيث، ودُفن عليه السلام.

وقيل: كانت وفاته بالهند، فلما كان زمن الطوفان حَمل نوحُ معه تابوت آدم في السفينة، ثم دفنه ببيت المقدس.

ذكر وفاة حوّاء

قال: ولما توفّي آدم عليه السلام لم تعلم حوّاء بموته حتى سمعت بكاءَ الوحش والسباع والطير، ورأت الشمس منكسفة؛ فقامت من قبّتها فَزِعة أن يكون حلّ بشيثٍ ما حلّ بهابيل، وصارت إلى قبّة آدم فلم تره، فصاحت صيحة عظيمة، فأقبل إليها شيث وعزّاها وأمرها بالصبر، فلم تصبر دون أن صرخت ولطمتْ وجهها ودقّت صدرها، فأورثت ذلك بناتها إلى يوم القيامة؛ ثم لزمت قبره أربعين يومًا لا تَطعَم؛ ثم مرضت مرضًا شديدًا ودام بها حتى بكت الملائكة رحمة لها؛ ثم قُبضت رحمة الله عليها فغسلها بناتُها، وكُفِّنت من أكفان الجنة ودُفنت إلى جنب آدم عليهما السلام ورأسُها إلى رأسه، ورِجلاها عند رجليه.

وقيل: كانت وفاتها بعد مضيّ سنة من وفاة آدم.

الباب الثاني
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في خبر شيث ابن آدم عليهما السلام وأولاده

قال: ولمّا مات آدم عليه السلام أسند وصيّته إلى ابنه شيث، وكان ممّا أوصاه به التمسّكُ بالعروة الوثقى[١]، وشهادةُ أن لا إله إلا الله، والإيمانُ بمحمّد رسول الله؛ وقال له: يا بنيّ؛ إني رأيت اسمه مكتوبًا على سُرادق[٢] العرش وأبوابِ الجنان

(١) العروة الوثقى: العُروة من الثوب: ما يُدخل فيه الزرّ، ومن الدّلو وغيره: مقبضه، وقيل هنا: إن العروة الوثقى هي أن يعقد الإنسان لنفسه من الدّين عقدًا وثيقًا لا تحلّه حجّة.

(٢) السُّرادق: كلّ ما أحاط بالشيء، والمنصّة.

وأطباق السمٰوات وأوراقِ شجرة طوبى؛ فهذه وصيّتي إليك. ثم نزع خاتَمَه من إصبعه ودفعه إليه، وتسلّم منه التابوت، ثم قال له: إن الله سيعطيك ثوب المجاهَدة، فحارب أخاك قابيل، فإن الله تعالى ينصرك عليه. وكان شيث حين الوصية إليه ابنَ أربعمائة سنة، فأطاعه أولاد أبيه، وصار إليه الفرس الميمون، وكان أغرَّ محجَّلًا إذا صَهَل أجابته الدوابّ كلُّها بالتسبيح.

ذكر قتال شيث قابيل

قال: ثم أمر الله تعالى شيث بن آدم بقتال قابيل، وكان قابيل قد اعتزل في ناحية من الأرض، فعَمَرها، وخدع أختًا له فأحبَلها، ورُزق منها أولادًا كثيرة فسار إليه شيث بجميع أولاده، وتقلّد سيف أبيه، وكان بين يديه عمود من الياقوت تحمله الملائكة يضيء بالليل والنهار؛ وسار وقد أحدقتْ[١] به الملائكة؛ فتوجّه إبليس إلى قابيل وأعلمه خبر أخيه، فتأهّب للقائه وقد داخله الفزع؛ ثم جاء شيث فقابله، فاقتتلا، فانكبّ قابيل على وجهه، فأخذه شيثٌ أسيرًا، وأسر جماعة من أولاده.

ثم أقبلت الملائكة إلى قابيل فسلكوه في سلسلة من سلاسل جهنّم، وغلّوا يده إلى عنقه، وساقوه بين يدي شيث مُهانًا وهو يقول: يا شيث احفظ الرَّحم بيني وبينك. فقال: لا رَحِمَ بيننا بعد أن قتلتَ أخاك ظلمًا.

ثم أمر شيث الملائكة فساقوه مغلولًا إلى عين الشمس بالمغرب، فلم يزل مواجهًا للشمس حتى مات كافرًا، وصار ذريّته عبيدًا وإماءً لشيث وأولاده.

ثم أخذ شيث بعد ذلك في عمارة المدن حتى بنى نيّفًا[٢] على ألف مدينة في كلّ مدينة منارة ينادَى عليها: (لا إلٰه إلا الله، آدم صفوة الله، محمد رسول الله). وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر هو وأولاده، حتى عمرت الدنيا؛ وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة، فكانوا يقرؤونها ويعملون بما فيها من غير عداوة ولا تباغض ولا تحاسد ولا فسقٍ بينهم؛ وكان إبليس يحسد شيثًا وأولادَه، فأقبل إبليس إليه في صورة امرأة حسناء، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: امرأة أرسلني الله إليك لتتزوّج بي، ولستُ من بنات آدم. فقال: إن ربي لم يأمرني بذلك ولا أخبرني

---

(١) أحدقت: أحاطت.

(٢) النيّف: الزّيادة، ولا تستعمل إلّا بعد العقود من الإعداد، يقال: عشرون طالبًا ونيّف، ولا يقال سبعة عشر طالبًا ونيّف...

عنك، وما أظنك إلا إبليس. فضحك وقال: إنما أنا امرأة من نساء الجنة، ولا تعصِ ربّك وتزوّجْ بي؛ وجعل إبليس يتزيّن له حتى كاد يفتنه[١]؛ فنادته الملائكة: يا نبيّ الله، إنه عدوّك إبليس. فقبض شيث عليه وهمّ بقتله؛ فقال: خلِّ عنّي فإني من المنظَرين[٢]، ولكن أعطيك الميثاق أنّي لا أتعرّض إليك بعدها. فأطلقه ولم يعد إليه.

وولد لشيث (أَنُوشُ) على طوله وحسنه؛ فجعله شيث مكانه والخليفةَ من بعده، وسلّم إليه التابوت، وأوصاه بقتال أولاد قابيل.

ومات شيثٌ وله سبعمائة سنة وعشرون سنة.

وقيل: بل عاش بعد آدم مائتي سنة، وعهد إلى ابنه (أَنُوشَ) فقام على أولاده بالطاعة ثلاثَمائة عام.

وعهد من بعده إلى ابنه (قَيْنَان)، فعُمِّر بعد أبيه مائتين وخمسين سنة.

وعهد إلى ابنه (مَهْلَائِيلَ)، وكثر في زمانه بنو آدم، وكان منزلهم الحرم فضاق بهم، فقسّم الأرض بينهم خمسة أقسام، وأرسل خمسة نفر من صلحاء قومه يقيمون لهم شرائع آدم عليه السلام ويتولّون الحكومة بينهم، وهم وَدٌّ وسُواعٌ ويَغُوثُ وَيعُوقُ ونَسْرٌ، وهؤلاء الذين لمّا فُقِدوا بلغ من وَجْد قومهم عليهم أن جعلوا لهم تماثيلَ يتسلّون بها؛ وترامى الأمرُ إلى أن عبدها القَرن الذي تلاهم، فكان ذلك هو السببَ لعبادة الأوثان.

ثم قام بالأمر بعد (مَهْلَائِيل) ابنُه (أَخْنُوخ)، وهو إدريس.

الباب الثالث
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في أخبار إدريس النبيّ عليه السلام

واسمه أخنوخ، وإنّما سُمّي إدريس لكثرة دراسته الكتب؛ وهو أوّل من بُعث من بني آدم؛ وهو أوّل من خط بالقلم بعد شيث، وأوّل من كتب في الصحيفة؛ وكان

---

(١) يفتنه: يضلّه.

(٢) من المنظرين: أي من الذين أمهلهم الله إلى يوم الوقت المعلوم.

مشتغلًا بالعبادة ومجالسة الصالحين حتى بلغ فانفرد للعبادة، فجعله الله تعالى نبيًّا، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وورّثه صحف شيث وتابوت آدم.

وكان يعيش من كسب يده؛ وكان خيّاطًا، وهو أوّل من خاط الثياب ولبسها وكانوا قبل ذلك يلبسون الجلود، حتى أتت عليه أربعون سنة، فبعثه الله تعالى إلى أولاد قابيل، وكانوا جبابرة، وقد اشتغلوا باللّهو والغناء والمزامير والطنابير وغير ذلك، وعبدوا الأصنام؛ وكان إدريس يدعوهم ثلاثة أيّام، ويعبد الله أربعة.

وحُكِيَ عن وهب أنه أوّل من اتّخذ السلاح، وجاهد في سبيل الله، ولبس الثياب، وأظهر الأوزان والأكيال، وأنار علم النجوم.

وكان إدريس شديد الحرص على دخول الجنة، وكان قد رأى في الكتب أنّه لا يدخلها أحد دون الموت، فبينما هو يسبح في عبادته إذ عَرَض له مَلك الموت في صورة رجل في نهاية الجمال؛ فقال له إدريس: من أنت؟ قال: عبدٌ من عبيد الله أعبده كعبادتك. واصطحبا، فكان إدريس يأكل من رزق الله، وهو لا يَطعم شيئًا؛ فسأله عن ذلك؛ فأخبره أنه مَلك الموت؛ فقال له: جئتَ لقبض رُوحي؟ قال: لا، ولو أمرني الله بذلك ما أمهلتُك، ولكنّه أمرني أن أصطحبك. فسأله إدريس أن يَقبض روحه؛ فقال له: وما تريد بذلك وللموت كربٌ[١] عظيم؟ قال: لعل الله تعالى يحييني فأكونَ أكثرَ في عبادته. فأمره الله بقبض روحه فقبضها، وأحياه الله تعالى لوقته.

ثم قال إدريس له بعد حين: هل تستطيع أن تَقِفَني[٢] على جهنّم؟ قال: ما حاجتك إلى ذلك ولها من الأهوال ما لا تطيق أن تنظر إليه، وما لي سبيل إلى ذلك، ولكني أَقِفُك على طريق مالكٍ خازنِها، والله أعلم بحاجتك. فاحتمله ووَقَفه على طريق مالك، فلما رآه كَشَر في وجهه، فكادت رُوحه تخرج، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى مالك: وعزّتي وجلالي لا رأى عبدي إدريس بعد كشرتك سوءًا، ارجع إليه وقِفْه على شَفير[٣] جهنّم ليرى ما فيها. فوقَفَه مالك على شفيرها ونظر إلى ما فيها من الأهوال، فلولا أن ثبّته الله تعالى لصعِق؛ ثم أعاده إلى مكانه، فاحتمله مَلك الموت إلى الأرض، فعبد الله عزّ وجلّ حينًا؛ ثم قال لمَلك الموت: هل لك أن تدخلني الجنّة

---

(١) الكرب: الحزن الشديد.

(٢) تقفني: من وقف يقف على الأمر والشيء: أي عاينه.

(٣) الشّفير: ناحية كلّ شيء وطرفه، وشفير الوادي: ناحيته من أعلاه.

لأرى ما أعدّ الله تعالى لأهل طاعته من النعيم؟ فقال: حاجتُك إلى الله تعالى، ولكنّي أحملك وأقف على طريق رضوان خازنِ الجنان فسله حاجتك. ففعل ذلك؛ فلما رآه رضوان قال: مَن هذا؟ قال: إدريس نبي الله يريد أن ينظر إلى نعيم الجنان. قال: «ذلك إلى ربّي». فأوحى الله تعالى إلى رضوان: أنّي قد علمتُ ما يريد عبدي إدريس، وقد أمرتُ غصنًا من أغصان شجرة طوبى أن يتدلّى إليه فيلتفَّ به ويدخلَه الجنّة، فإذا دخل فأقعِدْه في أعلى موضع؛ فلمّا دخلها إدريس ورأى ما فيها من النعيم قال له رضوان: اخرج الآن. قال له إدريس: أيدخل الجنّة من يخرج منها؟ فحاجّه[١] في ذلك، فأرسل الله تعالى له ملَك الموت، فقال له إدريس: ما حاجتك؟ إنك لن تُسلَّط على قبض روحي مرّتين، فاذهب. فرجع مَلك الموت إلى ربّه عزّ وجلّ وقال: إلـٰهي قد علمتَ ما قال إدريس. قال الله تعالى: إنه حاجّك بكلامي، فذره[٢] في جنتي. فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريَم: الآيتان ٥٦، ٥٧].

هذا ما أورده الكِسائيّ[٣] رحمه الله في كتاب المبتدأ.

ونقل الشيخ أبو إسحـٰق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبيُّ[٤] رحمه الله في كتابه المترجَم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) وفي تفسيره أيضًا في سبب رفع إدريس عليه السلام، قال: وكان سبب رفعه على ما قال ابن عَبّاس رضي الله عنهما وأكثرُ الناس: أنه سار ذات يوم فأصابه وَهَج الشمس، فقال: يا رب إني مشيتُ يومًا فتأذّيتُ منها، فكيف من يحملها خمسمائة عام في يوم واحد؟! اللهم خفّف عنه من ثقلها، واحمل عنه حرّها. فلمّا أصبح المَلك وجد من خفّة الشمس وخفة حرّها ما لا يَعرِف؛ فقال: يا رب، خلقتني لحمل الشمس، فما الّذي قضيتَ فيّ؟ فقال: أما إنّ عبدي إدريس سألني أن أخفّف عنك ثقلها وحرّها، فأجبته. قال: يا ربّ اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خُلّة[٥]. فأذنَ الله تعالى له؛ فأتى إدريسَ حتى إنّ إدريس

---

(١) حاجّه: غلبه بالحجّة والبيّنة. (٢) ذرْهُ: اتركه ودعْهُ.

(٣) الكسائي: هو علي بن حمزة مولى بني أسد، أشهر نحاة الكوفة، ومؤسس المذهب الكوفي، وأحد القرّاء السبعة، أصله فارسي، وله مؤلّفات عدة منها معاني القرآن مات سنة ١٨٩ هـ «الأعلام ٤/ ٢٨٣».

(٤) الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحـٰق، مفسّر من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ، من كتبه «عرائس المجالس، والكشف والبيان في تفسير القرآن» مات سنة ٤٢٧ هـ «الأعلام ١/ ٢١٢».

(٥) الخلّة: الصداقة والودّ.

لَيسأله، فكان ممّا سأله أن قال: أخبرت أنّك أكرم الملائكة عند مَلك الموت وأمكنُهم عنده، فاشفع لي إليه أن يؤخِّر أجلي فأزداد شكرًا وعبادة. فقال المَلَك ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنَافِقون: الآية ١١]. قال إدريس: قد علمتُ ذلك، ولكنّه أطيَب لنفسي. قال: نعم أنا مكلّمه لك، فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بني آدم فهو فاعله لك. ثم حمله ملك الشمس على جناحه، فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس؛ ثم أتى ملك الموت، فقال: لي إليك حاجة. قال: أفعلُ كلَّ شيء أستطيعه. فقال له: صديق لي من بني آدم يتشفّع بي إليك أن تؤخّر أجله. فقال: ليس ذلك إليّ، ولكن إن أحببتَ أُعلِمه أجله متى يموت فيتقدّم في نفسه. قال: نعم. فنظر في ديوانه[1]، فأخبره باسمه، فقال: إنك كلّمتني في إنسان ما أراه يموت أبدًا. ثم قال: إني لأجده يموت عند مطلع الشمس قال: فإنّي أتيتك وتركتُه هناك. فانطلِق فإنّه قد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء. فرجع الملك فوجده ميتًا.

قال: وقال وهب: كان يُرفع له في كلّ يوم من العبادة مثلُ ما يرفع لأهل الأرض في زمانه. فعجبتْ منه الملائكة، فاشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن الله تعالى في زيارته، فأذن له، فأتاه في صورة غلام؛ وكان إدريس يصوم الدهر كلّه فلمّا كان في وقت إفطاره دعاه إلى الطعام، فأبى أن يأكل معه، وفعل ذلك ثلاث ليال، فقال له إدريس في الليلة الثالثة: إنّي أريد أن أعلم من أنت. قال: أنا ملَك الموت، استأذنت ربّي أن أزورك وأن أصاحبك، فأذن لي في ذلك. فقال له إدريس: فلي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: اقبض رُوحي؛ فأوحى الله تعالى إليه: «اقبض روحه». ففعل، ثم ردّها الله تعالى إليه بعد ساعة، فقال له ملَك الموت: فما الفائدة في سؤالك قبضَ الروح؟ قال: لأذوق كرب[2] الموت وغمَّه فأكونَ له أشدّ استعدادًا.

ثم قال: لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنّة والنار. فأذن الله تعالى له في ذلك، فلمّا قرب من النار قال: لي إليك حاجة. قال له: وما تريد؟ قال: تسأل مالكًا حتى يفتح لي أبوابها فأردها. ففعل؛ ثم قال له إدريس: فكما أريتني النار فأرني الجنّة. فذهب إلى الجنة فاستفتح، ففُتحتْ له أبوابها، فأدخله الجنة؛ فقال له ملَك الموت: اخرج منها لتعود إلى مَقَرِّك. فتَعلّق بشجرة وقال: لا أخرج منها. فبعث الله تعالى ملَكًا حَكمًا بينهما؛ فقال له الملَك:

---

(١) الديوان: الدّفتر الذي تدوّن فيه الأسماء. (٢) الكرب: الحزن الشديد والهمّ.

مالكَ لا تخرج؟ قال: لأنّ الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٥] وقد ذقتُه. وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريَم: الآية ٧١] وقد وردتُها. وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٤٨] فلستُ أخرج. قال الله تعالى لملك الموت: دعه فإنه بإذني دخل الجنة، وبأمري يخرج. فهو هناك، فتارة يعبد الله في السماء الرابعة، وتارة يتنعّم في الجنة.

الباب الرابع
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في قصة نوح ـ عليه السلام ـ وخبر الطوفان

قال الكسائيّ رحمه الله تعالى قال وهب بن منبّه: لمّا رفع الله تعالى إدريس عليه السلام ترك إدريسُ في الأرض ولدَه متوشلح، فتزوّج بامرأة يقال لها: (ميشاخا)؛ فولدت له ولدًا سمّاه (لَمَك)، وكان يرجع إلى قوّة وبطش وكان يضرب بيده الشجرة العظيمة فيقتلعها من أصلها، وكان على وجهه نور نبيّنا محمد ﷺ؛ فخرج في يوم إلى البرّيّة فرأى امرأة في نهاية الجمال وبين يديها غنم ترعاها، فأعجبتْه، فسألها عن نفسها، فقالت: أنا قينوش ابنة براكيل بن محويل من أولاد قابيل بن آدم. فقال: ألك زوج؟ قالت: لا. قال: فما سنُّك؟ قالت: مائة وثمانون. قال: لو كنتِ بالغة لتزوّجتك ـ وكان البلوغ يومئذٍ لاستيفاء مائتي سنة ـ فقالت: كان عندي أنك تريد أن تفضحني، فأمّا إذا أردتَ الزواج فقد أتى عليّ مائتا سنة وعشرُ سنين. فخطبها من أبيها، وأرغبه بالمال؛ فزوّجه بها فحملت منه بنوح عليه السلام فلما كان وقت الولادة ولدته في غار خوفًا على نفسها وولدها من الملك لكونها تزوّجتْ بمن ليس منهم؛ فلمّا وضعتْه هناك وأرادت الانصراف قالت: وانُوحاه. وانصرفت، فبقي في الغار أربعين يومًا؛ ثم توفّي أبوه لَمَك؛ فاحتملته الملائكة ووضعتْه بين يدي أمّه مزيّنًا مكحولًا، ففرحتْ به وربّته حتى بلغ.

وكان ذا عقل وعلم ولسان وصوت حسن، واسع الجبهة، أسيل[1] الخدّ، وكان يرعى الغنم لقومه مدّة، وربما عالج التجارة؛ ثم كره مجاورة قومِه لعبادتهم الأصنام.

---

(١) أسيل الخدّ: أملسه وليّنه.

وكان لهم ملِك يقال له درمشيل؛ وكان جبّارًا عاتيًا قويًا، وهو أوّل من شرب الخمر واتّخذ القِمار وقعد على الأسرّة واتخذ الثياب المنسوجةَ بالذهب وأمر بصنعة الحديد والنحاس والرصاص؛ وكان هو وقومه يعبدون الأصنام الخمسة: وَدًّا وسُواعًا ويغوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا؛ ثم اتخذ ألف صنم وسبعمائة صنم على صور شتّى، واتخذ لها كراسيَّ من الذهب والفضة، وأقام لها الخدم يخدُمونها؛ فاعتزلهم نوح إلى البَراريّ ولم يخالطهم حتى بعثه الله تعالى نبيًا؛ والله أعلم بالصواب.

ذكر مبعث نوح عليه السلام

قال: فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يهبط إلى نوح ويبشره بالنبوّة والرسالة؛ فهبط جبريل عليه، وجاءه بوحي الله أن يسير إلى درمشيل الملِكِ وقومه ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى؛ فأقبل نوح إلى قومه من يومه ـ وكان يوم عيدهم وقد نصبوا أصنامهم على أسرّتها وكراسيِّها، وهم يقرّبون القرابين لها، وكانوا إذا فعلوا ذلك يخرّون لها سجّدًا ويشربون الخمر، ويضربون بالصَّنْج[١]، ويأتون النساء كالبهائم من غير تستّر ـ فجاءهم وهم يزيدون على تسعين زمرة[٢]، كلّ زمرة لا يُحصَون كثرة، فاخترق الصفوف حتى صار في وسط القوم، وسأل الله تعالى أن ينصره عليهم؛ فلما أرادوا السجود للأصنام نادى: أيها القوم، إني قد جئتكم بالنصيحة من عند ربّكم أدعوكم إلى عبادته وطاعته، وأنهاكم عن عبادة هذه الأصنام ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٠٨]. فخرقتْ دعوته الأسماع، وهوت الأصنام عن كراسيِّها، وسقط الملك عن سريره مغشيًا عليه، فلمّا أفاق قال: يا أولاد قابيل، ما هذا الصوت الّذي لم أسمع مثله؟ قالوا: أيّها الملك، هذا صوت رجل منّا اسمُه نوح بن لَمَك كان يجانبنا[٣] قبل ذلك بجنونه، والآن قد اشتدّ عليه فقال ما قال. فغضب الملك واستدعاه، فأتوه به بعد أن ضربوه الضرب الشديد؛ فقال له: مَن أنت، فقد ذكرتَ آلهتنا بسوء؟ قال: أنا نوح بن لَمَك رسولُ ربّ العالمين، جئتكم بالنصيحة من عند ربّكم لتؤمنوا به وبرسوله، وتهجروا هذه الأصنام والقبائح. فقال درمشيل: إنّك قد جئتنا بما لا نعرفه، ولا نعتقد أنك عاقل، فإن كان بك جِنّة[٤] فنداويك أو فقر

---

(١) الصّنج: صفيحة من النّحاس مدوّرة تضرب على أخرى مثلها للطرب.

(٢) الزّمرة: الجماعة.

(٣) يجانبنا: يبتعد عنّا ويفارقنا في معتقده وأفعاله ومجالسته.

(٤) الجنّة: الجنون.

فنواسيك. قال: يا قوم، ما بي جنون ولا حاجة إلى ما في أيديكم، ولكنّي أريد أن تقولوا: لا إلـٰه إلا الله وإني نوحٌ رسول الله. فغضب درمشيل وقال: لولا أنه يوم عيد لقتلناك.

فأوّل من آمن به امرأة من قومه يقال لها: (عَمرة) فتزوّجها فأولدها (ساما) (وحاما) (ويافثَ) وثلاثَ بنات؛ ثم آمنت به امرأة أخرى من قومه يقال لها: (والعة) فتزوّجها فأولدها كنعانَ؛ ثم نافقتْ وعادت إلى دينها.

وكان نوح يخرج في كلّ يوم في أنديةٍ لقومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى فيضربونه حتى يُغشَى عليه، ويجرّون برجله فيُلقُونه على المزابل، فإذا أفاق عاد إليهم بمثل ذلك، ويعاملونه بمثله؛ حتى أتى عليه ثلاثُمائة سنة وهو على هذه الحال؛ ثم مات ملِكهم درمشيل، وملك بعده ابنه بولين، وكان أعتى وأطغى من أبيه وكان نوح يدعوهم في القرن الرابع على عادته، فيضربونه ويشتمونه، وربما سَفَوْا[1] عليه التراب ويقولون: إليك عنا يا ساحر يا كذّاب. ويضعون أصابعهم في آذانهم؛ فينصرف عنهم ويعود إليهم، وإذا خلا بالرجل منهم دعاه، وهم لا يزدادون إلّا عتوًّا وتمرّدًا واستكبارًا، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: الآيات ٥ - ٧] الآيات.

ثم دعاهم حتى استكمل ستّة قرون؛ فلمّا دخل القرن السابع مات ملكهم (بولين) واستخلف عليهم ابنه (طفردوس) - وكان على عتُوّ أبيه - وكان نوح يأتي أصنامهم بالليل وينادي بأعلى صوته: يا قوم، قولوا (لا إلـٰه إلا الله، وإني نوح رسول الله). فتُنكّس الأصنام؛ وكانوا يضربون نوحًا ضربًا شديدًا، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه.

وكان الرجل منهم عند وفاته يوصي أولاده ويأخذ عليهم العهد ألا يؤمنوا به؛ ويأتي الرجل بابنه إلى نوح ويقول: يا بنيّ انظر إلى هذا فإنّ أبي حملني إليه وحذّرني منه، فاحذره أن يزيلك عمّا أنت عليه فإنّه ساحر كذّاب. وهو بعد ذلك يدعوهم؛ فضجّت الأرض إلى ربّها وقالت: ما حلمك على هؤلاء؟ وضجّ كلُّ شيء إلى ربّه من عتوّهم[2]، ونوح يدعوهم ويذكّرهم بآيات الله؛ فلمّا كان في بعض

(١) سفوا على وجهه التراب: حثوا وذروا ورموا.

(٢) العتوّ: الاستكبار والإفراط في الكفر والظلم.

الأيّام إذا هو برجل من كبار قومه قد أقبل بولده يحذّره منه؛ فضرب الغلام بيده إلى كفّ تراب وضَرب به وجه نوح، فعند ذلك قال نُوحٌ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نُوح: الآيتان ٢٦، ٢٧] فأمّنت الملائكة على دعوته، فمنع الله عنهم القَطر والنبات؛ فعلم نوح أنّ الله مُهلكَ قومه؛ فأحبّ أن يؤمن بعضُهم إن لم يؤمنوا كلُّهم؛ فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: الآيتان ٣٦، ٣٧].

ذكر عمل السفينة

قال: وأوحى الله تعالى إليه أن يتّخذها في ديار قومه، وأن يجعلها ألفَ ذراع طولًا وخمسمائة عرضًا وثلاثمائة ارتفاعًا، فأعدّ آلاتِ النّجارة، وشرع في عملها وأعانه أولادُه ومن آمن من قومه، والناس يسخرون منه ويقولون: بعد النبوّة صرت نجّارًا، ونحن نشكو القحط، وأنت تبني للغرق. قال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: الآيتان ٣٨، ٣٩]؛ وكانوا يأتون السفينة بالليل فيشعلون فيها النار ولا تحترق، فيقولون: هذا من سحرك يا نوح.

وجعل نوح رأسَ السفينة كرأس الطاووس، وعنقَها كعنق النَّسر، وجؤجَؤها[1] كجؤجؤ الحمامة، وكوثلها[2] كذنَب الديك، ومنقارَها كمنقار البازي، وأجنحتَها كأجنحة العُقاب؛ ثم غشّاها بالزفت، وجعلها سبعَ طبقات لكلّ طبقة باب؛ فلمّا فرغ من بنائها نطقت بإذن الله وقالت: لا إلٰه إلا الله إلٰه الأوّلين والآخرين، أنا السفينة، من ركبني نجا، ومن تخلّف عنّي غرق، ولا يدخلني إلّا أهل الإخلاص. فقال نوح لقومه: أتؤمنون؟ قالوا: هذا قليل من سحرك. ثم استأذن ربّه في الحج، فأذن له؛ فلمّا خرج همّ القومُ بإحراقها، فأمر الله الملائكة فاحتملوها إلى الهواء، فكانت معلّقة حتى عاد من حجّه. ولمّا قضى مناسكه[3] رأى تابوت آدم عن يمين الكعبة، فسأل ربّه في ذلك التابوت فأمر الملائكة فحملوه إلى دار نوح - وكانت يومئذٍ في مسجد الكوفة - فلمّا رجع من حجّه نزلت السفينة من الهواء، ثم أوحى الله إليه: أن قد دنا هلاكُ

(١) الجؤجؤ: عظام صدر الطائر. (٢) الكوثل: مؤخر السفينة.
(٣) المناسك: شعائر الحجّ وفرائضه.

قـومـك ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٧]. ثم أمره الله تعالى أن ينادي في الوحش والسباع والطير والهوامّ والأنعام؛ فوقف على سطح منزله، ونادى: «هلمّوا إلى السفينة المنجّية». فمرّت دعوته إلى الشرق والغرب والبعد والقرب، فأقبلتْ إليه أفواجًا.

فقال: إنّما أُمرتُ أن أحمل من كلٍّ زوجين اثنين؛ فأَقْرَع بينهم، فأصابت القُرْعةُ مَنْ أذن اللهُ في حَمْله، وكان معه من بني آدم ثمانون إنسانًا بين رجل وامرأة؛ فلما كان في مستهلّ شهر رجب نودي من التنّور وقت الظهر: قم يا نوح فاحمل في سفينتك من كلٍّ زوجين اثنين من الذكر زوجًا ومن الأنثى زوجًا، فحملهم. وكان معه جسد آدم وحوّاء؛ وتباطأ عليهم الحمار في صعوده، لأن إبليس تعلّق بذَنَبه؛ فقال نوح بالنبطيّة: على سيطان، يعني ادخل يا شيطان؛ فدخل ومعه إبليس فرآه نوح فقال: يا ملعون، من أدخلك؟ قال: أنت حيث قلت: على سيطان: فعاهده ألا يغويَ[1] أهل السفينة ما داموا فيها.

ثم أوحى الله إلى جبريل أن يأمر خَزنة الماء أن يرسلوه بغير كيل ولا مقدار وأن تُضرَب المياهُ بجناح الغضب. ففعل ذلك، ونبعت العيون، وهطلت السماء ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: الآية ١٢] وكان ماء السماء أخضر، وماء الأرض أصفر؛ وأمر الله الملائكة أن يحملوا البيت إلى سماء الدنيا؛ وكان الحجر يومئذ أشدّ بياضًا من الثلج؛ فيقال إنه اسودّ من خوف الطُّوفان؛ وقال نوح عند ركوبه السفينة ما أخبرنا الله عنه في كتابه العزيز: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هـود: الآيات ٤١ - ٤٣].

قال: كان ابنه هذا كنعان.

قال: وكانوا لا يعرفون الليل من النهار إلّا بخرزة كانت مركّبة في صدر السفينة بيضاء، فإذا نقص ضوءها علموا أنّه النهار، وإذا زاد علموا أنّه اللّيل؛ وكان الديك يصيح عند أوقات الصلاة؛ وعلا الماء على الجبال أربعين ذراعًا؛ وسارت

(١) يغوي: يضلّ بدهائه ومكره.

السفينة حتى بلغت موضع الكعبة، فطافت سبعًا، ونطقت بالتلبية؛ وكانت لا تقف في موقف إلّا وتناديه: يا نوح هذه بقعة كذا، وهذا جبل كذا؛ حتى طافت به الشرق والغرب ورجعتْ إلى ديار قومه، فقالت: يا نبيّ الله، ألا تسمع صلصلة السلاسل في أعناق قومك؟ قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نُوح: الآية ٢٥]؛ ولم تزل السفينة كذلك ستّة أشهر آخرها ذو الحجة.

وقيل: كان ركوب نوح ومن معه السفينةَ لعشر خلون من شهر رجب وذلك لتتمّة ألفَي سنة ومائتي سنة وخمسين سنةً من لدن أهبط الله تعالى آدم عليه السلام وخرجوا منها في العاشر من المحرّم بعض مضيّ ستة أشهر؛ ثم استقرّت على جبل الجُودِيّ[1]، قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ [هود: الآيات ٤٤ - ٤٦].

قال: ثم فتح نوح باب السفينة، فنظر إلى الأرض بيضَاء من عظام قومه؛ وبعث الغراب لينظر ما بقي على وجه الأرض من الماء؛ فأبطأ، فبعث الحمامة فانطلقت شرقًا وغربًا وعادت مسرعة، فقالت: يا نبيّ الله، هلكت الأرض ومن عليها، وأما الماء فإني لا أراه إلّا ببلاد الهند، ولم تَبق على وجه الأرض شجرة إلّا الزيتون، فإنّها على حالها. فأوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ [هُود: الآية ٤٨] فخرج من السفينة وأخرج من فيها، وأعاد الله الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأشجار والنبات كما كانت، وتفرّق الوحش والسباع والطيور وغيرُها في الأرض؛ وأمر نوح فبُنيت قرية في أسفل جبل الجُودِيّ وسمّيتْ (قريةَ ثمانين) على عددهم.

قيل: هي الجزيرة؛ وهي أوّل قرية بُنيتْ على وجه الأرض بعد الطُّوفان ثم قسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة: سام وحام ويافِث، فأُعطِيَ سامُ الحجازَ واليمن والشأم، فهو أبو العَرَب، وأُعطِيَ حامٌ بلادَ المغرب فهو أبو السّودان وأُعطِي يافثُ بلادَ المشرق، فهو أبو الترك.

---

(١) الجودي: هو جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، عليه استوت سفينة نوح عليه السلام «انظر معجم البلدان ٢/ ١٧٩».

ثم أوحى الله عزّ وجلّ إلى نوح أن يردّ التابوت إلى المكان الذي أخذ منه، فردّه.

ذكر خبر دعوة نوح على ابنه حام ودعوته لابنه سام

قال: ولما استقرّ الأمر قال نوح لبنيه: إني أحب أن أنام، فإنني لم أتهنّأ بالنوم منذ ركبتُ الفُلك. فوضع رأسه في حجر ابنه حام، فهبّت الريح فكشفت عن سوءته، فضحك حام، وغطّاه سام؛ فانتبه فقال: ما هذا الضحك؟ فأخبره سام، فغضب وقال لحام: أتضحك مِن سوءة[1] أبيك؟ غيّر الله خلِقتَك، وسوّد وجهك. فاسودّ وجهه لوقته. وقال لسام: سَترتَ عورة أبيك، ستر الله عليك في هذه الدنيا، وغفر لك في الآخرة، وجعل من نسلك الأنبياء والأشراف، وجعل من نسل حام الإماء والعبيد، وجعل من نسل يافثَ الجبابرةَ والأكاسرةَ والملوكَ العاتية.

ذكر وصيّة نوح ووفاته

قال كعب: بعث الله عزّ وجلّ نوحًا إلى قومه وله مائتان وخمسون سنة ولبث فيهم ألفَ سنة إلّا خمسين عامًا، وعاش بعد الطُّوفان مائتي سنة؛ فلمّا حضرته الوفاة دعا بابنه سام وقال له: أوصيك يا بُنيّ باثنين، وأنهاك عن اثنين: أوصيك «بشهادة أن لا إلٰه إلا الله»، فإنّها تَخرق السمٰوات السبع، لا يحجبها شيء، والثانية أن تُكثر من قولك: «سبحان الله وبحمده»، فإنها جامعة الثواب؛ وأنهاك عن الشِّرك بالله، والاتّكال على غير الله. فلمّا فرغ من ذلك أتاه ملَك الموت، فسلّم عليه فقال: من أنت؟ فقد ارتاع قلبي من سلامك. قال: أنا ملَك الموت، جئتُ لقبض رُوحك. فتغيرّ وجهه وجزِع[2]، فقال له: ما هذا الجزع، ألم تشبع من الدنيا في طول عمرك؟ قال: ما شبّهتُ ما مضى من عمري في الدنيا إلّا بدارٍ لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر. فناوله ملَك الموت كأسًا فيها شراب وقال: اشرب هذا حتى يسكن روعك. فلمّا شربه خرّ ميتًا عليه السلام والله الموفّق.

ذكر خبر أولاد نوح ـ عليه السلام ـ من بعده

فأما حام فإنه واقع زوجته فولدتْ غلامًا وجارية سُودًا[3]، فأنكرهما حام؛ فقالت امرأته: «لحقتك دعوة أبيك». فلم يقربها حينًا؛ ثم واقعها فولدت مثلهما فتركها

---

(١) السوءة: العورة. (٢) جزع: خاف.
(٣) سودًا: أراد هنا ما فوق الواحد، فقال: «سودًا» على سبيل الجمع.

حامٌ وهرب على وجهه؛ فلما كَبِر الولدان الأوّلان خرجا في طلب أبيهما حتى بلغا قرية على شاطىء البحر فنزلاها، وواقع الغلام أخته فحملت منه وولدت غلامًا وجارية؛ وأقاما في ذلك الموضع لا مأكل لهما إلّا السمك؛ فرجع حامٌ في طلب ولديه فلم يجدهما، فاغتمّ[١] لذلك؛ ثم ماتت امرأته، فخرج الولدان الآخَران في طلب أخوَيهما حتّى صارا إلى قرية أخرى على الساحل خرِبة؛ فنزلاها فسمع بهما الأخوان اللّذان في البطن الأوّل، فلحقا بهما؛ ونزلوا هناك، ووطىء كلٌّ منهما أخته؛ فرُزِقوا أولادًا، وكثر منهم النسل، وانتشروا في أعلى الأرض على ساحل البحر؛ فمنهم النُّوبة والزَّنْج والبربر والهند والسند وجميع طوائف السودان.

وأمّا يافثُ بن نوح، فإنه صار إلى المشرق، فوُلد له هناك خمسةُ أولاد[٢]: جومر وتِيرس وأشار وسفويل ومياشخ؛ فمن جومر جميع الصَّقالبة والروم وأجناسهم؛ ومن تِيرس جميع الترك والخَزَر وأجناسهم؛ ومن مياشخ جميع أصناف العجم؛ ومن أشار يأجوج ومأجوج؛ ومن سفويل جميع الأرمن.

وأما سام بن نوح فولد خمسةَ أولاد: أرفخشذ، وهو أب العرب؛ ولاوَذ وهو أبو العمالقة؛ وأشور، وهو أبو النسناس؛ وعيلم، وهو أبو العادية الأولى، وإرم، وهو أبو عاد وثمود؛ ورُزِق غيرَهم ممّن لم يُعقب.

الباب الخامس
من القسم الأوّل من الفن الخامس
في قصة هود ـ عليه السلام ـ مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم

قال وهب: كان ملِكُ عادٍ الأكبر اسمه الخَلَجان بن عاد بن العَوْص بن إرَم بن سام؛ وكان قومه يَرجِعون إلى فصاحة وشعر، وكان له ثلاثة أصنام: صَدًا وَهبا، وصَمُو؛ وكان مَلِكُهم قد حلّى هذه الأصنام بأنواع الحليّ، وطيّبها، وجعل لها عدّة من الخدم بعدد أيّام السنة؛ فعتوا[٣] في المعاصي، وانهمكوا على عبادة الأصنام؛

(١) اغتم: حزن.
(٢) يلاحظ أن كتب التاريخ مختلفة تمام الاختلاف في رواية كثيرة من هذه الأسماء العشرة، أولاد يافث وسام، حتى إنّه لا صلة بين رواية وأخرى، ومن المتعذّر الوصول إلى تحقيق كثير من هذه الأسماء.
(٣) عتوا: استكبروا وجاوزوا الحدّ.

وكان فيهم رجل من أشرافهم اسمه الخلود بن معيد بن عاد، وكان له بَسْطة[١] في الخَلْق وقوّة في الجسم، مع الحُسن والفصاحة؛ وكان إذا قيل له: لم لا تتزوّج وقد بلغتَ سنّ أبيك؟ يقول: رأيت في المنام كأن سلسلة بيضاء قد خرجتْ من ظهري، ولها نور كالشمس، وقيل لي: إذا رأيت هذه السلسلة قد خرجتْ من ظهرك ثانية فتزوّج بالتي تؤمر بتزوّجها؛ ولم أرها بعد، وقد عزمتُ على التزوّج. وقام ليعبر بيتَ الأصنام يدعو بالتوفيق في التزوّج، فلما همّ بالدخول لم يقدر، وسمع هاتفًا يقول: يا خلود، ما لمن في ظهرك والأصنام؟ فلم يعد إليها. ثم رأى بعد ذلك في منامه السلسلة وقد خرجت من ظهره وقائلًا يقول: «قم يا خلود فتزوّج بابنة عمك» فانتبه وخطبها وتزوّجها، وواقعها فحملتْ بهود؛ وأصبح القوم وهم يسمعون من جميع النواحي: هذا هود قد حملت به أمّه، ويلكم، إن لم تطيعوه هلكتم.

ووضعَتْه أمّه في ليلة الجمعة، فوقعت الرِّعدة على قبائل عاد، ولم يعلموا ما حالهم؛ فعلموا أنه قد ولد لخَلود ولد، فقال بعضهم لبعض: ليكونن لهذا الولد شأن فاحذروه. فخرج أحسنَ الناس وجهًا، وأكمَلهم عقلًا، وسمّته أمّه عابرَ، فرأته أمّه ذات يوم يصلّي، فقالت: لمن هذه العبادة يا بنيّ؟ قال: لله الذي خلقني وخَلَقَ الخلَق. قالت: أليس هي لأصنامنا؟ قال: إنّ أصنامكم لا تضرّ ولا تنفع وإنما الشيطان قد زيَّن لكم عبادتها. قالت: أُعبد إلٰهك يا بنَيّ، فقد رأيت منك حين كنتَ حَمْلًا وطفلًا عجائبَ كثيرة.

ذكر مبعث هود ـ عليه السلام ـ

قال: ولم يزل هود في ديار قومه يجادلهم في أصنامهم، حتى أتت عليه أربعون سنة؛ فبعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه رسولًا، وأتاه الوحي، فانطلق إليهم وهم متفرّقون في الأحقاف[٢]، وهي الرمال والتِّلال ـ وكانت مساكنهم ما بين عُمان[٣] إلى حضرموتَ[٤] إلى الأحقاف إلى عالجة[٥] ـ فأتاهم في يوم عيد لهم

(١) البسطة في الخَلْق: الزّيادة والكمال.

(٢) الأحقاف: مفردها «الحقف» وهو المعوج من الرّمل.

(٣) عُمان: اسم كورة عربيّة على ساحل بحر اليمن والهند، في شرقي هجر، تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع، إلّا أن حرّها يضرب به المثل «معجم البلدان ٤/ ١٥٠».

(٤) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السّلام «معجم البلدان ٢/ ٢٧٠».

(٥) عالجة: الذي في معجم البلدان «عالج» فقد ذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوبار=

وقد اجتمع الملوك على الأسرّة والكراسيّ، ومَلِكهم الخلجانُ على سرير من ذهب وهو متوّج وقد أحدقت به قبائل عاد، وهم في اللهو والطرب؛ فلم يشعروا إلا وهود ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [هُود: الآية ٥٠] وهذه الأصنام التي تعبدونها هي الّتي أغرقتْ قوم نوح، ولستم أكرمَ على ربّكم منهم؛ فاستغفِروا ربّكم من عبادة هذه الأصنام. والأصنام ترتجّ؛ فقال له ملِكهم: ويحك يا هود، أقبِل إليّ. فتقدّم إليه، فلما صار بين يدي الملِك صاح صيحة أجابه الوحش والسباع: أبلِغ ولا تخف. فامتلأت قلوبُ الناس خوفًا، فقام إليه رجل منهم وقال: يا هود، صِف لنا إلٰهك. فوصف عظمة الله، وأنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: الآية ١١] ـ وكان الذي سأله عمرو بن الحلي ـ فلمّا فرغ من كلامه قال له الملك: يا هود، أتظن أنّ إلٰهك يقدر علينا وهذه كثرة جموعنا وشدّةُ قوّتنا؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فُصّلَت: الآية ١٥].

فأوّل من آمن بهود رجل من قومه يقال له جُنادة بن الأصمّ وأربعون من بني عمّه؛ ثم انصرف إلى منزله.

فلمّا كان من الغد أقبل جُنادة وبنو عمّه حتى وقفوا على جماعة من سادات قومه، فقال: يا قوم لا تمنعكم مرارةُ الحق أن تَقبلوه، ولا حلاوةُ الباطل أن تتركوه؛ وهذا ابن عمّكم هود قد عرفتم صدقَه، وقد أتاكم من عند الله رسولًا وواعظًا فاتقوا الله وأطيعوه. وحذّرهم، فحصبوه[١] وشتَموه، فرجع إلى هود.

فلما كان من الغد خرج هود فوقف عليهم وقال: يا قوم لا تبدّلوا نعمة الله كفرًا. وأخذ يعظهم؛ فكذّبوه وواجهوه بالقبائح؛ فبقيَ على ذلك دهرًا طويلًا يلاطفهم وهم على كفرهم وعتوّهم؛ فأعقَم الله أرحام نسائهم، فلم تحمل امرأة منهم؛ فشكَوا ذلك إلى الملِك، فأمرهم أن يُخرجوا أصنامهم ويقرّبوا القرابين إليها؛ ففعلوا ذلك؛ فأتاهم هود وقال: يا قوم ألا تفزعون إلى الله الّذي خلقكم وأعطاكم هذه النعمة والقوّة، فإنه مجيبكم إذا سألتموه، ويزيدكم مُلكًا إلى مُلككم وقوّة إلى قوّتكم. وهو أن تقولوا معي: «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وإني هود عبده ورسوله» وإن لم تفعلوا ذلك ضربكم الله بالذلّ والنِّقمة، وهبّت عليكم الريح العقيم حتّى تذركم في

= «معجم البلدان ٤/ ٧٠».

(١) حصبوه: رموه بالحصى.

ديارِكم هشيمًا. فلمّا سمعوا ذلك منه ضربوه حتى سال الدم على وجهه وهو يقول: «إلٰهي قد أبلغتُ وأنذرتُ».

وأقبل إلى هود بعد انصرافه رجل من قومه يُعرَف بمرثد بن عاد، وقال: يا هود، إنّي قد جئتك في أمر، فإن أخبرتني به فأنت رسول الله. قال له هود: يا مرثد، كنتَ البارحة نائمًا مع زوجتك فواقعتَها، فقالت لك: أتظنّ أني قد حملتُ؟ فقلتَ لها: إني صائر غدًا إلى هود، فإن أخبرني بهذا الكلام آمنتُ به. فقال مرثد: أشهد أنّك رسول الله حقًا؛ ولكن أخبِرْني هل حملتْ؟ قال: نعم حملت بولدين ذكرين يكونان من أمّتي، سيخرجان من بطنها سليمين مؤمنين؛ وستلد لك عشرة أبطن في كلّ بطن ذكران، ويكونان من أمّتي. فوثب مرثد وقبّل رأس هود وكان من خيار أصحابه، وجعل مَرثد يقول: [من البسيط]

من كان يَصدُق يومًا في مقالتِه ... فإنّ هودًا رسولٌ صادق القِيلِ
نبيُّ صدقٍ أتى بالحقّ من حِكمٍ ... وقد أتانا ببرهانٍ وتنزيلِ
فالحمد لله حمدًا دائمًا أبدًا ... مضاعَفًا[1] شكرُه في كلّ تفصيلِ

ثم انصرف مرثد إلى امرأته وأخبرها، فآمنت؛ وكان مرثد يكتم إيمانه ويجالس قومه، فإذا سمعهم يذكرون هودًا بسوء يقول: مهلًا يا بَني عمّ فإنه كأحدكم وابنُ عمّكم.

قال: ثم اجتمعوا في متنزّه لهم ومَلِكهم ونصبوا أصنامهم؛ فأقبل هود عليهم وقال: يا قوم اعبدوا الله فإن هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ولا تُبصِر ولا تَسمع. فقال الرؤساء من قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: الآيات ٦٦ - ٦٩].

فنادَوه من كلّ ناحية: يا هود ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: الآيتان ٧٠، ٧١].

(١) مضاعفًا بالنصب: حال من الله.

وكان القوم يشتمونه ويضربونه ويدوسونه تحت أرجلهم حتى يظنّوا أنه قد مات، ثم يولّون عنه ضاحكين؛ فيقوم غير مكترث بفعلهم؛ فلما أكثر عليهم ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: الآيات ٥٣ - ٥٧] فآمن به في ذلك اليوم رجل يقال له نُهيل.

قال: ولم يزل هود فيهم يحذرهم وينذرهم العذاب سبعين عامًا؛ فلما رأى أنهم لا يؤمنون دعا الله تعالى أن يبتليهم بالقحط، فإن آمنوا وإلّا يهلكهم بعذاب لم يُهلِك به أحدًا قبلهم ولا بعدهم؛ فاستجاب الله تعالى دعوته، وأمره باعتزالهم بمن معه من المؤمنين، فاعتزلهم فأمسك الله عنهم المطر، وأجدبت الأرض ولم تُنبِت ومات عامّة المواشي؛ فصبروا على ذلك أربعَ سنين حتى يئسوا من أنفسهم، وهمّوا أن يؤمنوا؛ فنهاهم الملِك عن ذلك وصبّرهم[1]؛ فأجمعوا رأيهم أن يبعثوا رجالًا منهم إلى الحرم يستسقون لهم؛ والله الفعّال.

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم

قال وهب: فجمعوا الهدايا، واختاروا سبعين رجلًا من أشرافهم، وجعلوا لكلّ عشرة منهم رئيسًا، من جملتهم مَرثَد المؤمن؛ فسار وهو يدعو عليهم؛ فلما أشرفوا على الحرم إذا بهاتف يقول: [من الخفيف]

قبَّحَ اللهُ قومَ عادٍ وذلّوا إنّ عادًا أشرُّ أهلِ الجحيمِ
سيّروا الوفد كي يسقوا غياثًا فسيُسقَون من شراب الحميم

فدخلوا الحرم والملِك يومئذٍ معاوية بن بكر[2]، وكانوا أخواله، فسألهم عما جاء بهم فأخبروه بخبر هود وبما حلّ بعاد، وأنّهم قد لجأوا إلى الحرم للاستسقاء؛ فأنزلهم معاوية في منزل الضيافة، وأطعمهم وسقاهم شهرًا؛ فشغلهم اللهو عن

---

(١) صبّرهم: أمرهم بالصّبر والتمهُّل.

(٢) هو معاوية بن بكر بن هوازن، من قيس عيلان، من عدنان، جدّ جاهلي مات قتيلًا، فجعل عامر بن الظرب العدواني ديته مئة من الإبل، قال ابن حزم: وهي أوّل دية قضي فيها بذلك «الأعلام ٧/ ٢٦٠».

الاستسقاء؛ فبلغ الملِكَ (الخلجانَ) ذلك، فبعث إلى معاوية يسأله أن يأمرهم بالاستسقاء، فكره مواجهتهم بذلك فيقولون: «قد تبرّم[١] بضيافتنا» فدعا بالجرادتين - وهما قَينتان لمعاوية - فقال لهما: إذا شرب القوم ودبّ فيهم الشراب فغنِّياهم بهذه الأبيات، وهي: [من مجزوء الرمل]

بـأبـي مَـن خَـلَق الـخَـلْـقَ بـنـي سـام وحـام
سـادةٍ سـادوا جـمـيـعَ الـخَـلْقِ في الـخَـلْقِ الـتَّـمـام[٢]
نَـصَـب الـدهـر عـلـيـهـم حَـربَـه دون الأنـام
فـسـقـى الله بـنـي عـاد مـن الـصَّـوْب الـغَـمـام

فأجابهما رجل من الوفد يقال له الجَعْد بنُ القَيْل: [من مجزوء الرمل]

عـلِّلـيـنـا - زانـك الـلّـهُ - بـأكـواب الـمُـدام[٣]
وبـمـاءٍ فـامـزُجـيـهـا تـسـتـريـحـي مـن مَـلام

فلما لم يكترثوا بالصوت الأوّل قالت: [من الوافر]

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فهينِمْ لعلّ الله يَمنحُكم غَماما[٤]
غماماً صَوْبُها هَطِلٌ مغيث يُروِّي السّهل طُرًّا والإكاما
من العطش الشديد فليس نرجو بها الشيخَ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ فقد أمست نساؤهمُ عِياما[٥]
وأنّ الوحش تأتيهم جهارًا ولا تَخشى لعاديِّ سهاما
وأنتم هٰهنا فيما اشتَهيتم نهارَكم وليلَكم التِّماما
فقُبِّح وفدُكم مِن وفد قوم ولا لَقُوا التحيّة والسلاما
أفيقوا أيّها الوفد السُّكارى لقومكُم فقد أضحَوا هِياما
فقد طال المُقام على سرورٍ ألا يا قَيْلُ وَيْك ذَرِ المُداما[٦]

(١) تبرّم: ضاق وضجر.
(٢) في الخلق والخلق جناس تام، فالأولى تعني النّاس، والثانية الشكل والخلقة...
(٣) علّلينا: من علّ يعلّ ويعَلّ: أي شرب بعد الشّرب الأوّل ثانية أو تباعًا.
(٤) هينم: من الهينمة وهي الصوت الخفي في الدّعاء وغيره، وويحك: كلمة بمعنى ويلُك.
(٥) العيام: الشديدات الشهوة إلى اللبن.
(٦) ويك: كلمة مركبة من «دي» وكاف المخاطبة، وهي بمعنى ويلك، يكنّى بها عن التهديد.

قال: فانتبه الناس وقاموا فاغتسلوا ولبسوا ثيابًا جُدُدًا، وكسَوا البيت بالكسوة التي حملوها له؛ فجعل ينفضها؛ فقال مَرْثَد: يا قوم، إنّ ربّ هذا البيت لا يَقبل الهديّة إلّا من مؤمن، فهل لكم أن تؤمنوا بهود؟ فقالوا: يا مَرْثَد: إنّ كلامك يدلّ على إيمانك به، ونحن لا نؤمن به أبدًا.

فأنشأ يقول: [من الوافر]

أرَى عـادًا تَـمـادى فـي ضـلالٍ ... وقد عَدَلوا عن الأمر الرشيدِ[1]

بـمـا كـفـرتْ بـربّـهـم جِـهـارًا ... وحـادوا رغـبـةً عـن دِيـن هـود

فاجتمعوا يستسقون، فقال واحد منهم: [من الرّجز]

يـا ربَّ عـادٍ اسـقـيـنّ عـادًا ... إنّـك حـقًّـا تـرحـم الـعِـبـادا

فـاسـق الـبـسـاتـينَ وذي الـبـلادا ... أجواد غـيـث تَـتبع العِـهـادا[2]

وجعل كلُّ واحد منهم يتكلّم بما حضره من ذلك. ثم تكلّم مَرْثَد بن سعد - وهو المؤمن الّذي يكتم إيمانه - وقال: اللهمّ إنا لم نأتك إلى حرمك إلّا لأرض تسقيها، أو أمّة تحييها.

فأوحى الله إلى مَلك السحاب أن ينشر لهم ثلاثَ غمامات: بيضاءَ وحمراء وسوداء؛ وجعل السوداء مَشُوبة بغضبه، فارتفعت البيضاء، وتبعتْها الحمراء خَلْفَهما السوداء، فارتفعتْ حتى رأى الوفد جميع الغمامات؛ ففرحوا واستبشروا ثم نُودوا: يا قَيْل، اختر لقومك من هذه السحائب. فنظر فقال: أمّا البيضاء فإنها جَهام لا ماء فيها؛ وأمّا الحمراء فإنها إعصار ريح. فاختار السوداء. فنودي: يا قَيْل، اخترتَ رَمادًا أرمدًا، لا يُبقي من قوم عاد أحدًا، إلا تراهم في الديار هُمّدًا.

ذكر إرسال العذاب على قوم هود

قال: وأوحى الله إلى (مالكٍ) خازنِ جهنم أن يقبض على سلاسل السوداء وليكن عليها ألف من الزبانية.

---

(١) تمادى: يريد تتمادى، وتمادى في الضّلال: داوم عليه، وعدلوا: مالوا.

(٢) الأجواد: الأمطار الغزيرة، الواحد جَوْد بفتح الجيم، والعهاد: أوّل مطر السّنة.

قال كعب: إن هذه السلسلة غُمستْ في سبعين واديًا من أودية الزمهرير[١] ولولا ذلك لذابت الجبال من حرّها.

فمدّت الزبانية السلاسل، وجَعلت السحابة ترمي بشرر كالجبال، وخرجت عليهم من واد يقال له: (وادي الغيث) فنظروا إليها فقال بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤]، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: الآيتان ٢٤، ٢٥].

وأخرج القوم أصنامهم ونصبوها على أسرّتها؛ فأمر الله تعالى خازن الريح العقيم أن يفتح بعض أطباقها، فانطلقتْ ناشرةً أجنحتها بعدد قبائل عاد؛ فلمّا عاينوا الملائكة يطوفون حول السحاب تيقّنوا العذاب، فأدخلوا النساء والوِلدان في الحصون وخرجوا ونشروا أعلامهم وأوتروا قِسِيَّهم[٢]، وأفرغوا السهام بين أيديهم، والرياح ساكنة تنتظر أمر ربّها، وهود قائم ينذرهم العذاب، وهم يقولون: ستعلم يا هود من أشدّ منا قوّة وبطشًا. حتى إذا كانت صَبيحة الأربعاء، خرجت الريح عليهم في يوم نحس مستمرّ، فكانت في اليوم الأوّل شهباء[٣]، فلم تترك على وجه الأرض شيئًا إلّا نسفتْه نسفًا؛ وفي اليوم الثاني صفراء، فاقتلعت الأشجار؛ وفي اليوم الثالث حمراء، فدمّرت كلّ شيء مرّت عليه؛ فلم يزل يجري في كلّ يوم لون والنساء ينظرن إلى فعلها بقومهنّ، فجعلن يقلن شعرًا: [من الهزج]

ألا قــد ذهــب الــدّهـــ ـــر بعـمـرو ذي العـليّـاتِ
وبـالـحـارث والـقـمـقـا م طَـلّاعِ الـثّـنِـيّـات[٤]
ومـن سَـدّ مـهـبّ الـريـ ـح فـي وقـت الـبَـلـيّـات

واستمرت الريح ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقّة: الآية ٧]، أي دائمة؛ فلما كان في اليوم الثامن اصطفّت القوم صفوفًا، كلُّ واحد إلى جنب أخيه، وهم عشرة صفوف؛ فجعل ملكهم الخلجان يشجّعهم ويقول: [من الرّجز]

مـا بـال عـادِ الـيـومَ خـائـفـيـنـا؟ أَمِنْ مَهَبّ الـريـح يـجـزعـونـا؟[٥]
لـقـد خـشـيـت أن يـكـونـوا دونـا إنّ الـبـنـيـن تُـعـقِـب الـبـنـيـنـا

---

(١) الزّمهرير: شدّة البرد. (٢) أوتر القوس: شدّ وترها واستعدّ للرّمي.
(٣) الشهباء: التي في لونها الشهبة وهو البياض الذي يخالطه السّواد.
(٤) الثنيّات: مفردها «الثنيّة»: وهي الطريق في الجبل، أو العقبة المسلوكة.
(٥) الذي في الأصول:

«يـا آل عـادٍ أيـكـم جـنـونـا»

=

هذا والرِّيح تمزّقهم، فكانت تدخل في ثوب الرجل فتحمله في الهواء، ثم ترميه على رأسه ميتًا. قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: الآية ٢٠].

فلم يَبق منهم إلا الملِك أخّره الله تعالى ليرى مَصارعَ قومه، وهو يردّ الريح بصدره، فجاءت الريح فدخلت من فيه وخرجت من دبره، فمات؛ ثم مرّت الريح نحو الوفد، فحملتهم من الأرض إلى الهواء، فألقتهم على وجوههم؛ فماتوا عن آخرهم.

قال: وهودٌ في حظيرة بمن معه من المؤمنين لا يصيبهم منها إلا ما تلين له الجلود. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هُود: الآية ٥٨].

قال: وارتحل هود ومن معه من أرض عاد إلى الشِّحر[١] من بلاد اليمن؛ فنزلوا هناك حولين، ثم مات.

ويقال: إنه دفن بأرض (حضرموت)؛ والله أعلم.

ذكر خبر مرثد ولقمان

قال: وخرج من وفد عاد مرثد، ولقمان بن عاد، فدخلا مكة منفردَين، فدعوا الله تعالى لأنفسهما؛ فقيل لهما: قد أُعطيتما مُناكما، فاختارا لأنفسكما، إلا أنه لا سبيل إلى الخلود. فقال مرثد: اللهم أعطني برًّا وصدقًا. فأُعطِيَ ذلك. وقال لقمان: «يا ربّ عُمرا». فقيل له: اختر لنفسك بقاء سبعِ بقرات صفر عُفْر[٢] في جبل وَعْر، لا يمسّهن ذُعْر؛ وإن شئتَ بقاء سبعِ نويات من تمر، مستودعات في صخر، لا يمسّهن ندًى ولا قَطْر؛ وإن شئتَ بقاء سبعة أنسُر كلّما هلك نَسْر أُعقِب من بعده نسر. فاختار الأنسر، فكان يأخذ الفرخَ منها حين يخرج من بيضته، فإذا مات أخذ غيرَه، فكان كلّ نسر يعيش ثمانين سنة، حتى انتهى إلى السابع، فكان آخرَها لُبَد؛ فلما مات لبد مات معه لقمان[٣]، وهو لقمان النسور.

= وقوله: «أيكم جنونا» غير مستقيم الإعراب كما هو ظاهر، والتّصويب عن قصص الأنبياء للكسائي...

(١) الشّحر: الشطّ، والشّحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعُمان، وإليه يُنسب العنبر الشّحري لأنّه يوجد في سواحله «معجم البلدان ٣/ ٣٢٧».

(٢) العفر: اللاتي خالط بياضها حمرة.

(٣) هو لقمان بن عاد بن ملطاط، من بني وائل من حمير، معمّر جاهلي قديم، من ملوك حمير في=

ولنصل هذا الباب بخبر ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: الآية ٧]، وقصة شديدٍ وشدّاد.

ذكر خبر ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾
وقصّة شديد وشدّاد بنيْ عاد

قد ذكرنا خبر ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ فيما تقدّم من كتابنا هذا على سبيل الاختصار وذلك في (الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأوّل في المباني القديمة) وهو في السفر الأوّل من هذه النسخة؛ ورأينا إيرادَه في هذا الباب بما هو أبسط من ذلك لتعلّقه به.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيات ٦ - ٨].

روى أبو إسحٰق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبيّ في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) عن منصور عن سفيان عن أبي وائل أنّ رجلًا يقال له: (عبد الله بن قِلابة) خرج في طلب إبل له قد شردت[1]، فبينما هو في بعض صحارى عَدَنَ في تلك الفلوات، إذ وقف على مدينة عليها حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال؛ فلمّا دنا منها ظنّ أن فيها من يسأله عن إبله فلم ير داخلًا فيها ولا خارجًا منها، فنزل عن ناقته وعقلها[2]، وسلّ سيفه، ودخل من باب الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين لم يُرَ في الدنيا أعظمُ منهما ولا أطيبُ رائحة وإذا خشبُهما من أطيبِ عُود، وعليهما نجوم من ياقوت أصفرَ وياقوت أحمر ضوءُها قد ملأ المكان؛ فلما رأى ذلك عجب، ففتح أحد البابين، فإذا هو بمدينة لم ير الراوون مِثلَها قطّ، وإذا هو بقصور تتعلّق، تحتها أعمدةٌ من زبرجد[3] وياقوت[4] وفوق كلّ قصر منها غُرَف مبنيّة بالذهب والفضّة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعلى كلّ باب من أبواب تلك القصور مِصراع[5] كمصراع باب المدينة

= اليمن، يلقّب بالرّائش الأكبر، وهو غير لقمان الحكيم الذي ذكره القرآن الكريم «الأعلام ٥/ ٢٤٣».

(١) شردت: نفرت. (٢) عقلها: ربطها بالعقال، وهو الزّمام.

(٣) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرد، متعدّد الألوان، أشهره الأخضر والأصفر وجمعه «زبارج».

(٤) الياقوت: حجر كريم صلب شفّاف ذو ألوان مختلفة ما بين أحمر وأصفر وأخضر وأزرق.

(٥) المصراع: من الباب أحدُ غلقيه أو جزئيه.

من عُودٍ طيِّب، قد نُضِدتْ عليه اليواقيت؛ وقد فُرشتْ تلك القصور باللؤلؤ وبنادق[1] المسك والزعفران[2] ولم يَرَ هنالك أحدًا، فأفزعه ذلك، ثم نظر إلى الأزقّة فإذا في كلّ زُقاق منها أشجار قد أثمرت، تحتها أنهارٌ تجري؛ فقال: هذه الجنّة التي وصفها الله تعالى لعباده في الدنيا الحمد لله الذي أدخلني الجنة. فحمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها ولا ياقوتها لأنّها كانت مشتبكةً في أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورةً بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف؛ فأخذ منها ما أراد، وخرج؛ ثم سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليَمَن، فأظهر ما كان معه، وأعلم الناس بخبره، وباع ذلك اللؤلؤ، وكان قد اصفرّ وتغيّر من طول الزمان الذي مرّ عليه، ففشا خبره وبلغ معاوية، فأرسل رسولًا إلى صاحب (صنعاء)، وكتب بإشخاصه[3]، فسار حتى قدم على معاوية، فخلا به وسأله عمّا عاين؛ فقصّ عليه أمر المدينة وما رأى فيها؛ فاستعظم ذلك، وأنكر ما حُدِّث به، وقال: ما أظنّ ما يقول حقًّا. ثم قال: يا أمير المؤمنين، معي من متاعها الّذي هو مفروش في قصورها وغرفها وبيوتها. قال له: ما هو؟ قال: اللؤلؤ والبنادق. فشمّ البنادق فلم يجد لها ريحًا؛ فأمر ببندقة منها فدُقّت، فسطع ريحها مسكًا وزعفرانًا؛ فصدّقه عند ذلك؛ ثم قال معاوية: كيف أصنع حتى أسمع باسم هذه المدينة ولمن هي ومن بناها؟ والله ما أُعطيَ أحد مِثلَما أُعطي سليمان بنُ داود وما أظنّ أنه كان له مِثلُ هذه المدينة. فقال بعض جلسائه: ما تجد خبر هذه المدينة إلّا عند (كعب الأحبار)[4] فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يبعث إليه ويأمر بإشخاصه ويغيب عنه هذه الرجلَ في موضع ويسمعَ كلامَه منه وحديثه ووَصْفَ المدينةِ حتّى يتبيّن أمر هذه المدينة فَعَل، فإنّ كعبًا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمرِ هذا الرجل إن كان دخلها، لأن مثل هذه المدينة على هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولَها، إلّا أن يكون سبق في الكتاب دخولُه إيّاها فيعرف ذلك.

---

(١) البنادق: مفردها «البندقة» وهي شجرة لها ثمر يؤكل، وبنادق المسك: أي المسك الذي حبّه كحبّ البندق في الحجم.

(٢) الزّعفران: نبات له أصل كالبصل، زهره أحمر إلى الصفرة، طيّب الرائحة.

(٣) إشخاصه: إحضاره.

(٤) كعب الأحبار: هو كعب بن مائع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحٰق، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر، قدم المدينة وأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة مات بحمص سنة ٣٢ هـ «الأعلام ٥/ ٢٢٨».

فأرسل معاويةُ إلى (كعب الأحبار) وأحضره ثم قال له: يا أبا إسحٰق إنّي دعوتك لأمر رجوتُ أن يكون علمُه عندك. فقال له: يا أمير المؤمنين «على الخبير سقطتَ» فسلني عما بدا لك. فقال له: أخبِرنا يا أبا إسحٰق، هل بلغك أن في الدنيا مدينةً مبنيّةً بالذهب والفضّة، عَمَدها زبرجد وياقوت، وحصا قصورها وغرفِها اللؤلؤ، وأنهارُها في الأزقّة تحت الأشجار؟ قال: والّذي نفس كعب بيده لقد ظننتُ أن سأتوسّدُ يميني[١] قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هي، ومن بناها.

أمّا المدينةُ فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وُصفتْ له.

وأمّا صاحبها الّذي بناها فشدّاد بن عاد.

وأمّا المدينة فهي إرَم ذات العماد التي لم يُخلَق مِثلُها في البلاد.

فقال له معاوية: يا أبا إسحٰق، حدِّثنا بحديثها ـ يرحمك الله ـ فقال كعب: نعم يا أمير المؤمنين، إن عادًا كان له ابنان يسمَّى أحدهما «شديدًا» والآخر «شدّادًا»؛ فهلك عاد، فبقيَا ومَلَكا وتجرّآ، فقهَرَا أهل البلاد، وأخذاها عَنوة وقَسرًا، حتى دان[٢] لهما جميع الناس، فلم يبق أحد من الناس في زمانهما إلا دخل في طاعتهما، لا في شرق الأرض ولا في غربها؛ وإنهما لمّا صفا لهما ذلك وقرّ قرارهما مات شديد بن عاد، وبقي شدّاد، فملك وحده، ولم ينازعه أحد ودانت له الدنيا كلُّها، فكان مولَعًا بقراءة الكتب القديمة، وكان كلّما مرّ فيها بذكر الجنة دعته نفسُه لتعجيل تلك الصفة لنفسه الدنيّة عتوًّا على الله وكفرًا؛ فلما وَقَر[٣] ذلك في نفسه أمر بصنعة تلك المدينة الّتي هي إرم ذات العماد، وأمّر على صنعتها مائةَ قَهْرَمان، مع كلّ واحد ألف من الأعوان. ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة من الأرض وأوسعها، واعملوا فيها مدينة من ذهب وفضّة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ، تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد، وعلى المدينة قصور، من فوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت القصور غروسًا فيها أصناف الثمار كلّها، وأجروا فيها الأنهار حتى تكون تحت تلك الأشجار جارية، فإنّي أسمع في الكتب صفةَ الجنة، وإني أحبّ أن أتخذ مِثلَها في الدنيا، أتعجّل سكناها. فقال له قَهارمتُه[٤]: كيف لنا بالقدرة على ما وصفتَ لنا من

---

(١) أتوسّد يميني: كنّي بذلك عن دفنه بعد الموت، يريد: أنه يموت دون أن يسأله أحد عن ذلك.
(٢) دان: خضع وذلّ. (٣) وقر: أي سكن وثبُت.
(٤) القهارمة: مفردها «القهرمان: وهو المسيطر الحفيظ على ما تحت يديه، أو الوكيل أو أمين=

الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة نبني منها مدينة كما وصفتَ لنا؟ فقال لهم شدّاد: ألستم تعلمون أن مُلك الدنيا كلّها بيدي؟ فقالوا: بلى. قال: انطلقوا إلى كلّ موضع فيه معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وكلّفوا من كلّ قوم رجلًا يُخرج لكم ما في كلّ معدن من تلك الأرض؛ ثم انظروا إلى ما في أيدي الناس من ذلك فخذوه، سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن، فإنّ معادن الدنيا فيها كثير من ذلك، وما فيها ممّا لا تعلمون أكثرُ وأعظمُ ممّا كلّفتُكم من صنعة هذه المدينة.

قال: فخرجوا من عنده، وكتب معهم إلى كلّ ملِك من ملوك الدنيا يأمره أن يجمع لهم ما في بلده من الجواهر، ويحفرَ معادنها؛ فانطلق القهارمة، وبعث الكتب إلى الملوك بأخذ كلّ ما يجدونه في أيدي الناس عشرَ سنين من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة، ويبعثون بذلك إلى فعلة إرم ذات العماد. وخرج الفَعَلة يطلبون موضعًا كما وصفه لهم شدّاد.

فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، كم كان عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شدّاد؟ قال: كانوا مائتين وستّين ملِكًا.

قال: فخرج عند ذلك الفعلة والقَهارمة، فتفرّقوا في الصحارى ليجدوا ما يوافق غرضه؛ فوقعوا في صحراء عظيمة نقيّة من الجبال والتلال. وإذا هم بعيون مطّردة[1]؛ فقالوا: هذه صفة الأرض التي أُمرنا بها؛ فأخذوا منها بقدر ما أمرهم به من العرض والطول، ثم عمَدوا إلى مواضع الأزقّة فأجرَوا فيها قَنَوات الأنهار؛ ثم وضعوا الأساس من صخور الجَزْع[2] اليمانيّ، وعجنوا طين ذلك الأساس من دُهن البان[3] والمحلب[4]؛ فلمّا فرغوا من وضع الأساس بُعث بالعَمَد والذهب والفضّة من جهة الملوك؛ فتسلّمها الوزراء والقَهارمة، وأقاموا حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شدّاد.

فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، إني لأحسبهم أقاموا في بنائها زمنًا من الدهر. قال: نعم يا أمير المؤمنين. إني لأجد في التوراة مكتوبًا أنهم أقاموا في بنائها ثلاثمائة

= الدّخل والخرج...».

(١) العيون المطّردة: أي المتتابعة، والعيون: منابع الماء.

(٢) الجزع: نوعٌ من الخرز فيه خطوط بيض وسود.

(٣) البان: شجرتين، ورقه طويل أبيض الزّهر طيّب الرائحة.

(٤) المحلب: شجرٌ له حبٌّ يجعل في الطّيب.

سنة. فقال معاوية: كم كان عمر شدّاد؟ فقال: سبعَمائة سنة. فقال معاوية: لقد أخبرتَنا عجبًا، فحدّثنا. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّما سمّاها الله تعالى إرم ذات العماد الّتي لم يُخلق مِثلُها في البلاد، للعَمَد التي تحتها من الزبرجد والياقوت وليس في الدنيا مدينةٌ من الزبرجد والياقوت غيرها، فلذلك قال الله تعالى: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفَجر: الآية ٨].

وقال كعب: إنّهم لما أتَوه فأخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا واجعلوا عليها حصنًا، واجعلوا حول الحصن ألفَ قصر، عند كلّ قصر ألفَ عَلَم، ويكون في كلّ قصر وزير من وزرائي، ويكون كلّ عَلَم عليه ناطور. فرجعوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصن؛ ثم أتوه فأخبروه بالفراغ ممّا أمرهم به.

قال: فأمر شدّاد ألفَ وزير من خاصّته أن يهيّئوا أسبابهم[١]، ويعوّلوا[٢] على النقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر رجالًا أن يسكنوا تلك الأعلام ويقيموا فيها ليلهم ونهارهم، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجَهاز إلى إرم ذات العماد؛ فأقاموا في جَهازهم عشر سنين؛ ثم سار الملك شدّاد بن عاد بمن أراد، وتخلّف من قومه في عَدَنَ مَن أمَرَه بالمُقام بها.

قال: فلمّا استقلّ وسار إليها ليسكن فيها، وبلغ منها موضعًا بقي بينه وبين دخوله إليها مسيرةُ يوم وليلة، بعث الله تعالى عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء، فأهلكتْهم جميعًا، ولم يبق منهم أحد، ولم يدخل شدّاد ولا مَن كان معه إرم ذات العماد، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة.

فهذه صفة إرم ذات العماد، وأنّه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ويَرى ما فيها، فيحدّث بما عاين[٣]، ولا يُسمَع منه ولا يصدّق. فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، فهل تصفه لنا؟ قال: نعم، هو رجل أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عَقِبه[٤] خال، يخرج في طلب إبل له ندّت[٥] في تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد، فيدخلها ويحمل ممّا فيها. والرجل جالس عند معاوية. فالتفت كعب فرأى الرجل، فقال: هو هذا يا أمير المؤمنين قد دخلها، فاسأله عما حدّثْتك به. فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، إنّ هذا من خَدمي، ولم يفارقني. قال كعب: قد دخلها وإلّا

(١) أسبابهم: مفردها «السَّبب» وهو كلّ شيء يتوصل به إلى غيره.
(٢) يعوّلوا: يستعينوا.
(٣) عاين: شاهد وأبصر.
(٤) العقب: عظم مؤخّر القدم.
(٥) ندّت: تاهت وشردت.

سوف يدخلها، وسيدخلها أهلُ هذا الدين في آخر الزمان. قال معاوية: يا أبا إسحٰق، لقد فضّلك الله على غيرك من العلماء ولقد أُعطيتَ من علم الأوّلين والآخرين ما لم يُعطَه أحد. فقال: والّذي نفس كعبٍ بيده، ما خلق الله تعالى في الأرض شيئًا إلّا وقد فسّره في التوراة لعبده موسى تفسيرًا، وإن هذا القرآن أشدّ وعيدًا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النّساء: الآية ٧٩] والله الهادي للصواب.

قال أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله تعالى وقال الشعبيّ[(١)]: أخبرنا دَغْفَلٌ الشيبانيُّ[(٢)] عن رجل من أهل (حضرموت) يقال له: بِسْطام، أنه وقع على حَفيرة شدّاد بن عاد في جبل من جبال حضرموت مطلٌ على البحر.

قال: وكنت أسمع من صباي إلى أن اكتهلتُ بمغارة في جبل من جبالنا بحضرموت وهيبةِ الناس لدخولها، فلم أحتفل بما كنت أسمع من ذلك؛ فبينما أنا في نادي قومي إذ تناشدوا حديثَ تلك المغارة وأطنبوا[(٣)] في ذكرها ووصفوا موضعها؛ فقلت لقومي: إني غير منته حتى أدخلها، فهل فيكم من يساعدني؟ فقال فتى منهم حديث السنّ: أنا أصاحبك. فقلت: يا ابن أخي، أو تجسر على ذلك؟ قال: عندي ما عند أشدِّ رجل من رَباطة الجأش وشدّة القلب. فهيّأنا شمعة وحملنا معنا إداوةً[(٤)] عظيمة مملوءة ماء وطعامًا مقدارَ ما قدرنا على حمله؛ ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذي فيه المغارة ـ وكان مشرفًا على المكان الذي يركب أهلُ حضرموتَ منه البحر ـ فلما انتهينا إلى باب المغارة حزمنا علينا ثيابنا؛ وأشعلنا الشمعة؛ ثم ذكرنا الله تعالى، ودخلنا ومعنا تلك الإداوةُ وذلك الطعام، فإذا بمغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعًا، وطولُها علوًا نحو خمسين ذراعًا؛ فمشينا فيها هونًا[(٥)] في طريق أملس مستوٍ، ثم أفضينا إلى درجات عالية عرضُ الدرجة عشرون ذراعًا في سَمْك عشر أذرع، فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرجات فقلت لصاحبي: هلمّ، إليّ يديك، فكنت آخذ بيده حتى ينزل، فإذا نزل وقام في الدرجة تعلّقتُ بطرف

(١) الشّعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يُضرب المثل في حفظه، كان نديم عبد الملك بن مروان وسفيره إلى قيصر الرّوم مات سنة ١٠٣ هـ «الأعلام ٣/ ٢٥١».

(٢) هو دغفل بن حنظلة الشيباني، نسّابة العرب، يضرب به المثل في معرفة الأنساب لم يدرك الناس مثله لسانًا وعلمًا وحفظًا، مات سنة ٦٥ هـ بفارس في وقعة مع الأزارقة «الأعلام ٢/ ٣٤٠».

(٣) أطنبوا: بالغوا وأكثروا.

(٤) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

(٥) مشى هونًا: أي بتؤدة ورفق وتمهُّل.

الدرجة وتسيّبتُ[١] حتى تنال رجلاي منكبيه؛ فلم نزل كذلك وذلك دأبُنا عامّة يومنا، حتى نزلنا ذلك الدَّرَج وكانت مقدار مائة درجة؛ فأفضينا إلى أزَج[٢] عظيم محفورٍ في الجبل، في طول مائة دراع، في عرض أربعين ذراعًا، وسَمْكُه في السماء نحو مائة ذراع، وفي صدره سرير من ذهب مفصَّصٌ بأصناف الجواهر، وفوقه رجل عظيم الجسم، قد أخذ طولَ هذا الأزَج وعرضَه وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم، وعليه سبعون حلّة بمقدار طوله وعرضه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة، وإذا في ذلك الأزج نَقْب عرضه ذراعان، وارتفاعه ثلاث أذرع، خارج إلى فضاء لم ندر ما هو، وإذا على رأس السرير لوح من ذهب، فيه كتاب بالمُسنَد[٣] ـ وهو كتاب عادٍ كانت تكتبه في زمانها ـ محفور ذلك الكتاب في اللوح حفرًا؛ فقلعناه ودنونا من الرجل فمسسنا تلك الحلل فصارت رميمًا، وبقيت قضبان الذهب قائمة، فجمعناها وكانت مقدار مائة رطل، فحملناها في أُزُرنا، وأردنا قلع شيء من تلك الجواهر المفصَّصِ بها السرير، فلم نقدر عليه لوثاقته[٤]، فتركناه؛ وهجم علينا الليل، ونحن في ذلك الأزَج وعزفْنا ذلك بذهاب ذلك الضوء الذي كان يدخل من ذلك النَّقب، فبتنا ليلتنا في ذلك الأزَج، وطَفئت الشمعة التي كانت معنا؛ فلما أصبحنا قلت لصاحبي: ما ترى؟ قال: أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه، لارتفاع الدَّرَج، وأنا لا نستطيع صعودها، لا سيّما والشمعة قد طَفئت، ولكن هلمّ لنلزم هذا الضوء الذي نراه في هذا النقب، فإني أرجو أن يخرج بنا إلى الفضاء إن شاء الله تعالى. فقلت له: لعمري إنّ هذا لهو الرأي.

قال: فانطلقنا بما معنا من تلك القضبان من الذهب، وحملناها مع ذلك اللوح الذهب الذي كان عند رأس السرير، ومشينا في ذلك النَّقب نتبع ذلك الضوء، فلم نزل نمشي فيه في طريق ضيق مدارَ مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى كهف في ذلك الجبل كهيئة الحائط، وقد حَفّ بذلك الكهف البحر؛ فجلسنا على باب ذلك النَّقْب ثلاثة أيّام نتموّن بقيّةَ ما كان معنا من الماء والطعام؛ فلمّا كان في اليوم الرابع نظرنا إلى مركَب قد أقبل في البحر فلوّحنا إلى مَن فيه، فأرسلوا إلينا القارِب، فنزلنا من باب ذلك النقب[٥] نزولًا شاقًّا حتى وثبنا إلى القارب بما

---

(١) تسيّبت: أي أنزل قدميه وهو متمسّك بشيء حتى يضعها على كتفي ذلك الرّجل.

(٢) الأزج: البيت الذي يبنى طولًا.

(٣) بالمسند: أي بالخطّ المسند، فالمسند: نوعٌ من الخطوط.

(٤) لوثاقته: لشدّة تمكنه في مواضعه.

(٥) النّقب: الطريق الضيّق في الجبل.

معنا، ثم خرجنا من البحر فقسمنا ذلك الذهب بيننا، وصار ذلك اللّوح إليّ بِقِسْطي[١].

قال: ثم إنّ أنفسنا دعتنا إلى العودة إلى ذلك السَّرَب ممّا يلي النَّقْبَ من جهة البحر، فركبنا قارِبًا وسرنا في البحر نحو المكان الذي كنّا فيه، فنزلنا منه، فخفي علينا فعلمنا أنّا لم نُرزَق من ذلك المكان إلّا ما أخذناه، فرجعنا.

قال: ومكث ذلك اللوح عندي حولًا وأنا لا أجد من يقرؤه، حتى أتانا رجل حِمْيَرِيّ من أهل صنعاء كان يُحسن قراءة تلك الكتابة، فأخرجتُ إليه اللوح فقرأه، فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات: [من مجزوء الرّمل]

اعتبرْ بي أيّها المغـ ـرورُ بالعمر المديدِ
أنا شدّاد بنُ عادٍ صاحبُ الحصن العتيدِ
وأخو القوّة والبأ ساء والمُلك الشديدِ
وبفضل المُلك والعُدّ ة فيه والعديدِ
دان أهلُ الأرض طرًّا ليَ من خوف وعيدي[٢]
وملكتُ الشرق والغر ب بسلطانٍ شديدِ
فأتى هودٌ وكنّا في ضلالٍ قبلَ هودِ
فدعانا ـ لو قبِلنا ه ـ إلى الأمر الرشيدِ
فعصيناه وناديـ ـنا ألا هل من محيدِ[٣]
فأتتنا صيحةٌ تهـ ـوي من الأُفْق البعيدِ
فَتَوافَيْنَا كزرعٍ وَسط بيداءَ حصيدِ

وقد ساق أبو إسحٰق الثعلبيُّ أيضًا هذه الأبيات بهذا السند دون القصّة في تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) وفيها في البيت الرابع بدل قوله:

وإن أهل الأرض طرًّا ليَ من خوف وعيدي
دانَ أهلُ الأرض لي من خوفِ وعدي ووعيدي

(١) بقسطي: أي بحقي من القسمة.
(٢) طرًّا: أي جميعًا.
(٣) المحيد: المفرّ.

قال أبو إسحٰق رحمه الله قال دَغْفَلٌ الشيْباني : سألت علماء حِميَر عن شداد بن عاد(١)، فقلت : إنه أصيب وكان قد دنا من إرم ذات العماد، فكيف وُجِد شِلْوة في تلك المغارة وهي بحضرموت؟ فقالوا : إنّه لمّا هلك هو ومن معه بالصيحة، ملك بعده مَرْثَد بن شدّاد، وقد كان أبوه خلّفه على مُلكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت، فحُمِل مطليًّا بالصبر والكافور، فأمر أن تُحفَر له تلك المغارة، واستودعه فيها على ذلك السرير الذهب؛ والله تعالى أعلم.

هذا ما أورده رحمه الله من خبر إرم ذات العماد وخبرِ شديدٍ وشدّاد بنَيْ عاد.

وقد ذُكر في هذه الأبيات هود النبيّ عليه السلام في قوله :

فــأتــى هــودٌ وكــنّــا   فــي ضــلالٍ قــبــلَ هــودِ

الأبيات الخمسة.

وقد تقدّم في خبر هود وهلاكِ عاد بالريح العقيم، أن ملِكهم القائمَ بأمرهم في زمن هود كان اسمه الخَلَجان بن الوهم بن عاد، وأنه هلك بالريح العقيم إثْر هَلاكِ قومه، ولم يَرِد أنّه آمن بالله تعالى؛ وهذه الأبيات تدلّ على ندم قائلها؛ ومقتضى هذا السياق فيه دَلالة على أن شدّاد بن عاد هذا المذكورَ آنفًا، وابنَه مرثد بن شدّاد وخبرَ إرم ذات العماد، كان قبل مبعث هود عليه السلام والله تعالى أعلم.

ولنرجع إلى قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الباب السادس

من القسم الأوّل من الفنّ الخامس في قصة صالح ـ عليه السلام ـ مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم

قال الكسائيّ : قال كعب : لما أهلك الله عزّ وجلّ عادًا، جاءت ثمود وعَمَرت الأرض، وكانوا بضع عشرة قبيلة، في كلّ قبيلة زيادةٌ عن سبعين ألفًا سوى النساء

(١) هو شدّاد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حمير، من قحطان، ملك يماني جاهلي قديم، من ملوك الدولة الحميرية، وكان حازمًا مغوارًا، غزا البلاد فبلغ أرمينية، وعاد إلى الشام فزحف إلى المغرب يبني المدن ويتخذ المصانع، وبنى قصره في مأرب إلى جانب السّد «الأعلام ٣/ ١٥٨».

والذرّية، وكثروا حتى صاروا في عدد عادٍ وأكثر، وكانوا ذوي بطش وقوّة وتجبّر وكفر وفساد، وكانت منازلهم ما بين الحِجاز إلى الشأم، وهي ديار الحجْر[١] من وادي القُرى[٢]، وكان ملِكهم جُنْدَع بن عمرو بن عاد بن ثمود بن إرم بن سام بن نوح.

وقيل في نسبه: إنّه جُنْدَع بن عمرّد بن عمرو بن الدُّمَيْل بن عاد بن ثمود بن عائذ بن إرم بن سام، وكانت طائفة ممّن آمنت بهودٍ يذكرون له كيف أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم[٣]، وكيف كانت سيرة هود فيهم؟ فيقول: إنّما هلكتْ عاد لأنها لم تكن تشيّد بنيانها: ولا تنصح آلهتها، وكان بنيانهم على الأحقاف التي هي الرمال، ونحن أشدّ قوّة وبناء وبلادًا، ونحن نتخذ الجبال بيوتًا فننحتها في الصخر لئلّا يكون للرّيح عليها سبيل، ونحن نعبد آلهتنا حقّ العبادة.

قال كعب: كانت قوّة الرجل منهم أن ينحت في الجبل بيتًا طوله مائة ذراع في عرض مِثلِ ذلك، ويضربَه بصفائح الحديد، ويُغَلِّق بابًا من حديد مصمَت[٤] لا يفتحه إلّا القويُّ منهم، وكانت منازلهم أوّلًا بأرض كوش في بلاد عالج[٥]، فانتقلوا إلى هذه البلاد لكثرة جبالها.

قال: ثم اجتمع كبراؤهم إلى ملكهم جُنْدَع، وقالوا: نريد أن نتّخذ لأنفسنا إلـٰهًا نعبده، لم يكن مِثله لقوم عاد ولا قوم نوح. فأذن في ذلك، فنحتوا صنمًا من جبل يقال له: (الكثيب) وجعلوا وجهه كوجه الإنسان، وعنقَه وصدره كالبقر ويديه ورجليه كالخيل، وضربوه بصفائح الذهب والفضّة، وعقدوا على رأسه تاجًا، ورصّعوه بالدرّ والجوهر؛ فلمّا كمل خرّوا له سجّدًا، وقرّبوا القربان، وأقبلوا إلى الملِك فقالوا له: اخرج إلى هذا الإلـٰه الّذي أتعبنا أنفسَنا في اتّخاذه. فخرج الملِك إليه في زينته وأصحابه؛ فلما رأوه خرّوا له سجّدًا؛ ثم أمر الملِك أن يُتّخذ له بيت، وأن يسقَّف

(١) الحجر: قرية قليلة السكان صغيرة، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال وبها كانت منازل ثمود «معجم البلدان ٢/ ٢٢١».

(٢) وادي القرى: هو وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، كثير القرى والنسبة إليه واديّ «معجم البلدان ٥/ ٣٤٥».

(٣) الرّيح العقيم: الرّيح الشّديدة الحرّ التي لا تترك شيئًا إلّا وتهلكه.

(٤) المصمت: المغلق المبهم، وجدارٌ مصمت: لا فرجة فيه.

(٥) عالج: رمال بين فَيد والقُريات ينزلها بنو بحتُر من طيىء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، لا ماء بها ولا يقدر أحدٌ عليهم فيه، وذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوبار «انظر معجم البلدان ٤/ ٧٠».

بصفائح الذهب والفضّة، ويرصّع بالجوهر، وتُفْرش أرضه بالدِّيباج؛ وأمر أن تُتّخذ لسائر الأصنام بيوت، وأن يتخذ سرير من العاج والآبنُوس[١] على عرض البيت، قوائمه من الفضّة، وأن تعلّق قناديل الفضّة بسلاسل الذهب وأمر أن يُجعل للبيت مصراعان في كلّ مصراع مائة حَلْقة من الذهب والفضّة ويعلّق عليهما سِتْران، وسمّاهما ستورَ العزّ، ووضع الصنم على ذلك السرير، وسائر الأصنام الصغار على كراسيِّ العاج والآبنُوس؛ وأمر أن يُنْدَب لخدمة الأصنام رجل من أشراف قومه وأحسنِهم وأنسبِهم؛ فقالوا: ليس في ثمود أشرف نسبًا وأجمل وجهًا من كانوه[٢]. فاستدعاه وقرّبه وتوّجه وسوّده[٣]، وجعله على خدمة الأصنام؛ فقبل ذلك، وتفرّغ لخدمتها وعبادتها، وقوم ثمود يعبدون ذلك الصنم، وقد ازدادوا عتوًّا وتجبّرًا وكفرًا وفسادًا، والله تعالى يزيدهم سَعة وخِصبًا، وهم يرون أن ذلك كلّه من بركات أصنامهم.

ذكر ميلاد صالح ـ عليه السلام ـ

قال: فبينما كانوه في بيت الأصنام إذ تحرّكتْ نطفة صالح[٤] في ظهره، وصار لها نور على عينيه، وسمع هاتفًا يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٨١] ألا بعدًا وسحقًا لثمود لكفرهم، وهذا صالح بن كانوه يصلح الله به الفساد. ففزع من ذلك، وذهب ليتقدّم إلى الصنم الأكبر، فنطق بإذن الله وقال: ما لي وما لك يا كانوه، مثلك يخدمني وقد استنارت الأرض بنور وجهك للنور الذي في ظهرك؟! ثم تَنكّس الصنم عن سريره، فأعاده كانوه وأعوانهُ إلى السرير، وبلغ الملِكَ ذلك، فاغتمّ له؛ فقال له أصحابه: إنّ هذا لسوء خدمة كانوه فإنّه لا يوفّي الآلهة حقّها في الخدمة. وهمّوا بقتله، فأخفاه الله تعالى عن عيونهم؛ فلمّا كان الليل هبط عليه ملَك من السماء، فاحتمله وهو نائم، وألقاه في وادٍ على أميال من ديار قومه وهو لا يدري في أي موضع هو، فنظر غارًا في جبل هناك، فدخله ليكنّه[٥] من حرّ الشمس ونام، فضرب الله على أذنه مائة سنة[٦]، وفقدَه قومُه، ونصبوا لخدمة أصنامهم رجلًا منهم يقال له: داود بن عمرو، فبينما هم كذلك وقد خرجوا في يوم عيد لهم إذ

---

(١) الآبنوس: شجر في إفريقيا الاستوائية خشبه أسود صلب ثقيل.
(٢) في الأصول «كانول» والتصويب عن تاريخ العيني.
(٣) سوّده: جعله سيّدًا.
(٤) هو نبي الله صالح الذي أُرسل إلى ثمود.
(٥) ليكنّه ليستره.
(٦) ضرب الله على أذنه مائة سنة: أي أماته أو جعله في نومٍ متّصل كلّ هذه المدّة...

نطقت الأشجار بإذن الله وقالت: يا آل ثمود، ألا تعتبرون، إنّ الله يُخرج لكم في السنة من الثمار مرّتين، ثم تكفرون بنعمة ربّكم وتعبدون سواه. ونطقت المواشي كذلك فعمدوا إلى الأشجار فقطّعوها، وعقروا المواشي؛ فنطقت السباع ونادت من رؤوس الجبال: ويلكم يا آل ثمود، لا تقطعوا هذه الأشجار وتذبحوا هذه المواشي وقد نطقتْ بالحقّ. فخرجوا إلى السباع بالأسلحة وهي تَهْرب من بين أيديهم وتستغيث بالله وتقول: اللهم طهّر أرضك بنبيّك صالح، وارفع به الفساد. والقوم يسمعون ذلك ويقولون: قد كفر هؤلاء بآلهتنا.

قال: وكان لكانوه في ديار قومه امرأة يقال لها: (رعوم) وهي كثيرة البكاء عليه منذ فقدته؛ فبينما هي ذات ليلة وإذا بغراب نَعَق، فقامت لتنظر إليه، فرأته على مثال الغراب، ورأسه أبيض، وظهره أخضر، وبطنه أسود وهو أحمر الرجلين والمنقار، وأخضر الجناحين؛ فقالت: أيها الطائر، ما أحسنك! فقال: أنا الغراب الّذي بُعثتُ إلى قابيلَ فأريتُه كيف يواري[1] سوءة[2] أخيه، وأنا من طيور الجنّة، وإني أراكِ باكية حزينة. فقالت: إني فقدتُ زوجي منذ مائة عام. فقال: اتبعيني فإنّي أرشدك إليه. فتبعته، وطُويتْ لها الطريق حتى وقَفَها على باب الغار، ونادى الطائر: قم يا كانوه، قم بقدرة الله. فقام ودخلت إليه زوجته، فواقعها، فحملت - بإذن الله تعالى - بصالح. وقبض الله كانوه لوقته؛ وعادت رعوم والغراب يدلّها على منزلها؛ فلما انقضت مدّة حَملها، وضعتْ في ليلة الجمعة من شهر المحرم، فوقعتْ هزّة شديدة في بلاد ثمود لمولده، وخرّت الوحوش والسباع ساجدة لله تعالى، وأصبحت الأصنام وقد تنكّست[3]؛ فأقبل داود وأخبر الملكَ بخبرها؛ فجاء بأشراف ورفعوها على مراتبها وأسرّتها، وتقدّم الملك إلى الصنم الأكبر وقال: ما دهاك؟ فناداهم إبليس منه: قد وُلد فيكم غلام يدعوكم إلى دين هود ليس عليكم منه بأس.

فخرج الملك ومَن معه مستبشرين.

ونشأ صالح، حتى إذا بلغ سبع سنين أقبل على قومه وهو يقول: يا آل ثمود، تنكرون حَسَبي ونسبي، أنا فلان بن فلان. فيقولون: إنك من أحسبنا وأنسبنا؟ حتى إذا بلغ عشر سنين إذ أقبل عليهم ملِك من أولاد سام، كان يغزوهم في كلّ سبع سنين مرّة فيَسلُب أموالهم؛ فوثب صالح إلى سيف أبيه وسلاحه وخرج يعدو، وإذا هو

---

(١) يواري: يدفن في التّراب.
(٢) السوءة: هنا الجثّة.
(٣) تنكّست: انقلبت.

بالملك جُنْدَع وسادات قومه قد اجتمعوا، وقد انتزع الملك منهم أموالهم، وهم لا يستطيعون دفعه عنها لكثرة جموعه؛ فصاح بهم صالح صيحة أزعجتهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، واستنقذ منهم جميع ما أخذوه من قومه.

فعجب جندع وأصحابه منه، وأقبلوا يقبّلون صالحًا ويكرمونه؛ فخشي الملِك على مُلكه أن يعزلوه ويولّوا صالح بن كانوه، فهمّ أن يقتله، ودسّ إليه جماعة من خواصّه فدخلوا منزله، فأيبس الله أيديَهم عنه، وأخرس ألسنتهم؛ فعلم الملِك أنّه معصوم، فبعث يسأله فيهم؛ فدعا لهم، فأطلق الله أيديهم وألسنتهم، وبقي صالح مكرّمًا معظّمًا في قومه.

ذكر مبعثه ـ عليه السلام ـ

قال: ولمّا أتى عليه أربعون سنة بعثه الله عزّ وجلّ رسولًا إلى قومه؛ فجاءه جبريل بالوحي عن الله، وأمره أن يدعوهم إلى قول ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصَّافات: الآية ٣٥] والإقرار بأن صالحًا عبده ورسوله، وترك عبادة الأصنام، وأعلمه بما سيظهر على يديه من العجائب.

قال: فأقبل صالح إلى قومه في يوم عيد لهم وقد نصبوا أصنامهم واجتمعوا على يمينها وشمالها، والملِك جُنْدَع مشرف عليهم ينظر إليهم وإلى قربانهم؛ فتقدّم حتى وقف على الملك وقال: قد علمت نصحي لك أبدًا، وقد جئتك رسولًا أدعوك إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأنّي صالح رسول الله. فقال الملك له: إن قبائل ثمود لا ترضى أن يكون مِثلك رسولًا إليهم، غير أنّي أنظر فيما تقول، فعُد إليّ غدًا.

ثم أصبح الملِك ودعا بأشراف قومه، وأخبرهم بخبر صالح؛ فقالوا: أحضِرْه حتى نسمع ما يقول. فأحضره فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هُود: الآية ٦١]، فقال له نفر منهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هُود: الآيتان ٦٢، ٦٣]، فقال له الملِك: كيف خصّك ربّك بالرسالة من بيننا، ورفعك علينا وفي قبائل ثمودَ من هو أعزّ منك؟ فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحَديد: الآية ٢١]، ثم قال: يا قوم اتقوا الله وأطيعون، ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيات ١٤٥ - ١٤٨] أي ليّن، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشُّعَراء: الآية ١٤٩] أي حاذقين، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيات ١٥٠ - ١٥٤].

قال: فأقبل الملك عليهم وقال: قد عرفتم صالحًا في حسبه ونسبه، وأنا رجل منكم؛ فما تقولون؟ وما عندكم من الرأي في أمره؟ قالوا: أيّها الملك ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القَمَر: الآية ٢٥]، قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القَمَر: الآية ٢٦].

قال: فآمن به منهم جماعة، وخرج صالح من عند الملك، فأمره الله تعالى أن يبني مسجدًا لنفسه ولمن معه من المؤمنين، فأعانته الملائكة على بنائه؛ فلمّا كمل جاءه جبريل بشجرة فغرسها على باب المسجد، وأنبع الله له عينًا من الماء العذب.

وكان صالح يخرج في كلّ يوم إلى قبيلة من قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويعظهم بأيّام عاد وما حلّ بهم فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ٧٥]، فكان المستضعفون يقولون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٥]، والمتكبّرون يقولون: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٦].

ولم يزل صالح يدعوهم حتى استكمل سبعين عامًا؛ ثم أعقم الله نساءهم وجفّت أشجارهم فلم تثمر، ولم تضع لهم بقرة ولا شاة.

ثم لم يزل يدعوهم حتى استكمل مائة سنة وهم لا يزدادون إلا كفرًا؛ فلمّا أيس منهم خرج يريد أن يدعو عليهم بالهلاك، وقال لقومه: لا تبرحوا حتى أعود إليكم. وقصد جبلًا فطاف به حتى أمسى، فنظر إلى عين ماء، فتقدّم وتوضأ وقام ليصلّي ويدعو على قومه، فرأى في الجبل كهفًا، فدخله فرأى فيه سريرًا من الذهب، عليه فُرُش الحرير، وفي وسط الكهف قنديل؛ فعجب من ذلك، وصعد على السرير، فضرب الله على أذنه فنام أربعين سنة؛ وأخذ قومه في العبادة؛ فكان يموت منهم الواحد بعد الواحد، فيدفن إلى جانب المسجد، ويكتب على قبره: «هذا فلان ابن فلان».

قال: ثم بعث الله عزّ وجلّ صالحًا من نومته، فخرج من الكهف وتوضّأ وصلّى ركعتين، وأراد أن يدعوَ على قومه؛ فقيل له: لا تعجل عليهم، فإنّ عَجَلتك غيّبتك عن قومك أربعين سنة.

فعاد إلى قومه، وإذا برسوم وآثار لا يعرفها، وأشرف على مسجده وهو خراب ليس فيه إلّا الملائكة يحفظونه من فُسّاق أهل ثمود؛ فقال: إلٰهي ما فعل أهل هذا المسجد؟ فنادته الملائكة: مات بعضهم ورجع الباقون إلى دينهم الأوّل لمّا أيسوا منك.

ثم أمره الله تعالى أن يأتي قومَه ويدعوهم إلى عبادة الله والكفّ عن عبادة الأصنام؛ فأقبل وهم مجتمعون في يوم عيدهم ومعهم مِلكُهم، فناداهم: قولوا (لا إلٰه إلا الله وإني صالح رسول الله) يا قوم إني أرسلت إليكم مرّة وهذه أخرى.

فتحيّروا وتساقطتْ أصنامهم، ونطقت الدوابّ: جاء الحقّ من ربّنا. قال له الملك: مَن أنت؟ قال: أنا صالح. قال: أليس قد بقي صالح فينا طويلًا وغاب عنّا منذ مدّة طويلة؟ ما أنت إلّا ساحر جئتنا بعده. وهمّ بقتله.

وكان للملك ابن عمّ يقال له: هذيل، فقال: يا صالح، لا نحتاج إلى نصحك فانصرف عنّا. فقال: يا هذا أما إنك ميت في يومك هذا أنت وأهلك وولدك في وقت كذا وكذا، وفي غد يموت أبوك وأمّك، فبادِرْ إلى الإيمان، فإن آمنتَ أحياكَ الله وجعلك حجّة على قبائل ثمود.

فانصرف الرجل وهم ينظرون إلى الوقت الذي ذكره صالح؛ فلما جاء الوقت مات الرجل وأهله وولده، وانتشر الخبر في قبائل ثمود، ومات أبوه وأمّه من الغد؛ فعجب الناس وجزعوا، وخاف الملك.

وأقبل صالح فقال: يا آل ثمود، كيف كان هذا الميّت عندكم؟ قالوا: خير رجل حتى مات. قال: فإن أحياه الله بدعائي، أتؤمنون بي وبإلٰهي وتبرأون من أصنامكم؟ قالوا: نعم. فجاء صالح إلى الميت فدعا ربّه، ثم ناداه باسمه فقال: لبّيك يا نبيّ الله، وقام وهو يقول: (لا إلٰه إلا الله صالح عبد الله ورسوله).

فلما عاين قومه ذلك ازدادوا كفرًا، ودخلوا على صنمهم وشكوا ما يلقونه من صالح؛ فنطق إبليس من جوفه وقال: انصرفوا إلى ما أنتم عليه؛ وإذا رأيتم صالحًا فقولوا: ائتنا ببرهان كما أتى به هود ونوح.

فخرجوا مسرورين حتى أتوا صالحًا، فقال لهم: قد رأيتم وسمعتم كلام الوحش والطير وإحياءَ الموتى وغيرَ ذلك من الآيات ما فيه كفاية، فأيّ آية تريدون؟ قالوا: نخرج نحن وأنت إلى هذا الوادي، وندعو وتدعو، وننظر أيّ الدعوتين تستجاب؛ وتواعدوا إلى يوم عيدهم.

فلمّا كان في ذلك اليوم اجتمعوا وخرجوا بأصنامهم وزينتهم؛ وأقبل صالح يخترق صفوفهم؛ حتّى وقف أمام ملِكهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله. قالوا: أرنا آية. قال: ما تريدون؟ قالوا: أخرِج لنا ناقة من هذه الصخرة ونؤمن بك ونعلم أنّك صادق. قال: إنّ ذلك هيّن على ربّي، ولكن صفوها لي.

فأقبل القومُ يصف كلٌّ منهم صفة حتى أكثروا. فقال الملِك: إنّ هؤلاء قد أكثروا وأنا أصفها بما في قلبي: تكون ناقة ذات فَرْث ودم ولحم وعظم وعَصَب وعروق وجلد وشَعر يخالطه وبر، وتكون شَكلاء[١] شقراء هيفاء، ولها ضَرع كأكبر ما يكون من القلال[٢]، يدرّ من غير أن يستدرّ[٣]، يشخب لبنًا غزيرًا صافيًا، ويكون لها فصيل[٤] يتبعها على مثالها، فإذا رغت أجابها بمِثل رُغائها، ويكون حنينها[٥] الإخلاص لربّك بالتوحيد، والإقرار لك بالنبوّة، فإن أخرجتَها على هذه الصفة آمنّا.

فأوحى الله إليه: أن أعطهم ما سألوا. فقال لقومه: إن الله قد شفّعني في حاجتكم، فإن أخرجتها تؤمنون؟ قالوا: نعم، على شرط أن يكون لبنها ألذّ من الخمر وأحلى من العسل. قال: إن أخرجها ربّي تؤمنون؟ قالوا: نعم على شرط أن يكون لبنها في الصيف باردًا، وفي الشتاء حارًّا، لا يشربه مريض إلّا بريء، ولا فقير إلّا استغنى. قال: إن أخرجها ربّي أتؤمنون؟ قالوا: نعم، على شرط ألّا ترعى من مراعينا، بل في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وتذر ما على الأرض لمواشينا. قال: إن أخرجها ربّي أتؤمنون؟ قالوا: نعم، على شرط أن يكون الماء لنا يومًا ولها يومًا، ولا يَفوتنا اللّبن، وتدخل علينا بالعشيّات في بيوتنا وتسمّى كلّ واحد منّا باسمه، وتنادي: «ألا من أراد اللّبن»؟ فيخرج ويضع ما يريد تحت ضرعها، فيمتلىء لبنًا من غير احتلاب. قال أتؤمنون حقيقة؟ قالوا: نعم. قال صالح: قد شرطتم شرائط كثيرة،

---

(١) الشكلاء: أي في لونها بياض مخطط بحمرة.
(٢) القلال: جمع قلة، وهي الجرّة والخابية. (٣) يُستدر: يحلب أي يُخرج درّه.
(٤) الفصيل: ولد النّاقة. (٥) الحنين: صوت الناقة.

وأنا أشترط عليكم: لا يركبها أحد منكم، ولا يرميها بحجر ولا سهم، ولا يمنعها من شربها ولا فصيلها.

قالوا: هذا لك يا صالح. فأخذ عليهم المواثيق.

ذكر خروج الناقة

قال: فلمّا انتهت شروطهم وشروطه، وأخذ عليهم المواثيق، قام وصلّى ركعتين، ودعا، فاضطربت الصخرة وتمخّضت[١]، وتفجّر من أصولها الماء، والقوم ينظرون، وسمعوا دويًا كدويّ الرعد، فرفعوا رؤوسهم، فإذا بقبّة تنقضّ من الهواء فانحدرتْ على الصخرة وحولها الملائكة؛ ثم تقدّم صالح إلى الصخرة فضربها بقضيب كان بيده، فاضطربت وتشامخت[٢] صُعُدًا؛ ثم تطامنتْ[٣] إلى موضعها؛ ثم خرج رأس ووثبتْ من جوفها على الصفة كأنّها قطعة جبل، فوقفتْ بين يدي المَلِك وقومه وهي أحسن ممّا وصفوا، وهي تنادي: (لا إلٰه إلا الله، صالح رسول الله).

ثم مرّ جبريل على بطنها بحربة، فخرج فصيلها على لونها.

ثم نادت: «أنا ناقة ربّي، فسبحان من خلقني وجعلني آيةً من آياته الكبرى».

فلما رأى الملِك ذلك قام عن سريره وقبّل رأس صالح، وقال: يا معشر قبائل ثمود، لا عمى بعد الهدى، أنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن صالحًا رسول الله.

وآمن معه في ذلك اليوم خلق كثير من أهل مملكته وغيرهم؛ فلمّا رأى داود خادمُ الأصنام ذلك نادى بصوت رفيع: يا آل ثمود، ما أسرع ما صبوتم[٤] إلى هذا الساحر، إن كانت الناقة قد أعجبتكم فهلمّوا إلى آلهتكم فسلوها حتى تُخرج لكم أحسن منها.

فوقفوا عن الإيمان، وعمدوا إلى شهاب أخِ الملك، فملّكوه عليهم؛ ودخل جُنْدَع المدينة فكسر الصنم الذي كان يعبده، وفرّق أمواله على المؤمنين، ولبس الصوف، وعبد الله حقّ عبادته، وكانت الناقة تتبع صالحًا كاتّباع الفصيل لأمّه؛ فلمّا كان بعد ذلك أقبلت ثمود على صالح، وقالوا: إن لم نمسّ الناقة بسوء يصرفْ ربّك عنّا عذابه؟ قال: نعم، إلى منتهى آجالكم. وكانت الناقة تخرج وفصيلها

---

(١) تمخّضت: تحرّكت.

(٢) تشامخت: ارتفعت.

(٣) تطامنت: انخفضت.

(٤) صبوتم: من صبا يصبو أي مال.

خلفَها، فتصعد إلى رؤوس الجبال، ولا تمرّ بشجرة إلّا التفّت عليها أغصانُها فتأكل أطايب أوراقها؛ ثم تَهبِط إلى الأودية فترعى هناك، فإذا أمست تدخل المدينة وتطوف على دُور أهلها، وتنادي بلسان فصيح: ألا من أراد منكم اللّبن فليخرج. فيخرجون بآنيتهم، فيضعونها تحت ضرعها، واللّبن يشخب حتى تمتلىء الآنية؛ فإذا اكتفوا عادت إلى المسجد، وتسبّح الله حتى تصبح؛ ثم تخرج إلى المرعى وهذا دأبها.

قال: وكان للقوم بئر يشربون منها ليس لهم سواها، فإذا كان يوم الناقة تأتي وتدلّي رأسها فتشربه وتقول: «الحمد لله الذي سقاني من فضل مائه، وجعلني حجّة على آل ثمود».

وكانت تَمُجُّ من فِيها إلى فم الفصيل حتّى يَروى؛ فإذا كان يوم القوم أتوا البئر ونزحوا ما فيها؛ وكانت الناقة تقول إذا أصبحت: إلٰهي كلّ من شرب من لبني وآمن بك وبرسولك فزده إيمانًا ويقينًا، ومن لم يؤمن بك وبرسولك فاجعل ما يَشرب من لبني في بطنه داء لا دواء إنّك على كلّ شيء قدير.

ذكر خبر عَقر[1] الناقة وهلاك ثمود

قال: فلما كانت تدعو بذلك صار القوم إذا شربوا لبنها اعترتهم الحِكّة في أبدانهم؛ فاجتمعوا وقالوا: ليس لنا في هذه من خير؛ وأجمَعوا على عَقرها؛ وكانت فيهم امرأة يقال لها: عُنيزة بنت غُنْم بن مجلز[2]، وتُكنَى أمَّ غُنْم، وهي من بنات عبيد[3] بن المهيل، وكانت امرأةَ ذؤاب بن عمرو، وهي عجوز مسنّة، ولها أموال ومواش، ولها أربع بنات من أجمل النساء، وبجوارها امرأة يقال لها: صَدُوف بنت المحيّا بن فهر، ولها أيضًا مواشٍ كثيرة؛ فدَعَتا قومهما إلى عقر الناقة، فلم يجيبوهما إلى ذلك؛ فبينما صَدُوف كذلك إذ مرّ بها رجل يقال له الحباب[4] ـ وكان مولَعًا بالنساء ـ فعرضت نفسها عليه على أن يعقر الناقة؛ فامتنع، فقالت له: لقد جَبُن قلبك، وقَصُرت يدك. وتركته؛ وأقبلت على ابن عمّ لها يقال له: مِصْدَع فكشفت عن وجهها، وعرضت نفسها عليه على أن يُصدِقها عَقرَ الناقة؛ فأجاب.

---

(١) العقر: هو قطع إحدى القوائم من الناقة لتسقط وتذبح، وعقره: نحره.
(٢) في الأصول «مخلد» والتصويب عن تفسير الطبري ٨/ ١٦٠.
(٣) في الأصول «العند» والتصويب عن تفسير الطبري ٨/ ١٦٠.
(٤) في الأصول «الجناب» والتصويب عن تفسير الطبري ٨/ ١٦٠.

وأقبلت صَدوف إلى عُنيزة فأخبرتها بذلك، ففرحت به. قالت: إلّا أنه منفرد، ولكن قومي إلى عزيز ثمود قُدَار، فإنه شابّ لم يتزوّج، فاعرضي عليه بناتك لعله يفعل؛ ففعلت عُنيزة ذلك، وزيّنت بناتها، وأقبلت بهنّ إلى قُدار، وكان أقبح رجل في ثمود، وكان في عينيه زُرقة، وكأنّهما عدستان، وأنفه أفطس ولحيته بطوله، غير أنه كان يمرّ بالشجرة العظيمة فينطحها برأسه فيكسرها؛ فلمّا رأته عُنيزة رجعت ببناتها إلى صَدوف، وقالت: من تطيب نفسُه أن يزوّج مِثلَ هؤلاء من هذا؟ فلم تزل بها حتى رجعت بهنّ إليه، وعرضتهنّ عليه؛ فاختار منهنّ (الرّباب)، وأجاب إلى عَقر الناقة، واجتمع إليه «مصدع وأخوه[1] ورُعَيْن وداود خادم الأصنام وريّان ولبيد والمصرد وهُزَيل ومفرّج»[2] فهؤلاء التسعة الذين ذكرهم الله في كتابه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨﴾ [النّمل: الآية ٤٨].

فطافوا بأجمعهم على قبائل ثمود وأعلموهم بما أجمعوا عليه من عَقر الناقة؛ فرضي بذلك كبيرهم وصغيرهم، واجتمع هؤلاء التسعةُ بسيوفهم وقِسِيِّهم[3]، وذلك في يوم الأربعاء، وقعدوا ينتظرون الناقة، فأقبلتْ حتى قرِبت من البئر؛ فنادت عُنيزة: يا قدار، اليومَ يومُك، فأنت السيّد في قومك. قال الله: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: الآية ٢٩].

قال: فشدّ قُدارُ قوسَه ورماها بسهم فأصاب لَبَّتَها[4]، وهو أوّل من رماها، ثم مِصْدَع، وأقبلوا عليها بالسيوف فقطّعوها، وأنذرت فصيلها، فهرب إلى رأس جبل، ودعا باللّعنة على ثمود، فاتبعه القوم وعقروه، وتقاسموا لحمه.

وحكى الثعلبيّ في كتابه المترجَم (ببواقيت البيان في قصص القرآن): أنّ الفصيل لمّا عُقرت الناقة أتى جبلًا منيعًا يقال له: صُور[5]. وقيل: اسمه فارِه؛ وأن صالحًا لمّا بلغه عقر الناقة أقبل إلى قومه، فخرجوا يتلقّونه ويعتذرون إليه ويقولون: إنّما عقرها فلان وفلان، ولا ذنب لنا.

---

(١) في كتاب الكسائي «قصص القرآن» وآخر اسمه حراب.

(٢) يلاحظ أن هذه الأسماء التسعة، قد اختلفت فيها الرّوايات والمصادر اختلافًا بيّنًا لم يجعل بينها تقاربًا في رسم الحروف.

(٣) القسيّ: جمع «قوس».

(٤) اللَّبَّة: موضع القلادة من الصّدر.

(٥) كذا ورد هذا الاسم في تفسير الطبري.

فقال لهم صالح: انظروا، هل تدركون فصيلها؟ فعسى أن تدركوه فيُرفَع عنكم العذاب. فخرجوا يطلبونه، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن يتطاول؛ فتطاول في السماء حتى ما يناله الطير؛ وجاء صالح، فلمّا رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه؛ ثم دعا ثلاثًا فانفرجت الصخرة حتّى دخلها؛ فقال صالح: بكلّ دعوة أجل يوم فتمتّعوا ﴿فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: الآية ٦٥].

نرجع إلى رواية الكسائيّ، قال: وصاح قُدار بأصحابه: هلمّوا[١]. فقدموا فأمرهم أن يقطّعوا لحم الناقة؛ فقطّعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب، وصالح لا يعلم بذلك، فنادته الوحوش: يا صالح، هتكتْ ثمود حرمة ربّها، وتعدّوا أمره. فأقبل بالمؤمنين من قومه؛ فلمّا رآها بكى وقال: إلـٰهي أسألك أن تنزل على ثمود عذابًا من عندك.

فأوحى الله إليه: أن أنذر قومك بالعذاب. فبشَّرَهم بعذاب الله. فقالوا له: افعل ما بدا لك، فقد عقرناها، وقد أنذرت بالعذاب منذ بعيد وما نرى له أثرًا. فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: الآية ٦٥]. وبات القوم ليلتهم، فلمّا أصبحوا تفجّرت آثار وطء الناقة[٢] بعيون الدم، وظهرت الصفرة في ألوانهم؛ فقالوا: يا صالح، ما هذا التغيّر في ألواننا وبلادنا؟ قال: غَضِب ربّكم عليكم. فأجمعوا على قتله، وقالوا: إذا قتلناه امتنع عنّا سحره ولا تُمكِنه الإساءة إلينا. فتقدّم التسعة لقتله عندما أقبل الليل، فوقف لهم جبريل ورمى كلَّ واحد منهم بحجر فقتله.

فلمّا كان من الغد نظرتْ ثمود إليهم وقد قُتلوا، فقالوا: هذا من فعل صالح. فعزموا على الهجوم عليه وقتلِه، فأمره الله تعالى بالخروج من المسجد، فجاؤوا ليقتلوه فما رأوه، وأصبحوا في اليوم الثاني وقد احمرّت وجوههم، وفي اليوم الثالث اسودّت، فأيقنوا بعذاب الله، وحفروا لأنفسهم حفائر، ولأهليهم وأولادهم ولبسوا الأنطاع[٣]، وجلسوا في الحفائر ينتظرون العذاب، وصالح يخوّفهم وينذرهم عذابَ الله وهم لا يبالون به.

---

(١) هلُمَّ: كلمة دعاء إلى الشيء نحو: هلمَّ إلى العمل.

(٢) آثار وطء الناقة: أي آثار أخفافها على الأرض.

(٣) الأنطاع: مفردها «النطع» وهو بساط من جلد يفرش تحت جسد المحكوم عليه بالعذاب أو القتل.

فلما كان في اليوم الرابع ـ وهو صَبيحة الأحد ـ أرسل الله تعالى جبريل فنشر جناح غضبه، وأتاهم بشرارة من نارٍ لظى، وجعل يرميهم منها بجَمْر متوهِّج كأمثال الجبال، وثمود باركة في حفائرها.

وأخذ جبريل بتُخوم الأرض، فزُلزلت بيوتهم وقصورهم، ثم نشر جناح غضبه على ديار ثمود، وصاح صيحة، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القَمَر: الآية ٣١].

ثم أقبلتْ سحابة سوداء على ديارهم، فرمتهم بوَهَج الحريق سبعة أيّام حتّى صاروا رمادًا.

فلمّا كان في اليوم الثامن انجلت السحابة وطلعت الشمس، وجاء صالح بمن معه من المؤمنين، فطاف بديارهم، واحتملوا ما قدروا عليه من أموالهم وارتحل بقومه إلى أرض الشأم، فنزل بأرض فِلَسْطين، وأقام عليه السلام حتى مات.

الباب السابع
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في أخبار أصحاب البئر المعطَّلة والقصر المشَيد
وما كان من أمرهم وهلاكهم

قال الكسائيّ: قال كعب: لمّا قبض الله تعالى نبيّه صالحًا عليه السلام بأرض فلسطين، خرج أصحابه إلى بلاد اليمن فتفرّقوا فرقتين: فنزلت إحداهما بأرض عَدَن، وهم أصحاب البئر المعطَّلة، والثانية صارت إلى (حضرموت) (والقصر المشيد) وهو قبل البئر؛ والذي بناه رجل يقال له: جند بن عاد، وذلك لأنه رأى ما نزل بقوم هود من الريح، فعزم على بناء قصر مشيّد، فبالغ في تشييده، وانتقل إليه، وكان له قوّة عظيمة، فكان يقتلع الشجرة، ويمرّ بيده في الجبل فيخرقه وكان مولَعًا بالنساء، فتزوّج زيادة عن سبعمائة امرأة، ورزق من كلّ امرأة ذكرًا وأنثى؛ فلمّا كثر ولده وقومه طغى في الأرض وتجبّر، وكان يقعد في أعلى قصره مع نسائه فلا يمرّ به أحد إلّا أمر بقتله؛ فلمّا كثر فساده أهلكه الله بصيحة جبريل جاءته من قبل السماء فأهلكته هو وأولاده وقومه.

قال الكسائيّ: ولا يجسر[١] أحد أن يدخل إلى القصر ممّا نزل بسكّانه.

قال: ويقال: إنّ فيه حيّة عظيمة، وإنّه يُسمع من داخله أنين كأنه المريض.

وأما البئر المعطَّلة - فهي بأرض عَدَن، وكان أهلها على دين صالح، وكان المطر ينقطع عنهم في بعض الأوقات حتّى يبلغ بهم الجهد، فيحملون الماء من بلد بعيد، فأعطاهم الله تعالى هذه البئر على ألّا يُشركوا به شيئًا، ويعبدوه حقّ عبادته وكانوا معجَبين بها، قد بنَوها بألوان الصخور، وبنَوا حولها حياضًا بعدد قبائلهم؛ وكان لهم مَلِك يسوسهم[٢]، فلما مات حزِنوا عليه حزنًا عظيمًا؛ فأقبل عليهم إبليس وقال: ما بالكم بهذا الحزن؟ قالوا: كيف لا يكون كذلك وقد فقدنا مَلِكَنا مع إحسانه إلينا. قال: إنّه لم يمت، ولكنّه احتجب عنكم لغضبه عليكم، ولكونكم لم تعبدوه.

وانطلق إبليس فاتخذ لهم صنمًا على صورة المَلِك، ونصبه على سريره، وقال: هلمّوا إلى الملِك فاسمعوا كلامه.

فأقبلوا حتى وقفوا مِن وراء السِّتر، ووَقَفَ إبليس في جوف الصنم شيطانًا يكلّمهم بلغة لا ينكرون أنّها لغة الملك؛ ثم قال إبليس: استمعوا. فكلّمهم الشيطان من الصنم وقال: يا آل ثمود، ما لي أراكم تبكون؟ قالوا: لفقدك. قال: قد كذبتم، لو كنتم تحبّونني كما تقولون كنتم عبدتموني، وقد كنت فيكم أربعمائة سنة ما فيكم من سجد لي سجدة واحدة، والآن فقد ألبسني ربّي ثوبَ الألوهيّة، فصيّرني فيكم لا آكل ولا أشرب ولا أنام، وأخبركم بالغيوب، فاعبدوني وسمّوني ربًّا، فإني أقربكم إلى ربّي زُلْفى[٣].

قالوا: يا أيها الملِك، فلو رأينا وجهك. فرفع إبليس الحجاب حتى رأوه فلم ينكروا من صفاته شيئًا، فخرّوا له سجّدًا، واتخذوه ربًّا؛ وكان فيهم رجل من خيار قوم صالح اسمه حنظلة بن صفوان، ففارقهم ولحق بالحرم، وعَبَدَ الله حينًا فرأى في منامه قائلًا يقول له: قد أمرك ربُّك أن تصير إلى قومك وتحذّرهم عذابه إن لم يرجعوا عن عبادة الأصنام، وتذكّرهم العهودَ في البئر، وإن لم يؤمنوا غار ماء البئر حتى يموتوا عطشًا.

---

(١) يجسُر: يجرؤ.

(٢) يسوسهم: يقودهم.

(٣) الزّلفى: القربى.

فانتبه وخرج من ساعته حتى أتى قومه، فأنذرهم ووعظهم، فهمّوا بقتله فعطّل الله تعالى بئرهم حتّى لم يجدوا فيها قطرة، فأتوا إلى صنمهم فلم يكلّمهم، وأتتهم صيحة من السماء، فهلكوا عن آخرهم.

ويقال: إنّ سليمان صَفَّد شياطين وحبسهم بهذه البئر؛ والله أعلم.

الباب الثامن
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في خبر أصحاب الرسّ وما كان من أمرهم

قال الكسائيّ: قال كعب: إن أصحاب الرسّ كانوا بحضرموت، وكانوا كثيرًا، فبنَوا هناك مدينة كانت أربعين ميلًا في مثل ذلك، فاحتفروا لها القنوات من تحت الأرض، وسمَّوها رَسًّا، وكان ذلك أيضًا اسم مَلِكِهم؛ فأقاموا في بلدهم دهرًا طويلًا يعبدون الله تعالى حقّ عبادته؛ ثم تغيّروا عن ذلك وعبدوا الأصنام وكان ممّا أحدثوه[1] إتيانُ النساء في أدبارهنّ والمبادلةُ بهنّ، فكان كلُّ منهم يبعث بامرأته إلى الآخر، فشَقّ[2] ذلك على النساء، فأتاهنّ إبليس في صورة امرأة وعلّمهنّ السّحاق ففعلنه، وهم أوّل من أتى النساء في أدبارهنّ وساحق؛ فاشتهرت هذه القبائح فيهم.

فبعث الله إليهم رسولًا اسمه حنظلة. وقيل: خالد بن سنان[3]. وقيل: ابن صفوان. فدعاهم إلى طاعة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وفعلِ القبائح وحذّرهم وذكّرهم ما حلّ بمن قبلهم من الأمم؛ فكذّبوه؛ فوعظهم دهرًا طويلًا وهم لا يرجعون، فضربهم الله بالقحط، فقتلوا نبيّهم وأحرقوه بالنار؛ فصاح بهم جبريل صيحة فصاروا حجارة سودًا، وخُسِفت مدينتهم.

وقيل: إن هذه المدينة لم يرها إلّا ذو القرنين[4]، وإنّه رآهم حجارة، ورأى

---

(١) أحدثوه: فعلوه ولم يُسبقوا إليه. (٢) شقّ: صعب.

(٣) هو خالد بن سنان العبسي، حكيم من أنبياء العرب في الجاهلية، كان في أرض بني عيسى يدعو الناس إلى دين عيسى، ومن آثاره أنه دخل نارًا فانطفأت بإذن الله، ووفدت ابنته على رسول الله ﷺ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وقال: ابنةُ نبيّ «ضيّعه أهله» «الأعلام ٢/٢٩٦».

(٤) ذو القرنين: ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة «الكهف» الآية ٨٣، وما بعدها، وقد جاء في صبح الأعشى أن ذا القرنين هو الملك إفريدون من ولد جمشيد، من الفرس، وهو الذي ملك جميع الأرض وقسّمها بين بنيه ومات «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠» ومن المؤرّخين من يقول: إن=

النساء ملتصقات بعضهنّ ببعض، ورأى الملوك على الأسرّة وبين أيديهم الجنود قائمة، بأيديهم الأعمدة والأسلحة، وقد صاروا كلّهم حجارة سودًا.

هذا ما حكاه الكسائيّ.

وقال أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله تعالى قال سعيد بن جبير(١) والكلبيّ(٢) والخليل بن أحمد ـ دخل كلامُ بعضهم في بعض، وكلٌّ قد أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرسّ: أنّهم بقيّة ثمود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في كتابه ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحجّ: الآية ٤٥].

قال: وكانوا بفَلْج اليمامة نزولًا على تلك البئر.

وكلّ ركيّة(٣) لم تُطوَ بالحجارة والآجُرّ فهي رَسّ؛ وكان لهم نبيّ يقال له: (حنظلة بن صفوان)(٤). وكان بأرضهم جبل يقال له: (فَلْج) مُصْعِد في السماء ميلًا وكانت العَنْقاء تأتيه، وهي أعظم ما يكون من الطير، وفيها من كلّ لون، وسمّوها العَنْقاء لطول عنقها، وكانت تكون في ذلك الجبل وتنقضّ على الطير فتأكلها فجاعت ذات يوم وأعوَزَها الطير فانقضّت على صبيّ فذهبت به، فسُمّيت عَنْقاءَ مُغْرِب، لأنّها تُغرب بما تأخذه وتذهب به، ثم انقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمّتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين، فشكوا ذلك إلى نبيّهم؛ فقال: اللهم خذها واقطع نسلها، وسلّط عليها آفة تذهب بها. فأصابتها صاعقة فاحترقت، فلم يُر لها أثر بعد ذلك.

قال: ثم إنّ أصحاب الرسّ قتلوا نبيّهم، فأهلكهم الله تعالى.

= الإسكندر المقدوني هو ذو القرنين المذكور في القرآن. . .

(١) هو سعيد بن جبير الوالبي، أبو محمد، أحد الأعلام، قتل في شهر شعبان شهيدًا سنة ٩٥ هـ، وقد قتله الحجّاج بسبب خروجه مع ابن الأشعث «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٢) الكلبي: هو محمد بن السّائب الكلبي، أبو النضر، نسّابة راوية عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، مات سنة ١٤٦ هـ «الأعلام ٦/ ١٣٣».

(٣) الرّكيّة: البئر.

(٤) هو حنظلة بن صفوان الرّسّي، من أنبياء العرب في الجاهلية، وهو من أصحاب الرّس الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، بُعث لهدايتهم فكذّبوه وقتلوه، واختلف الرواة في الرّس، والأكثر على أنّها «بئر» وفي رواية ابن حبيب أنها كانت في بلدة «حضور» من أعمال زبيد باليمن، وقال ابن خلدون: الرّس ما بين نجران إلى اليمن، ومن حضرموت إلى اليمامة «الأعلام ٢/ ٢٨٦».

قال الثعلبيّ: وقال بعض العلماء: بلغني أنّه كان رسّان: أمّا أحدهما فكان أهله أهل بذر وعمود[١]، وأصحابَ غنم ومواش، فبعث الله إليهم نبيًّا فقتلوه، ثم بعث الله رسولًا آخَر وعضّده بوليّ، فقتلوا الرسول، وجاهدهم الوليّ حتى أفحمهم؛ وكانوا يقولون: إلـٰهنا في البحر. وكانوا على شفير البحر؛ وكان يخرج إليهم من البحر شيطان في كلّ شهر خرجةً فيذبحون عنده، ويتّخذون ذلك اليوم عيدًا؛ فقال لهم الوليّ: أرأيتم إن خرج إلـٰهكم الّذي تدعونه وتعبدونه إليّ وأطاعني أتجيبوني إلى ما دعوتكم إليه؟ قالوا: بلى. وأعطوه على ذلك العهود والمواثيق، فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبًا على أربعة أحوات، وله عنق منقلب، وعلى رأسه مثل التاج؛ فلمّا نظروا إليه خرّوا سجّدًا؛ وخرج الوليّ إليه وقال: ائتني طوعًا أو كرهًا باسم الله الكريم.

فنزل عند ذلك عن أخواته؛ فقال له الوليّ: ائتني راكبًا لئلّا يكون القوم في شكّ. فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضوا[٢] إلى البرّ يجرّونه ويجرّهم؛ ثم كذّبوه بعدما رأوا ذلك، ونقضوا العهود؛ فأرسل الله تعالى عليهم ريحًا تقذفهم في البحر ومواشيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضّة وآنية؛ فأتى الوليّ الصالح إلى البحر حتى أخذ التّبر والفضّة والأواني، فقسمها على أصحابه بالسويّة على الصغير والكبير، وانقطع ذلك النسل.

وأمّا الرسّ الآخَر - فهم قوم كان لهم نهر يدعى الرسّ، وذلك النهر بمنقَطَع أَذْرَبِيجان، بينهما رَسُّ أرمينية، فإذا قطعته مدبرًا دخلتَ في حدّ أرمينية وإذا قطعته مقبلًا دخلتَ في حدّ أَذْرَبِيجان، وكان مَن حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان، ومَن قدّامهم من أهل أَذْرَبِيجان يعبدون النيران، وكانوا هم يعبدون الجواريَ العذارى، فإذا تمّت لإحداهنّ ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها. وكان عرض نهرهم ثلاثةَ فراسخ، وكان يرتفع في كلّ يوم وليلة حتّى يبلغ أنصاف الجبال الّتى حوله، ولا ينصبّ في برّ ولا بحر، وإذا خرج من حدّهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم، فبعث الله إليهم ثلاثين نبيًّا في شهر واحد، فقتلوهم جميعًا فبعث الله إليهم نبيًّا وأيّده بنصره، وبعث معه وليًّا، فجاهدهم في الله حقّ جهاده.

---

(١) أهل العمود: أي أهل أخبية.

(٢) أفضوا: وصلوا ونزلوا.

ثم بعث الله تعالى ميكائيل حين نابذوه[١] ـ وكان ذلك في أوان وقوع الحَبّ في الزرع، وكانوا إذ ذاك من أحوج ما يكون إلى الماء ـ فبَحَرَ نهرَهم[٢] في البحر فانصبّ ما في أسفله، وأمّا عيونه من فوق فسَدّها، ثم بعث الله تعالى خمسمائة ألفِ مَلَكٍ من الملائكة أعوانًا له، ففرّغوا ما بقي في نهرهم.

ثم أمر الله تعالى جبريل فنزل فلم يَدَع في أرضهم عَينًا ولا نهرًا إلّا أيبسه بإذن الله تعالى.

وأمَر ملَك الموت فانطلق إلى المواشي فأماتها في ربضة[٣] واحدة.

وأمَر الرياح الأربع: الجنوب والشمال والدَّبور[٤] والصَّبا[٥] فقمَّت ما كان لهم من متاع، وألقى الله تعالى عليهم السُّبات[٦].

ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فشتّتته في رؤوس الجبال وبطون الأودية.

وأمر الله الأرض فابتلعتْ ما كان لهم من حليّ وتبر وآنية؛ فأصبحوا لا ماشية عندهم ولا بقر ولا مال يرجعون إليه ولا ماء يشربون ولا طعام يأكلون، فآمن بالله تعالى عند ذلك قليل منهم، وهداهم الله تعالى إلى غار في الجبل له طريق إلى خلفه، فنجوا، وكانوا أحدًا وعشرين رجلًا وأربعَ نسوة وصبيّين، وكان عدّة الباقين من الرجال والنساء والذراريّ ستّمائة ألف، فماتوا عطشًا وجوعًا، ولم تبق منهم باقية.

ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها، فدعا القومُ عند ذلك مخلصين أن يحييهم الله تعالى بماء وزرع وماشية، وأن يجعل ذلك قليلًا لئلّا يطغوا. فأجابهم الله تعالى إلى ذلك، وأطلق لهم نهرهم، وزادهم على ما سألوه.

فأقام أولئك القومُ على طاعة الله تعالى باطنًا وظاهرًا حتى مضوا وانقرضوا؛ فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله تعالى في الظاهر، ونافقوا في الباطن؛ وأملى الله تعالى لهم، ثم بعث الله عليهم عدوّهم ممّن قاربهم وخالفهم، فأسرع فيهم

---

(١) نابذوه: خالفوه وقاوموه وعادوه.
(٢) بحر نهرهم: أي شقّه.
(٣) الرّبضة: مأوى الغنم، والرِّبضة: الجماعة من الماشية.
(٤) الدّبور: الريح الحارة.
(٥) الصّبا: الرّيح الباردة.
(٦) السُّبات: النوم.

القتل، وبقيَت منهم شرذمة[١]، فسلّط الله عليها الطاعون، فلم يبق منهم باقية وبقي نهرهم ومنازلهم مائتي عام لا يسكنها أحد.

ثم أتى الله بعد ذلك بقرن[٢] فنزلوها وكانوا صالحين سنين، ثم أحدثوا فاحشة وجعل الرجل منهم يدعو ابنته وأخته وزوجته فيَلْقَى بهنّ جاره وأخاه وصديقه يلتمس بذلك البرّ والصلة؛ ثم ارتفعوا عن ذلك إلى نوع آخر، ترك الرجال النساء حتى شَبِقْن[٣]، واشتغلن عن الرجال، فجاءت النساءَ شيطانةٌ في صورة امرأة ـ وهي الوَلْهانة بنت إبليس ـ فشبّهت[٤] للنساء ركوبَ بعضهن بعضًا؛ وعلمتهنّ كيف يصنعن؛ فأصل ركوب النساء النساءَ منها؛ فسلّط الله تعالى على ذلك القرن صاعقة من أوّل ليلتهم، وخسفًا في آخر اللّيل، وصيحة مع الشمس، فلم تبق منهم باقية وبادت مساكنهم.

قال الثعلبيّ: ولا أحسب مساكنهم اليوم مسكونة.

وقال أبو إسحٰق الثعلبيّ أيضًا: وروى عليّ بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أن رجلًا من أشراف بني تميم يقال له: عمرو، أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن أصحاب الرس وأي عصر كانوا فيه؟ وأين كانت منازلهم؟ ومن كان ملِكَهم؟ وهل بعث الله تعالى إليهم رسولًا أو لا؟ وبماذا هلكوا؟ فإنّي أجد في كتاب الله تعالى ذكرهم ولا أجد خبرهم.

فقال له: لقد سألتني عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك، ولا يحدّثك به أحد بعدي.

كان من قصتهم يا أخا تميم أنهم كانوا يعبدون شجرة صَنَوْبَر يقال لها: ساب درخت، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها: دوشاب كانت أُنْبِطتْ[٥] لنوح بعد الطوفان، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطىء نهر يقال له الرسّ من بلاد المشرق، ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكّانًا وعمرانًا منها؛ وذلك قبل سليمان بن داود، وكان من أعظم مدائنهم أسفيدبا، وهي التي كان ينزلها ملِكُهم، وكان يسمى بركون بن عابور بن بلوش بن سارب بن النُّمْروذ بن كنعان، وفيها العين والصَّنَوْبَرة، وقد غرسوا في كلّ عين حبّة من تلك

(١) الشرذمة: الجماعة القليلة من النّاس.
(٢) قرن: أي جماعة آخرين.
(٣) شبقن: اشتدت شهوتهن إلى الرّجال.
(٤) شبّهت: مثّلت وصوّرت وزيّنت.
(٥) أنبطت: أنبتت، وأظهرت بعد خفاء.

الصنوبرة، فنبتت الحبّة وصارت شجرة عظيمة، وحرّموا ماء تلك العيون والأنهار، لا يشربون منها ولا أنعامهم، ومن فعل ذلك منهم قتلوه ويقولون: هي مياه آلهتنا، ولا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرسّ الّذي عليه قُراهم؛ وقد جعلوا في كلّ شهر من السنة في كلّ قرية عيدًا يجتمع أهلها ويضربون على تلك الشجرة مِظَلّة مِن الحرير، فيها من أصناف الصُوَر؛ ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانًا للشجرة، ويشعلون فيها النيران، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقُتارُها[١] وبخارها في الهواء، وحال بينهم وبين النظر إلى السماء، خرّوا سجّدًا، ويتلون ويتضرّعون إليها أن ترضى عنهم.

وكان الشيطان يجيء فيحرّك أغصانها ويصيح مِن ساقِها صياح الصبيّ: عبادي قد رضيت عنكم، فطيبوا نفسًا، وقرّوا عينًا. فيرفعون عند ذلك رؤوسهم، ويشربون الخمر، ويضربون بالمعارف؛ فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم، ثم ينصرفون؛ حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى، اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم، فضربوا عند الصَّنَوْبرة والعين سُرادقًا[٢] من ديباج، عليه من أنواع الصُوَر، له اثنا عشر بابًا، كلّ باب لأهل قرية منهم؛ ويسجدون للصنوبرة خارجًا من السرادق، ويقرّبون لها الذبائح أضعاف ما يقرّبون للأشجار الّتي في قُراهم؛ فيجيءُ إبليس عند ذلك فيحرّك الشجرة تحريكًا شديدًا، ويتكلّم من جوفها كلامًا جهرًا، ويَعِدُهم ويمنّيهم[٣] بأكثر ممّا وعدهم به الشياطين كلُّهم؛ فيرفعون رؤوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون ولا يتكلّمون معه، فيداومون الشرب والعزف، فيكونون على ذلك اثني عشر يومًا بلياليها بعدد أعيادهم في السنة؛ ثم ينصرفون؛ فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتُهم غيره، بعث الله إليهم نبيًّا من بني إسرائيل من ولد يهوذ بن يعقوب، فلبث فيهم زمنًا طويلًا يدعوهم إلى الله تعالى، ويعرّفهم ربوبيّته؛ فلا يتّبعونه ولا يسمعون مقالته؛ فلما رأى شدّة تماديهم في البغي والضلالة وتركَهم قبولَ ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح، وحضر عيدُ قريتهم العظمى قال: يا ربّ إنّ عبادك أبوا تصديقي ودعوتي لهم، فما زادوا إلّا تكذيبي والكفرَ بك، وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضرّ، فأيْبِس شجرهم أجمع، وأرِهم قدرتك وسلطانك.

---

(١) القتار: دخان ذو رائحة ينبعث من اللحم عند شوائه.

(٢) السُرادق: البيت أو الخيمة، أو المنصّة.

(٣) يمنّيهم: يعدهم ويرغّبهم بإنجاز ما يتمنّونه أي يبغونه.

فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلّه، فهالهم ذلك وتضعضعوا[١]، فصاروا فرقتين: فرقة قالت: سِحرُ هذا الرجل الّذي زعم أنّه رسول ربّ السماء، ألهاكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إلـٰهه؛ وفرقة قالت: بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها، ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكي تغضبوا لها، فتنتصروا منه.

فأجمعوا رأيهم على قتله، فاتخذوا مثال بئر، واتخذوا أنابيب طوالًا من رصاص واسعةَ الأفواه، ثم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ[٢]، ونزحوا ماء العين، ثم حفروا في قرارها بئرًا ضيّقة المدخل عميقة، وأرسلوا فيها نبيّهم، وألقوا عليه فيها صخرة عظيمة؛ ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا: الآن نرجو رضا آلهتنا عنّا إذا رأت أنا قد قتلنا من كان يقع فيها، ويصدّ عن عبادتها.

فبقوا عامّة يومهم يسمعون أنين نبيّهم، وهو يقول: سيّدي، ترى ضيق مكاني وشدّة كربي، فارحم ضعف ركني[٣] وقلّة حيلتي، وعجّل قبض روحي ولا تؤخّر إجابة دعوتي. حتى مات عليه السلام.

فقال الله تعالى لجبريل: انظر عبادي هؤلاء الّذين غرّهم حلمي، وأمنوا مكري، وعبدوا غيري، وقتلوا رسولي؛ وأنا المنتقم ممّن عصاني ولم يخش عذابي وإنّي حلفت بعزّتي لأجعلنّهم عبرة ونكالًا للعالمين.

فبينما هم في عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء، فتحيّروا وذُعروا منها وانضمّ بعضهم إلى بعض، ثم صارت الأرض من تحتهم حَجَر كبريت يتوقّد؛ وأظلّتهم سحابة سوداء، فألقت عليهم كالقبّة حجرًا يلتهب نارًا، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار؛ نعوذ بالله من غضبه ودَرَك نِقْمتِه[٤].

(١) تضعضعوا: تفرّقوا.

(٢) البرابخ: جمع بربخ، والبربخة: الإردبة، وبربخ البول: مجراه.

(٣) الرّكن: ما يستند عليه الإنسان من قوّة. (٤) درك نقمته: أي لحاقها بنا...

القسم الثاني

من الفنّ الخامس في قصّة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وخبره مع نُمْروذ، وقصّة لوط، وخبر إسحٰق ويعقوب، وقصّة يوسف وأيّوب وذي الكفل وشعيب

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأوّل منه

في قصّة إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - وخبر نُمْروذ بن كنعان

ولنبدأ من هذه القصّة بخبر نمروذ؛ ثم نذكر قصّة إبراهيم عليه السلام لتعلُّق قصّته به، لأنّ إبراهيم ولد في زمانه، وآيتُه الكبرى معه.

ذكر خبر نمروذ بن كنعان

هو نُمْروذ بن كَنْعان بن كُوش، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة الّذين ملكوا شرقها وغربها.

وقد ورد أنهم مؤمنان وكافران: فالمؤمنان سليمان بن داود والإسكندر ذو القرنين المذكورُ في سورة الكهف؛ والكافران: شدّاد بن عاد ونُمْروذ بن كنعان.

وقد قيل: بدل شدّاد بُخْتُنَصَّر.

قال الكسائيّ: قال وهب: لمّا أهلك الله تعالى أهل الرسّ بالمسخ ومَن تقدّمهم بما ذكرناه، أنشأ قرونًا آخرين، فكان ممّن أنشأ من ولد حام بن نوح كُوش بن قرط بن حام، وكان جبّارًا شديد القوّة عظيم الخَلْق، له مخاليب كالسِّباع وهو الذي أنشأ كوثا رَبًّا[1]

---

(١) كوثا ربًّا: الذي في معجم البلدان «كوثى» وهي ثلاثة مواضع بسواد العراق في أرض بابل=

من أرض العراق، وولد له بها ولد سمّاه كنعان، وكان له ولد آخر يقال له: الهاص؛ فلما مات كوش استقل الهاص بالمُلك دون كنعان واستقلّ كنعان بالصيد، ووَلع به حتّى ألهاه عن طلب المُلك؛ وكان مع ذلك شديد البطش والقوّة، فبينما هو يتصيّد إذ رأى امرأة ترعى بقرات، فأعجبتْه فراودها عن نفسها، فامتنعت واعتذرت بزوجها؛ فقال: ويلك، هل على وجه الأرض من يطاولني وأنا من ولد كوش، ونحن ملوك الأرض؟ فضحكت المرأة كالمستهزئة، وقالت: لا تذكر الملوك وأنت رجل صيّاد.

ثم أقبل زوجُها فقتله كنعان وأخذ المرأة ووطئها[1]، فحملت بنُمْروذ، ونقلها كنعان إلى قصره، فكانت من أحظى نسائه؛ ثم قتل أخاه بعد ذلك، واستقلّ بالمُلك.

ثم رأى في منامه كأنّه صارع إنسانًا فصرعه وقال: أنا مشؤوم أهل الأرض ومنزلي الظلمة، وقد أجّلتك حتّى أخرج من ظلمتي هذه إلى ضوء الدنيا.

فانتبه مرتاعًا، وأحضر أصحابَ علم النجوم، وقص رؤياه عليهم؛ فقالوا: سيولد مولود هو الآن في بطن أمّه يكون هلاكك على يديه.

وتبيّن حمل الراعية ـ وكان اسمها شلخاء ـ وكانت تسمع من بطنها صوتًا عجيبًا، فسمعه كنعان فقال: ويحك، هذا ليس بآدميّ؛ وإنما هو شيطان؛ وهمّ أن يدوس بطنها ليقتل من فيه؛ فهتف به هاتف: مه[2] يا كنعان، ليس إلى قتله سبيل.

فلمّا كملت مدّة الحمل وضعتْه أسود أحول أفطس[3] أزرق العين؛ وخرجت حيّة من حجر فدخلت في أنفه، ففزعت شلخاء؛ وأخبرت كنعان بخبره؛ فقال: أُقتليه فإنّه شؤم. فقالت: لا تطيب نفسي بقتله. قال: فاحتمليه واطرحيه في البريَّة. فاحتملته إلى البرّيّة، فمرّت براعي بقرات فعرضته عليه، فأخذه، وعادت إلى منزلها؛ فلمّا وضعه الراعي بين البقر نفرتْ وتفرّقت وعسر عليه جمعها؛ وأقبلت امرأته فأخبرها بخبر الغلام؛ فقالت: اقتله فإنّه شؤم. فأبى وقال: اطرحيه في النهر. فطرحته في نهر عظيم، فألقاه الماء إلى البرّ؛ فقيّض الله له نَمِرة فأرضعتْه وانصرفت؛ فرأته امرأة من

= وبمكة، وكوثى العراق وبها شهد إبراهيم الخليل عليه السّلام، وبها مولده «انظر معجم البلدان ٤/ ٤٨٧».

(١) وطئها: جامعها.

(٢) مه: اسم فعل مبني على السكون بمعنى «كفّ».

(٣) الأفطس: الذي انخفضت قصبة أنفه.

قرية هناك فعجبت وأخبرت أهل القرية، فخرجوا إليه واحتملوه وربّوه وسمّوه نمروذ، فلمّا بلغ جعل يقطع الطريق ويغير على النواحي، واجتمع له جمع كثير، فبلغ خبرُه كنعان، فجعل يبعث إليه بقائد بعد قائد وهو يهزمهم؛ وعظم أمره حتى صار في جيش عظيم؛ فسار إلى كوثاربًا وقاتل كنعان، فهزم جيوشه وظفر به، وقتله وهو لا يعلم أنه أبوه، واحتوَى على مُلكه؛ ثم أخذ في غزو الملوك حتى ملك الشرق وسائرَ ممالك الدنيا؛ ثم رجع إلى كوثاربًا فاستدعى وزراءه وقال: أريد أن أبني بنيانًا عظيمًا لم أُسبَق إلى مثله. فدلّوه على تارَح وذكروا أنّه عارف بأمر النجارة والبناء؛ فأحضره ومكّنه من خزانته، وأمره بإنشاء قصر عظيم؛ فخرج تارَح وشرع في بنائه، وتأنّق فيه، وأجرى فيه الأنهار؛ فلمّا كمل ورآه نُمْرُوذ خلع على[1] تارَح، وجعله وزيره.

وأخذ نمروذ في التكبّر حتى ادّعى الألوهية.

وكان مولَعًا بعلم النجوم، فأتقنه؛ فجاءه إبليس في صورة شيخ وسجد له وقال: إنك قد أتقنت علم النجوم؛ وعندي علم ما هو أحسن منه، وهو البحر والكهانة. فعلّمه ذلك، ثم حسّن له عبادة الأصنام، فدعا بتارَح وأمره أن يتخذ له صنمًا على صورته، ويتّخذ لقومه أصنامًا أخرى؛ فاتخذها تارَح من الجوهر والذهب والفضّة والقوارير[2] والخشب على أقدار الناس، وكلّها على صورة نُمْروذ حتى اتّخذ سبعين صنمًا، وأمر نمروذ قومه أن يتخذوها؛ ففعلوا ذلك وانهمكوا في عبادتها، وكلّمهم الشياطين من أجوافها؛ فعبدوها حتّى لم يعرفوا سواها وطغَوا وبغَوا، وأكثروا الفساد في الأرض، حتى ضجّت الأرض والسماء والوحش والطير إلى ربّها منهم.

ذكر الآيات التي رآها نمروذ قبل مولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: كان أوّل ذلك أنّه صعِد في بعض الأيّام إلى سريره، فانتفض[3] من تحته انتفاضًا شديدًا، وسمع هاتفًا يقول: تَعِس من كفر بإلٰه إبراهيم. فقال لتارَحَ وهو واقف عنده: سمعتَ ما سمعتُ؟ قال: نعم. قال: فمن هو إبراهيم؟ قال: لا أعرفه.

(١) خلع عليه: منحه وأعطاه.
(٢) القوارير: يريد الزّجاج، والقارورة: إناءٌ من زجاج يجعل فيه الشّراب والطّيب.
(٣) انتفض: اضطرب وارتجف.

فأرسل إلى السحرة وسألهم عن إبراهيم، وأخبرهم بما سمع؛ فقالوا: لا نعرف إبراهيم ولا إلـٰهه.

ثم توالت عليه الهواتف، ونطقت الوحش والطير والسباع بمثل ذلك؛ ثم رأى الرُّؤَى في منامه.

فكان منها أنّه رأى كأنّ القمر قد طلع من ظهر تارح، وألقى نورَه كالعمود الممدود بين السماء والأرض؛ وسمع قائلًا يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ [الإسرَاء: الآية ٨١] ونظر إلى الأصنام وهي ترتعد، فاستيقظ وقصّ رؤياه على تارَح، فقال: أيّها الملِك، إنّي في الأرض كالقمر لكثرة عبادتي لهذه الأصنام. فقال له نمروذ: صدقت.

وانصرف تارَح حتى دخل بيت الأصنام، فإذا هي قد سقطت عن كراسيّها منكبّة على أوجهها؛ فأمر خَدمَها بإعادتها، وعجب من ذلك.

قال: ثم رأى في منامه كأنّ نورًا ساطعًا بين السماء والأرض، وقومًا يسلكون فيه ينزلون إلى الأرض، ويصعدون إلى السماء، وإذا برجل من أحسن الناس وجهًا في ذلك النور، وأولئك يقولون: نصرك إلـه السماء، فبك تحيا الأرض بعد موتها. فانتبه ودعا بالسَّحَرة والكَهَنة والمنجّمين، وذكر لهم رؤياه، وأقسم إن كتموه تأويلها عذّبهم وجعلهم طعمًا للسباع. فطلبوا أمانه، فأمّنهم، فقالوا: رؤياك تدلّ على مولود من أقرب الناس إليك، يرث ملكك، ويرتفع ذكره إلى السماء والشرق والغرب ويُهلكك، وأنه لا يأتيك ومعه سلاح ولا جند. فتبسّم نمروذ وقال: إن كان كذلك فأمره هيّن. ثم قال لهم: فممّن يكون؟ قالوا: من ظهرِ أقربِ الناس إليك، ولا نعلم أكثر من هذا.

ثم قال: ليس أحد أقرب إليّ من ابني كوش ووزيري تارَح؛ ثم أمر بابنه كُوشَ فضُرب عنقه؛ وأمر بقتل الأطفال حتى قتل مائة ألف طفل؛ ثم دعا بالمنجّمين فقال: انظروا هل استرحتُ ممّن كنت أخافه؟ قالوا: ما حملت به أمّه بعد.

وأخذ في ذبح الأطفال حتى ضجّت الخلائق إلى الله تعالى.

ذكر حمل أمّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وطلوع نجمه

قال: وعبر تارحُ يومًا إلى الأصنام فاضطربت اضطرابًا شديدًا؛ فسجد لها فأنطقها الله، فقالت: يا تارح، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسرَاء: الآية ٨١] ووافى[1]

(١) وافى: أتى وأدرك وفاجأ.

نمروذَ ما كان يحذره، فخرج خائفًا وجلًا[١] حتى دخل على امرأته وذكر لها ذلك؛ فقالت: وأنا أخبرك بعجب، كنت قعدت عن الحيض منذ كذا وكذا، وقد حضت في يومي هذا. فقال: اكتمي أمرِك لئلّا يبلغ الملك. فلما طهرتْ هتف به هاتف: يا تارَح صر[٢] إلى زوجتك ليخرج النور الّذي على وجهك. فلمّا سمع ذلك مرّ هاربًا على وجهه فإذا هو بملَك يقول: أين تريد؟ ارجع فرُدَّ الأمانة الّتي في ظهرك.

فانصرف إلى منزله ولم يجسر أن يقرب امرأته؛ فأصبح وإذا بنور ساطع على وجهه؛ وكان هو الّذي يقرّب إلى الأصنام الطعام والشراب كلّ ليلة، وينصرف إلى منزله فتأكله الشياطين؛ فقرّب الطعام إليها، فأقبلت الشياطين لتأكله، فرأوا الملائكة هناك فولّوا هاربين، وبقي الطعام على حاله؛ فلمّا أصبح تارَحُ رآه على حاله فظنّ أن الأصنام ساخطة عليه، فعكف عليها لترضى عنه، فأبطأ عن منزله، فأتته امرأته؛ فلمّا خلت به في بيت الأصنام تحرّكت شهوته، وهمّ بمواقعتها، فقالت: ألا تستحي، أتفعل هذا بين يدي آلهتك؟ فواقعها[٣]، فحملت منه بإبراهيم عليه السلام فنُكِّست الأصنام، وظهر نجم إبراهيم وله طرفان: أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب؛ فعجب الناس منه؛ ورآه نمروذ فتحيّر، فلمّا أصبح سأل المنجّمين عنه، فقالوا: هذا نجمٌ جديد طلع يدلّ على مولود جديد من أولاد الأكابر، يرتفع شأنه، ويُخشى عليك منه. فهتف به هاتف يقول: يا عدوّ الله، هذا المولود قد حملت به أمّه والله مُهلكك على يديه.

قال: فلمّا استكملت أمّه تسعة أشهر قالت لأبيه: إني أحبّ أن أدخل بيت الأصنام فأسألَها أن تخفّف عنّي أمر الولادة؛ فأذِن لها في ذلك، وتربّص بها إلى اللّيل خوفًا أن يعلم الناس بحملها؛ فلمّا دخلت بيت الأصنام تنكّست[٤] عن كراسيّها فخرجت فزعة، فإذا هي بنُمروذَ في قومه، وبين أيديهم الشُّموع والمَشاعل؛ فقال نمروذ: من هذا؟ قالت: زوجة عبدِك تارَح؛ فأراد أن يقول: اقبِضوها فقال: خلّوها؛ فأقبلت إلى منزلها مذعورة، فجاءها الطلق، فأقبل إليها ملَك من عند الله تعالى وقال: لا تخافي وانهضي فضعي ما في بطنك. فتبعتْه حتّى أدخلها الغار، وهو الّذي ولد فيه إدريس ونوح عليهما السلام.

---

(١) الوجل: الخوف.
(٢) صر: اذهب وتقدّم.
(٣) واقعها: جامعها.
(٤) تنكّست: انقلبت.

ذكر ميلاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: ودخلت أمّه الغار فوجدت فيه جميع ما تحتاج إليه، وخفّف الله عنها الطلق، فولدته في ليلة جمعة، وهي ليلة عاشوراء؛ فلمّا سقط إلى الأرض قطع جبريل سرّته، وأذّن في أذنه، وكساه ثوبًا أبيض؛ ثم عاد بها الملك إلى منزلها فرجعت خفيفة كأن لم تلد، وقال لها الملَك: اكتمي أمرِك وما قد رأيتِ. فدخلت منزلها، وجاء تارَح فرآها نشطة خفيفة، فقالت: إن الذي كان في بطني لم يكن ولدًا، وإنّما كانت ريحًا وقد انفشّت[1] عنّي. ففرح بذلك، وألقى الله تعالى على نمروذ النسيان في أمر إبراهيم؛ فلمّا كان في اليوم الثالث خرجت أمّه إلى الغار فرأت الوحش والسباع على بابه، فتوهّمتْ أن يكون هلك؛ فدخلت فرأته على فراش من السندس[2]، وهو مدهون مكحول، فتحيّرتْ وعلمت أنّ له ربًا، ورجعت إلى منزلها وأخبرت تارَحَ الخبر، فنهاها عن العود إلى الغار، فكانت تروح إليه سرًّا في كلّ ثلاثة أيّام تنظر إليه وتعود، حتى تمّ له حولان، فأتاه جبريل بطعام من الجنّة، فأطعمه وسقاه؛ فلمّا استكمل أربع سنين جاءه ملَك بكسوة من الجنّة، وسقاه شربة التوحيد وقال: اخرج الآن منصورًا.

ذكر خروج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الغار واستدلاله

قال: ولمّا قال له الملَك ذلك خرج عند غروب الشمس، فجعل ينظر إلى السمٰوات، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٥، ٧٦] يعني على سبيل الاستفهام، أي أهذا ربّي؟ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: الآيات ٧٦ - ٧٩] وهبط جبريل عليه السلام فقال له: انطلق إلى أبيك وأمّك ولا تخف فإن الله معك. فخرج إبراهيم وجبريل معه حتى وقفه على الباب وقال: هذا بيت أبيك، فدونك هو. فاستأذن إبراهيم وقال: أَدْخُل؟ قال تارح: أُدخُل. فلمّا دخل نظر إليه فعجب من حسنه وجماله، وقامت أمّه مسرعة إليه

---

(١) انفشت: انتشرت وتبعثرت.

(٢) السندس: نوعٌ من رقيق الحرير.

واعتنقتْه وقالت: ولدي وعزّةِ نمروذ. فقال لها: لا تحلفي بعزّة نمروذ، فإن العزة لله الّذي خلقني في بطنك وأخرجني منك، وكلأني[1] وربّاني وهداني.

فارتعد تارَح من كلامه وقال لأمّه: أخشى أن تزول عنّي هذه المنزلة بسببه.

ونظر إليه وقال: ما أحسنك! فلولا ما وقع في قلبي من محبّتك لرفعتُ خبرك إلى نمروذ.

ثم بكى تارح خوفًا عليه أن يقتل، فقال له: يا أبت لا تخف عليّ من القتل فإن الله يعصمني من نمروذ. فقال له: ألك رب غير نمروذ، وله مملكة الأرض شرقها وغربها، وله ثلاثمائة صنم؟ فقال إبراهيم: بل ربّي الله الّذي لا إلـٰه إلّا هو خالق السمٰوات والأرض وما بينهما لا شريك له.

وبلغ خبر إبراهيم بعضَ أقارب تارَح، فدخل عليه وقال: ما هذا الغلام الجميل؟ قال: هو ابني وُلد لي على كبر. قال: فما الّذي بلغك من قوله عن نمروذ وأصنامنا؟ قال تارَح: هو ما بلغكم، فكلّموه حتى يعود إلى ديننا. فحاجّه قومه وخوّفوه بعذاب نمروذ، وهو يجادلهم ويحتج عليهم، ويذكر عظمة ربّه حتى عجزوا عنه فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ [الأنعَام: الآيات ٨٠ ـ ٨٣].

فانصرفوا عنه، وخاف تارح أن يسعوا به وبولده إلى نمروذ، فقال: يا إبراهيم كفّ عن هذا الكلام حتى أستخلفك على خزانة الأصنام فقد كَبرتُ. فقال: يا أبت، إنّ المعبود هو الله، والأصنام لا تضرّ ولا تنفع.

فغضب تارح وأقبل على نمروذ، فسجد له، وقال: إن المولود الذي كنت تحذره هو ولدي، ولم يولد في داري، ولا أعلم به حتى الآن، وقد جاءني وهو غلام يعقل ويفهم، ويزعم أن له ربًا سواك، وقد أعلمتك فاصنع ما أنت صانع.

فلمّا سمع نمروذ ذلك داخله الرعب وقال: صفه. فوصفه. قال نمروذ: هو الّذي رأيته في منامي. وقال لأعوانه: ائتوني به. فأتوه به، فردّد النظر إليه وقال: احبسوه إلى غد؛ فلمّا أصبح أحضره وقد أمر بتزيين قصره بأعظم زينة، وهوّل عليه بجنوده وأصنافِ السلاح؛ فالتفت إبراهيم إلى الناس يمينًا وشمالًا وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٣]؟ فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ

---

(١) كلأه الله: حفظه ورعاه.

مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٦٩ ـ ٧٧]، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٧٨ ـ ٨٥]، ثم التفت وقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٨٦ ـ ٩١].

فلمّا فرغ من كلامه قال له نمروذ، يا إبراهيم، تقع في ديني وأنا الّذي خلقتك ورزقتك؟ قال: كذبتَ، إنّ خالقي ورازقي وخالقَ الخلق ورازقَهم، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحَشر: الآية ٢٢] فبُهِت الناس[1]، ووقعت في قلوبهم محبّته لحُسنه وحُسن كلامه؛ فالتفت نمروذ إلى تارح وقال: إنّ ولدك صغير لا يدري ما يقول ولا يجوز لمِثلي في قدرتي وعظَم مملكتي أن أعجّل عليه؛ فخذه إليك، وأحسن إليه وحذّره بأسي حتى يرجع عما هو فيه.

فأخذه تارح وانصرف إلى منزله، وقال: يا بنيّ، إنّ لي عليك حقًّا، وأسألك بحقّي عليك أن تلازمني في عملي وبيعِ هذه الأصنام كما يفعل إخوتك. قال: كيف أبيع ما أبغضه؟ قال: ما عليك أن تبيعها؟ وأخرج له صنمين صغيرًا وكبيرًا، وقال: بع هذا بكذا، وهذا بكذا. قال: يا أبت أنت تعبد هذه الأصنام على أنّها ترزقك وهي الّتي خلقتك؟ قال: نعم. فقال له ما أخبرنا الله به في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريَم: الآيات ٤١ - ٤٥] فغضب تارح من قوله وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٤٦]، قال إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٤٧].

وقال: وكان إبراهيم يخرج ومعه غلامان ومَعهما صنمان، فيقول: من يشتري ما لا يضر ولا ينفع ولا يدفع الذّباب عن نفسه؛ وكان يغمسهما في الماء ويقول: اشربا. ويشدّ الحبل في أرجلهما ويجرّهما، والناس يُعظِمون ذلك ولا يجسرون يكلّمونه لمكان أبيه من نمروذ.

---

(١) بهت الناس: دهشوا وأخذوا بالحجّة والبيّنة.

ذكر معجزة لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

قال: وبينما إبراهيم قاعد إذ جاءته امرأة عجوز، فقالت: بعني أحد هذين الصنمين، واختر لي أجودهما. فقال: هذا أكثر حطبًا من هذا. قالت: لست أريده للوقود: وإنّما أريد أن أعبده، فقد كان لي إلـٰه سُرِق في جملة ثياب كثيرة لي، وأنا أريد أن أشتري هذا الصنم فأعبدَه حتى يردّ عليّ رحلي[1]. قال لها إبراهيم: إن الإلـٰه الّذي يُسرَق لو كان إلـٰهًا لحفظ الثياب وحفظ نفسه، فكم لك تعبدينه؟ قالت: كنت أعبده ونمروذَ منذ كذا وكذا سنة. قال: بئس ما صنعتِ، هلا عبدتِ ربّ السمٰوات والأرض حتى يردّ عليك ما سُرِق منك، فإن عاد مالك تؤمنين؟ قالت: نعم.

فدعا إبراهيم ربّه فإذا بالمسروق بين يديه قد جاء به جبريل؛ فقال لها إبراهيم: هذا رحلك. فأخذته العجوز وكسرت الصنم، وقالت تَبًّا[2] لك ولمن عبدك دون الله. وآمنت، وجعلت تطوف في المدينة وتقول: يا أيها الناس اعبدوا الله الّذي خلقكم ورزقكم، وذروا ما كنتم عليه من عبادة الأصنام.

فبلغ خبرها نمروذ، فأحضرها وأمر بقطع يديها ورجليها وفَقْءِ عينيها؛ فاجتمع إبراهيم والناس لينظروا إليها ـ وهو إذ ذاك لم يبلغ الحُلُم ـ فدعا لها بالصبر وقال: إلـٰهي إنّك قد هديتها، أسألك أن تجعلها آية. فردّ الله عينيها ويديها ورجليها وارتفعت في الهواء وهي تنادي: ويلك يا نمروذ، أنا الّذي قد فعلتَ بي ما فعلت ها أنا أرقى إلى الجنان.

وكان لنمروذَ خازن[3] يقال له: بهرام، فقام وقال: آمنتُ أيّتها المرأة بالذي خصّك بهذه الكرامة، وآمن في ذلك اليوم خلق كثير من وجوه القوم؛ فأمر نُمروذُ فنُشِروا بالمناشير وألقُوا للأسود فلم تأكلهم؛ وارتجّت المدينة بزلزلة عظيمة وترادفتْ[4] معجزات إبراهيم عليه السلام.

ذكر مبعث إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: فلما تمّ لإبراهيم أربعون سنة، جاءه جبريل بالوحي من الله، وأرسله إلى نمروذ، فأقبل إبراهيم ووقف على باب نمروذ ونادى بأعلى صوته: يا قوم، قولوا:

---

(١) الرّحل: المتاع. (٢) تبًا: دعاء بالهلاك والخسران.

(٣) في كتاب الكسائي المنقول عنه هذا الكلام «ولد».

(٤) ترادفت: تتابعت وتتالت.

«لا إلـه إلّا الله وإنّي إبراهيم رسول الله». فانتشر الصوت على جميعهم؛ فأحضر نمروذُ الوزراء والبطارقة، وأجلسهم في مجالسهم، وأقام جنوده، وأحضر الأسود والفِيَلة بسلاسلها، وأقيمت صفوفًا عن يمين الدار ويسارها؛ وأمر بدخول إبراهيم؛ فدخل وقال: «باسم الله العظيم» فلمّا توسّط الدار قال بصوت رفيع: يا قوم قولوا: «لا إلـه إلّا الله خالق كلّ شيء».

ثم تقدّم إلى نمروذ؛ فقال له بعض وزرائه: من أنت؟ قال: أنا إبراهيمُ بن تارَح رسولُ رب العالمين، أدعوكم إلى عبادته. قال له: من ربّك؟ قال: الذي خلق الناس جميعًا. قال نمروذ: إنّ مُلكي أعظم من مُلكه. قال إبراهيم: المُلك والسلطان لله رب العالمين. قال: لقد تجرّأت عليّ يا إبراهيم، وأنت تعلم أنّي خلقتك ورزقتك.

فاضطرب سرير نمروذ، وقال إبراهيم: كذبت يا نمروذ، إنّ الله هو الّذي خلقك وخلق الناس أجمعين، ورزقك ورزقهم، وأنت تكفر بنعمته وقد رأيت بعض الآيات؟ قال: هات غير ذلك. فوصف إبراهيم قدرة الله. قال نمروذ: فما الّذي يفعل من قدرته؟ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٨]، قال نمروذ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٨]. قال: كيف تفعل؟ قال: أخرج من الحبس من قد وجب عليه القتل فأطلقه، وأقتل الّذي لم يَجِبْ عليه.

قال إبراهيم: إنّ ربّي لا يفعل كذلك، بل الميّت يحييه، والحيّ يميته من غير قتل، ولكن يا نمروذ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٨].

ذكر سؤال إبراهيم ـ عليه السلام ـ في إحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠].

قال: فأخذ ديكًا أبيض وغرابًا أسود وحمامة خضراءَ وطاووسًا، وقطع رؤوسها، وخَلَط الدم بالدم والريش بالريش؛ ثم جزّأها أجزاءً متساوية، وجعل على كلّ جبل منهنّ جزءًا، وجعل رؤوسها بين أصابعه؛ ثم دعاها، فانضمّ كلّ جزء إلى بعضه، وخرجت الرؤوس من بين أصابع إبراهيم، فصار كل رأس إلى بدنه.

قال: والتفت إبراهيم إلى نمروذ وقال: كيف ترى قدرة إلٰهي؟ قال: ليس هذا ببديع[١] من سحرك. وأمر به فقيّد وغُلّت يده، وأدخل المطبق تحت الأرض وفيه الحيّات والعقارب فلم يضرّه ذلك.

وجاءه جبريل فبشّره عن الله بالنصر، وألبسه حلّة[٢] خضراء، وفرش له فرشًا من السندس، وأتاه بطعام فأكل وقال له: اصبر كما صبر الأنبياء من قبلك.

ذكر آية لإبراهيم - عليه السلام -

قال: وكان إبراهيم يسلّي أهل السجن، ويذكّرهم بالجنّة والنار؛ فقام إليه رجل وقال: يا إبراهيم، أنا من ملوك العرب، وأنا ابن مَلِكهم، وكنّا أربع إخوة فغضب الملِك علينا فحبسني هٰهنا، وحبس الآخر بالمشرق، والآخر بالمغرب والرابعَ باليمن، فهل يقدر ربّك أن يجمع بيننا؟ قال: نعم. ودعا إبراهيم ربّه، فإذا بالأخوين وقد انقضّا من المشرق والمغرب. فبلغ ذلك نمروذ، فأحضرهم وقال: مَن جمع بينكم؟ قالوا: إلٰهُنا بدعاء إبراهيم. فأحضرَ إبراهيم وقال: ائتنا بالأخ الرابع من اليمن. فقال: إنّه قد مات ودفن. فقال نمروذ: ادع ربّك حتّى يأتينا بقبره.

فدعا إبراهيم، فأمر الله المَلَك الموكّل بالأرض أن يخترق بالقبر إلى إبراهيم؛ فخرج القبر من تحت الأرض إلى دار نمروذ، فقال إبراهيم للثلاثة: هذا قبر أخيكم. فقالوا: أيُّها الملك، إن كان حقًّا ما يقول فليدع ربّه ليحييه وينظر إليه ويكلّمه.

فصلّى إبراهيم ركعتين، وسأل الله أن يحييه؛ فانشق القبر، وخرج الرجل منه وهو يشتعل نارًا ويقول: هذا جزاء من عبد الأصنام ورغِب عن دين الله.

فقام بهرام الخازن ونزع ما كان عليه من لباس نمروذ، وآمن بالله وبإبراهيم. فقال له نمروذ: لقد عملَ سحرُه فيك. وأمر بهم نمروذ فشُدّت أيديهم وأرجلهم ووُضعت عليهم أساطين[٣]، فلم يؤلمهم ثقلها؛ فبُهِت نمروذ ثم قال: عودوا لطاعتي فأنا الذي خففت عنكم ثقل هذه. فقال خازنه: قم حتى نضع عليك واحدة منها وخفّفها عن نفسها.

(١) ليس هذا ببديع من سحرك: أي بغريب، وبدع الشيء أبدعه: أنشأه من غير أن يكون له مثال.
(٢) الحلّة: الثوب الجيد الجديد.
(٣) الأساطين: جمع أسطوانة وهي السّارية والعمود.

فغضب نمروذ وأحرقهم بالنار حتى صاروا رمادًا؛ فردّ الله عليهم أرواحهم فقاموا على أرجلهم يقرّون بعظمة الله؛ فعجب الناس، ولم يدر نمروذ ما يفعل؛ فأمر بهم فأُلقوا في الحبس بين حيّات وعقارب، فبقوا فيه أربعين يومًا، ولم يطعموا شيئًا؛ فجاءت أمّ إبراهيم إلى نمروذ وسألته في إطلاقه، فأمر بإخراجه هو ومن آمن به، وفي ظنّه أنّهم قد ماتوا؛ فأخرجهم فإذا هم في أحسن صورة؛ فعجب وقال: يا إبراهيم، من أطعمك وسقاك؟ قال: ربّي أطعمني وسقاني، فآمِنْ به يا نمروذ، فقد رأيت آياته وعظمتَه.

فغضب نمروذ ثم أقبل على تارح وقال له: قد كنت أتخوّف من ابنك، لأنّي كنت أظنّ له شوكة من الجنود، والآن فليس عنده إلّا السحر، وقد وهبته لك. فأخذه أبوه وأخرجه من دار نمروذ، وقال له: يا بنيّ، امشِ حتى أدخلك على هذه الأصنام لعلّك تميل إليها. فقال إبراهيم: سوءة لك أيّها الشيخ. ثم قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصّافات: الآية ٩٥]؟ ثم قال: يا قوم قولوا: لا إلـه إلّا الله وإنّي إبراهيم رسول الله تُفلحوا. فكذّبوه، فقال له أبوه: يا بنيّ ما تخشى سطوة الملِك؟ فقال: يا أبت إنّ الله يعصمني من مكايده.

قال: ثم ابتلاهم الله عزّ وجلّ بالقحط، وقلّت عندهم الأقوات؛ وكان بظاهر المدينة كثيب من الرمل[1]، فتعبّد إبراهيم فيه، ودعا ربّه أن يحوّله طعامًا. فحوّله الله، فكان المؤمنون ينالون منه ما يريدون، والكفّار يسجدون لنمروذ ويأخذون منه القوتَ.

وكان قد جمع الأقوات في سراديب عنده، فأطعمهم حتى نفد أكثرها ولم يبقَ إلّا قوتُ أهله وعشيرته؛ فشرع الناس يؤمنون ويزيدون في كل يوم؛ فشقّ ذلك على نمروذ، وطلب إبراهيم وقال له: اخرج من بلدي فقد أفسدتَ قومي بسحرك. فقال إبراهيم: لِمَ أخرج وأنا أحقّ منك؟ وخرج من عنده فأحضر نمروذ تارح وقال له: إن ابنك قد آذاني في أهل مملكتي، ولولا منزلتك عندي لبطشت به. فقال: إنّني قد هجرته، ولست راضيًا بصنعه، فافعل به ما بدا لك.

ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه في النار

قال كعب: وكان لأهل كُوثًا رَبًّا عيد يخرجون إليه في كلّ سنة، فيتعبّدون هناك أيّامًا؛ وكان بعيدًا من البلد؛ فلمّا حضر ذلك العيد قال تارح لإبراهيم: أُخرج معنا إلى

---

(١) الكثيب: التلّ.

عيدنا. ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٨٩]، يعني لعبادتكم الأصنام، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٩٠] إلى عيدهم، ولم يبق في بلدهم إلّا الصّغار والهَرِمون.

فقام إبراهيم ودخل بيت الأصنام ـ وكان القوم قد وضعوا الطعام بين أيديها ـ ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصَّافات: الآيتان ٩١، ٩٢] استهزاء بهم؛ وكانت في جانب البيت فأس، فأخذها وكسر بها هذا الصنم، وكسر يد هذا الصنم ورجلَ هذا ورأسَ هذا. قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٩٣] وترك كبيرهم كما أخبر الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٥٨] ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر ورجع إلى منزله.

وأقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم، فرأوا أصنامهم على ذلك؛ فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٥٩، ٦٠] وبلغ الخبر نمروذ. قال: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦١] يعني عذابه. فلمّا أتوا به ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٦٢، ٦٣]، قال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٦٤، ٦٥]، فصاحوا من كلّ ناحية: أفتأمرنا بذلك وأنت تعلم أنّها لا تسمع ولا تبصر. فقال إبراهيم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٦٦، ٦٧]، فقال القوم لنمروذ ما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٨].

وكان لنمروذ تنّور من حديد يُحرق فيه من غضب عليه، فأَمر به فأسجِر[1] فطَرَح إبراهيم فيه، فلم تضرَّه النار بقدرة الله؛ فلمّا رأى نمروذ ذلك جَمَع أهل مملكته واستشارهم، فأشاروا أن يحبسه ويجمعَ له الحطب الكثير، ويُضرِمَ فيه النار، ثم يلقيَه فيه إذا صار جمرًا. وقالوا: إنّه لا يَقدر يسحر النار الكبيرة، ولا يعمل سحرُه فيها.

فعند ذلك حبَسَه وأمر بجمع الأحطاب؛ فيقال: إنّ الدوابّ امتنعتْ من حملها إلّا البغال، فأَعقمها الله عقوبة لذلك؛ فجمعوا من الأحطاب ما لا يُحْصَى كثرة؛ وأَمَر

(١) أسجر: أشعل وأضرمت به النّار.

أن تُحْفَر حَفيرةٌ واسعة، وبنى حولها حائطًا عاليًا، وألقى فيها تلك الأحطاب وأضرم فيها النار والنَّفْط ثلاثة أيّام، فكان لهبها يصيب الطائر في الجوّ فيُحْرَق.

قال: وهمّوا بطرح إبراهيم فيها، فلم يقدروا يقربوا منها.

فيقال: إنّ إبليس أتاهم في صورة شيخ، وصنع لهم المنجنيق[1]، ولم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، ووضعوا إبراهيم في كفّة المنجنيق، ورمَوا به وهو يدعو الله أن ينصره عليهم؛ فعارضه جبريل وهو في الهواء، وقال له: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أمّا إليك فلا، بل حسبي الله ونعم الوكيل.

فلمّا قرب من النار قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَمًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: الآية ٦٩].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لو لم يقل ﴿وَسَلَمًا﴾ لمات إبراهيم من شدّة البرد.

فبرد حرُّها واخضرّت الأشجار التي احترقت ورَسَتْ بعروقها.

فلمّا أصبح نمروذ جلس في مكان مُشرِف ينظر إلى ما أصاب إبراهيم من النار؛ فكشِف عن بصره فإذا هو برجل في وسطها على سرير، عليه ثياب خضر وإلى جنبه رجل آخر؛ وخلقٌ كثير وقوفٌ من ورائهما؛ فدعا بصاحب المنجنيق وقال له: كم ألقيتَ في النار؟ قال: إبراهيم وحده. فعجب وعجبت الناس وقال: اذهبوا وانظروا مَن القاعد على السرير ومن إلى جنبه وحولَه. فأتوا فإذا هم بإبراهيم على أحسن صورة، فأخبروا نمروذ، فقال: ائتوني به. فقالوا: لا نستطيع الوصول إليه لحرّ النار. فنادَوه: يا إبراهيم، أُخرج إلينا. فخرج إلى نمروذ وقال له: ما أعجب سحرك يا إبراهيم! قال: ليس هذا بسحر، وإنما هو من قدرة الله تعالى. قال: فمن الّذي عن يمينك؟ قال: ملَك جاءني من عند ربّي بشّرني أنّ الله اتّخذني خليلاً[2]. فقال نمروذ: لأصعدنّ إلى السماء وأقتل إلٰهك.

ذكر خبر صعود نمروذ إلى السماء على زعمه

قال: وأمر نمروذ أن يُتّخذ له تابوت مربّع، ويكونَ له بابان: باب إلى السماء وباب إلى الأرض، وجَوَّع أربعة نسور، وسَمَّرَ أربعة رماح في أركان التابوت، وعلّق

(١) المنجنيق: آلة حربية من آلات الحصار ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف.
(٢) الخليل: الصديق الخالص والصاحب.

اللحمَ في أعلاها، وشدّ النسور بأوساطها إلى الرماح، وجلس في التابوت ومعه وزيره، وحمل معه قوسًا ونُشّابًا[١]، وأطبق البابين، فرفعت النسور رؤوسها فنظرتْ إلى اللّحم، فطارت صاعدة، وارتفعت في الهواء؛ فقال لوزيره: افتح الباب الذي يلي الأرض وانظر كيف هي؟ قال: أراها كأنّها قرية. قال: فانظر إلى السماء. فقال: هي كما رأيناها ونحن في الأرض. ولم يزل يصعد حتى قال: أما الدنيا فلا أراها إلا سوادًا ودخانًا، والسماء كما رأيناها.

وارتفعت النسور حتى كادت تسقط إلى الأرض؛ فعارضه[٢] ملَك وقال: ويلك يا نمروذ؛ إلى أين؟ قال: أريد محاربة إلـه إبراهيم. قال: ويحك، إنّ بينك وبين سماء الدنيا خمسَمائة عام، ومن فوق ذلك ما لا يعلمه إلّا الله. فخرّ الوزير ميتًا؛ فأخذ نمروذ القوس ووضع فيه السهم، وقال: أنا لك يا إلـه إبراهيم، ورمَى بالسهم إلى الهواء، فيقال: إنّ ذلك السهم عاد إليه ملطّخًا بالدم بإذن الله.

وأمر الله جبريل أن يضرب التابوت بجناحه، فيلقيَه في البحر؛ فضربه فمرّ يَهوِي به حتى ألقاه في البحر؛ وأمر الله الأمواج أن تلقيه إلى الساحل؛ فلمّا وصل إلى البرّ خرج وقد ابيضّت لحيته لِما عاين[٣] من الأهوال، وتوصّل من بلد إلى بلد حتى أتى المدينة، فدخل منزله ليلًا فأنكره الناس لشيبه، ثم عرفوه؛ وجاءه إبراهيم فقال: كيف رأيتَ قدرة ربّي؟ قال: قد قتلتُ ربّك. قال: إنّ ربّي أعظم من ذلك، ولكن هل لك قوّة ـ مع كثرة جنودك ـ أن تقاتلني؟ قال: نعم.

ذكر خبر إرسال البعوض على نمروذ وقومه

قال: وأمر نمروذ جنوده فاجتمعوا لحرب إبراهيم وهم لا يُحصَون كثرة؛ وخرج إبراهيم في سبعين من قومه الذين آمنوا في الصحراء؛ فأرسل الله عليهم البعوض حتى امتلأت منه الدنيا، ولدغت جيش نمروذ؛ فمات من لدغها خلق كثير، والتجأ الباقون إلى الدُور، وأغلقوا الأبواب وأسبلوا[٤] الستور؛ فلم تُغن عنهم شيئًا؛ وانفرد نمروذ عن جيشه، ودخل منزله وأُغلِقت الأبواب، وأرخِيت الستور، واستلقى على سريره، فجاءت بعوضة فقعدتْ على لحيته، فهمّ بقتلها، فدخلت منخره وصعدت إلى دماغه؛ فعذّبه الله بها أربعين يومًا لا ينام ولا يَطعم؛ ثم شَقّت رأسه وخرجت في كبَر الفرخ، فمات.

---

(١) النشّاب: السهام.

(٢) عارضه: اعترضه في الأفق.

(٣) عاين: شاهد.

(٤) أسبلوا السّتور: أسدلوها.

وقيل: إنّه اتخذ إرْزَبّةً[١] من حديد، فكان صديقه الّذي يضرب بها رأسه فانفلق رأسُه بضربة فخرجتْ كالفرخ وهي تقول: هكذا يهلك الله أعداءه، وينصر أنبياءه، ويسلّط رُسُله على من يشاء.

وأرسل الله الزلازل على المدينة، فخُرِّبت.

قال: وجاء لوط وهو ابن أخي إبراهيم، وآمن به، وآمنت سارة، فتزوّج بها إبراهيم.

ذكر هجرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: وجمع إبراهيم أصحابه الّذين آمنوا به، وسار يريد الشأم، فجاء إلى (حَرّانَ)[٢] فأقام بها مدّة من عمره، وترك بها طائفة من المؤمنين، وسار حتى أتى الأرْدُنّ وكان اسم مَلِكها صادوق، فمرّ به وهو في منظرة[٣] له، فنظر إلى سارّة مع إبراهيم فأحضرهما، وقال لإبراهيم: من أنت؟ قال: أنا خليل الله إبراهيم. وذكر له ما كان من أمر نمروذ. فقال له: مَن هذه؟ قال: هي أختي. فقال: زوِّجنيها. قال: هي أعلم بنفسها منّي، وإنّها لا تحلّ لك. فاغتصبها منه، وقام إلى مجلس آخر وأمر بحملها إليه. فدعا إبراهيم الله تعالى، فارتجّ المجلس بالمَلِك، ويَبِست يده فقال لسارّة: ألا ترين ما أنا فيه؟ قالت: لأنّك أغضبتَ خليل الله.

قال: فتضرّع إلى إبراهيم؛ فسأل اللهَ في ردّ يده عليه؛ فأوحى الله إليه: لا أطلقه دون أن أخرِجه من مُلكه ويُسلِم؛ فأسلَم وخرج عن المُلك، ووهب سارّة هاجرَ، وهي أمّ إسماعيل.

قال وارتحل إبراهيم حتى أتى الأرض المقدّسة فنزلها.

وقد روينا هذه القصة بسندنا إلى البخاريّ رحمه الله.

وسنذكر الحديث ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار طرطيس أحد الملوك بمصر، فقد ورد أنه صاحب القصة؛ والله أعلم.

---

(١) الإرزبّة: المطرقة الكبيرة التي تكسر بها الحجارة.

(٢) حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مُضر بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشّام والروم، وقيل: إنّها أوّل مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وقيل: سمّيت بها راق أخي إبراهيم عليه السّلام لأنه أوّل من بناها فعرّبت فقيل: حرّان «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

(٣) المنظرة: موضع الرؤية أو موضع المراقبة.

ذكر خبر ميلاد إسماعيل - عليه السلام - ومقامه وأمّه في البيت المحرّم

قال: وأقام إبراهيم بالأرض المقدّسة ما شاء الله أن يقيم حتى كبرت سارّة وأيست من الولد، فخافت من انقطاع نسل إبراهيم عليه السلام فوهبته هاجر فقَبِلها، وواقعها، فحملت بإسماعيل، ووضعته كالقمر وفي وجهه نور نبيّنا محمد ﷺ؛ فأحبّته سارّة حتى بلغ من عمره سبع سنين، فداخلت الغيرة سارّة، ولم تُطق أن ترى إبراهيم مع هاجر، فقالت: يا نبيّ الله، إني لا أحبّ أن تكون هاجر معي في الدار، فحوّلها حيث شئت.

فأوحى الله إليه أن انقلها إلى الحرم؛ وجاءه جبريل بفرس من الجنة، فقال له: يا إبراهيم، احمل هاجر وإسماعيل على هذا الفرس. فأركب إبراهيم هاجرَ وإسماعيلَ من ورائها، وسار بهما حتى بلغ الحرم.

فأوحى الله إليه أن انزل بهما هٰهنا. فأنزلهما بالقرب من البيت، وهو يومئذٍ أكمة حمراء كالربوة من تخريب الطوفان. ثم قال إبراهيم لهاجر: كوني هٰهنا مع ولدك فإني راجع، فبذلك أمرني ربّي. فلما أراد إبراهيم أن ينصرف قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧].

ثم رجع وتركهما هناك ولا ثالث لهما إلّا الله تعالى.

فلما علا النهار، واشتدّ الحرّ، ونفد ما معهما من الماء، قامت هاجر تعدو يمينًا وشمالًا في طلب الماء فلم تجده؛ فعادت إلى إسماعيل فرأته يبحث بأصابعه في موضع بئر زمزم[1] وقد نبع الماء؛ فسجدت لله، وأخذت تجمع الحصا حول العين لئلّا ينتشر الماء وهي تقول: زُمَّ زُمَّ يا مبارك.

فناداها جبريل: لا تخافي وأبشري، فإن الله سيعمر هذا المكان.

قال وهب: لولا أن هاجر جمعت الحصا حول الماء لتمّت العين نهرًا جاريًا على وجه الأرض إلى يوم القيامة.

---

(١) بئر زمزم: هي البئر المباركة المشهورة قيل: سمّيت زمزم لكثرة مائها، وقيل: سمّيت بضمّ هاجر أم إسماعيل عليه السّلام لمائها حين انفجرت وزمّها إيّاه، قال ابن عبّاس: لو تركت لساحت على الأرض حتى تملأ كل شيء «معجم البلدان ٣/ ١٤٧».

قال: وأقبل ركب من اليمن يريدون الشأم، وطريقُهم على الحرم، فرأوا الطير تهوي إلى الأرض، فقالوا: إن الطير لا تنقض إلّا على الماء والعمارة.

وأقبلوا فرأوا هاجر وإسماعيل والعين؛ فسألوها، فقالت: أنا جارية خليل الله إبراهيم وهذا ابنه، خلّفنا وانصرف إلى الشأم.

فاستأذنوها في الماء؛ فأذنت لهم. ثم قالوا: هل أحد ينازعك[١] على هذا الماء؟ قالت: لا، فإنّ الله أخرجه لي ولولدي. قالوا: إن حضرنا بأهالينا وسكنّا في جواركم هل تمنعيننا من هذا الماء؟ قالت: لا، فإنه لله يشربه خلق الله.

فرجعوا إلى بلدهم، واحتملوا[٢] أهاليّهم وأتوا الحرم بها وبمواشيهم، فصاروا لهما أنسًا.

ونشأ إسماعيل حتى بلغ مبلغ الرجال، فكان يخرج إلى الصيد معهم ويرجع وماتت أمه هاجر، وتزوّج إسماعيل منهم، وبلغ إبراهيمَ خبرُ موت هاجر، فاشتاق إلى إسماعيل، فاستأذن سارّة في ذلك، فأذنت له، فجاءه جبريل بفرس فركبه وسار حتى وقف على بيت ولده إسماعيل بالحرم، فقال: السلام عليكم يا أهل المنزل. فقالت له المرأة: إن صاحب البيت غائب. فقال إبراهيم: إذا رجع فقولي له: ابدِلْ عتبة[٣] دارك، فإنّي لا أرضاها لك. وانصرف إلى الشأم.

فلما عاد إسماعيل أخبرته بالخبر، فقال: صفيه لي. فوصفته؛ فقال: الحقي بأهلك. فجاء أهلُها وقالوا: ما الذي كرهت منها؟ قال: لأنها لم تعرف لخليل الله قدرًا.

ثم تزوّج امرأة من جُرْهُم[٤]، فأولدها إسماعيل ستّة أبطن، فاشتاق إبراهيم إلى ولده، فجاءه جبريل بفرس فركبه وساء إلى الحرم، وقد عمر ذلك المكان بجرهم؛ فوقف على باب إسماعيل وقال: السلام عليكم يا أهل المنزل. فبادرت المرأة وسلّمت عليه، وقالت: فدتك نفسي، إن صاحب المنزل غائب، وإنه يعود عن قريب. قال: هل عندك طعام؟ قالت: نعم، عندنا خير كثير. وجاءته بطبق عليه لحم

(١) ينازعك: يخاصمك. (٢) احتملوا أهاليهم: أي جاؤوا بهم.

(٣) العتبة: خشبة الباب أو بلاطته، والمراد بها هنا «الزوجة».

(٤) جرهم: قبيلة من القحطانية، وهم بنو جرهم من قحطان، كانت منازلهم اليمن، وقد نزلوا الحجاز لقحطٍ أصابهم، وتزوّج إسماعيل عليه السّلام منهم «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: ١٩٦».

مشويّ من الصيد، وقدح فيه ماء. قال: فهل غير هذا من حب أو زبيب! قالت: يا عمّاه، ما هذا طعام بلدنا، ولكنّه يُجلب إلينا، فأنزل بنا وتناول طعامنا. قال: إنّي صائم، ولكن عليّ ذَرْق[1] الطير فاغسليه. وحوّل قدمه عن الفرس، ووضعه على المقام؛ فغسلته[2]، فقال: إذا جاء زوجك فسلّمي عليه وقولي له: الزم عتبة بابكَ فقد رضيتها لك. وانصرف.

فلما رجع إسماعيل من الصيد أخبرتْه الخبر فقال: لقد كنتِ كريمة عليّ وقد صرت الآن أكرمَ بإكرامك أبي خليل الله إبراهيم.

ثم اشتاق إبراهيم إلى ولده ثالثًا، وذلك بعد ثلاث وعشرين يومًا، فجاء إليه ولقيه، وأمره الله أن يبني البيت، فبناه؛ وأتاه جبريل فعلّمه مناسك الحجّ[3].

وقد تقدّم ذِكر ذلك مبيّنًا في الباب الثاني من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو في السفر الأوّل من كتابنا هذا، فلا حاجة لنا في إعادته.

قال: ورجع إبراهيم إلى البيت المقدّس، وأوحى الله إليه أن يرسل لوطًا نبيًا إلى سَذُوم؛ فأرسله.

وكان من أمره ما نذكره في أخباره في الباب الّذي يلي هذا الباب ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحٰق ـ عليهما السلام ـ

قال: وبعث الله الملائكة إلى إبراهيم حين أرسلهم بالعذاب على قوم لوط وأمرهم أن يبشّروه بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب؛ فأتوه على صورة البشر وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ودرديائيل.

قال: فأتوه مفاجأة على خيولهم، ودخلوا عليه منزله ففزع منهم، حتى قالوا: ﴿سَلَٰمًا﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٥]. فسكن خوفه، وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٥] ورحّب بهم وأجلسهم وقام إلى زوجته سارّة وأمرها بخدمتهم؛ فقالت: عهدي بك وأنت أغير الناس. قال: هو كما تقولين، وإنّما هؤلاء أضياف أخيار. ثم قام إلى عِجل سمين فذبحه وشواه، وقرّبه إليهم، ووقفت سارّة لخدمتهم، فجعل إبراهيم يأكل

---

(١) ذرق الطّير: روثه.
(٢) في كتاب الكسائي: فغسلت رأسه.
(٣) مناسك الحج: شعائره وعباداته.

ولا ينظر إليهم وهو يظنّ أنهم يأكلون؛ فرأت سارّة أنّهم لا يأكلون؛ فنبّهته على ذلك، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصّافات: الآية ٩١]؟ وداخله الخوف من ذلك، ثم قال: لو علمت أنّكم لا تأكلون ما قطعت العجل عن البقرة.

فمدّ جبريل يده نحو العجل، وقال: قم بإذن الله. فاشتدّ خوف إبراهيم وقال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: الآيات ٥٢ ـ ٥٦].

قال: وكانت سارّة واقفة هناك، فقالت: «أوّه» ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٩]، قال الله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هُود: الآية ٧١] أي حاضت، ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰٓ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هُود: الآيات ٧١ ـ ٧٣] ولم تعلم أنّهم ملائكة؛ فقال لها جبريل: يا سارّة، ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذّاريَات: الآية ٣٠]. قال إبراهيم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾ [الذّاريَات: الآيات ٣١ ـ ٣٣] ثم عاد جبريل إلى صورته، فعرفه إبراهيم، وعرّفه أنهم يقصدون قوم لوط بالعذاب؛ فاغتم إبراهيم شفقة على لوط وأهله، ثم قال: امضوا حيث تؤمَرون.

وكان من أمر قوم لوط ما نذكره.

قال: وحملت سارّة بإسحٰق في الليلة الّتي خسف الله فيها بقوم لوط، ووضعته وعلى وجهه نور أضاء منه ما حولها؛ فدخل إبراهيم وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٩] وربّته سارّة حتى بلغ سبع سنين.

ذكر خبر الذبيح وفدائه

قال: وكان إسحٰق يخرج مع أبيه إلى بيت المقدس، فبينما إبراهيم في مصلّاه إذ غلبته عينه فنام، فأتاه آت في منامه وقال: إن الله يأمرك أن تقرّب قربانًا. فلمّا أصبح عمد إلى ثور فذبحه وفرّق لحمه على المساكين، فلما كان الليل رأى في منامه الّذي أتاه وهو يقول: يا إبراهيم، إنّ الله يأمرك أن تقرّب له قربانًا أعظم من الثور. فلمّا انتبه ذبح جملًا وفرّق لحمه على المساكين. ثم رآه في الليلة الثالثة وهو يقول: إنّ الله يأمرك أن تقرّب قربانًا أعظم من الثور والجمل. قال إبراهيم: وما هو؟ فأشار

إلى ولده إسحٰق؛ فانتبه فزِعًا، وأقبل على إسحٰق وقال له: ألست تطيعني يا بنيّ؟ قال: بلى، ولو كان في ذبح نفسي.

فانصرف إبراهيم إلى منزله، وأخذ الشَّفْرة والحبل، فوضعهما في مِخلاتهُ وقال: يا إسحٰق، امض بنا إلى الجبل.

فلما مضيا أقبل إبليس إلى سارّة وقال لها: إنّ إبراهيم قد عزم على ذبح إسحٰق. فالحقيه وردّيه. قالت: ولِمَ يذبحه؟ قال: إنّه زعم أن ربّه أمره بذلك. قالت: إن كان الأمر كذلك فإنّه صواب إذا أراد رضى ربّه. وقالت: اللّهم اصرف نزغ[١] الشيطان. فولّى عنها هاربًا، وتبع إسحٰق فناداه: إنّ أباك يريد أن يذبحك. فقال إسحٰق لأبيه: يا أبت ألا تسمع إلى هذا الهاتف ما يقول؟ قال: يا بنيّ امض ولا تلتفت إليه، فسأخبرك.

فلما انتهيا إلى رأس الجبل قال إبراهيم: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٢].

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك؛ فنودي من السماء: أليس الله قد وصفك بالحلم فكيف لا ترحم هذا الطفل؟ قال: إن الله قد أمرني بذلك. فقال إسحٰق: يا أبت عجّل أمر ربّك قبل أن ينال منّا الشيطان.

فنزع إبراهيم قميصه وربطه بالحبل، وكبّه على جبينه وهو يقول: الحمد لله باسم الله الفعّال لما يريد. ووضع الشفرة على حلقه، فلمّا همّ بذبحه انقلبت الشفرة، فارتعدت يد إبراهيم، فقال له إسحٰق: يا أبت، حُدّ الشفرة، واصرف وجهك عنّي حتى لا ترحمني. قال: يا بنيّ، قد فعلتُ حتى لو قطعتُ بها المِجَنَّ[٢] لقطعتْه بحدّها.

ثم وضع إبراهيم الشفرة على حلقه ثانيًا، وهمّ بقطع أوداجه؛ فانقلبت؛ فقال إبراهيم: لا حول ولا قوّة إلا بالله. فقال: أصبت في قولك يا أبت ولكن حدّ شفرتك لتذبحني ذبحًا، ولا تجزع. فحدّ إبراهيم المدية حتى جعلها كالنار ووضعها على حلق إسحٰق، فسمع إبراهيم هدّة[٣] عظيمة ومناديًا يقول: يا إبراهيم خذ هذا

(١) نزغ الشيطان: وساوسه وما يدفع به الإنسان إلى الشرّ والمعصية.
(٢) المجنّ: التُّرس.
(٣) الهدّة: صوت شديدُ تسمعه من سقوط ركنٍ أو ناحية جبل، ويقال: الهدّة صوتٌ ما يقع من=

الكبش فاذبحه عن ابنك، فهو قربان عنه، وهذا اليوم جعل عيدًا لك ولولدك من بعدك.

فالتفت إبراهيم إلى الجبل، وإذا هو بكبش أملح[١] أقرن، قد انحدر من الجبل وهو يقول: خذني يا إبراهيم فاذبحني عن ابنك، فأنا أحق منه بالذبح، فأنا كبش هابيل بن آدم.

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك، وذبح الكبش؛ فأتت نار من السماء بغير دخان فأكلته حتى لم يبق إلّا رأسه؛ وانصرف إبراهيم وإسحٰق ورأس الكبش معهما إلى منزل إبراهيم، وأخبر سارّة بما جرى.

قال: ثم توفّيت سارّة بعد ذلك، وتزوّج إبراهيم بامرأة من الكنعانيين وأولَدها ستّة أولاد في ثلاثة أبطن.

وإبراهيم أوّل من صافح وعانق وفرق الشعر بالمُشط ونَتَف الإبط واستاك[٢] واكتحل واختَتَن[٣] بالقَدوم.

ذكر وفاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: فبينما إبراهيم على باب داره، وإذا هو بملَك الموت وقد وافاه في أحسن صورة؛ فسلّم عليه؛ فأجابه وقال: من أنت؟ قال: أنا ملَك الموت، أمرني الله يقبض رُوحك. فكره إبراهيم الموت؛ ثم تصوّر له في صورة شيخ كبير، ودخل على إبراهيم وقال: هل من طعام؟ فقُدّم إليه طعام على طبق، فجعل ملك الموت يتناول الطعام، ويخيَّل إلى إبراهيم أنه يلوّث وجهه وعنقه، وأنّه لا يستقرّ في بطنه. فقال له إبراهيم: أيّها الشيخ، ما بال هذا الطعام لا يستقرّ في بطنك؟ قال: يا خليل الله، إني قد شِخْت، ولستُ أتمكّن منه إلّا على هذا الوجه. قال: فكم تعدّ من السنين؟ قال: قد جزت مائتي سنة. قال إبراهيم: وأنا في المائتين إلّا سنة، وإذا مضى عليّ مائتين أصير كذا؟ [قال: نعم][٤].

= السماء.

(١) أملح: أسود يعلو شعره بياض.

(٢) استاك: أي استخدم السّواك في تنظيف الأسنان.

(٣) اختتن: من الختان وهو تطهير الولد الذّكر.

(٤) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للكسائي.

فدعا إبراهيم ربّه أن يقبضه. فجاءه ملك الموت؛ فقال: يا ملك الموت قد اشتقت إليك منذ رأيت ذلك الشيخ على تلك الصورة، فاقبض روحي. فقبض روحه ﷺ.

الباب الثاني
من القسم الثاني من الفن الخامس
في قصّة لوط ـ عليه السلام ـ وقلب المدائن

هو لوط بن هاران بن تارح، وتارح هو آزر أبو إبراهيم عليه السلام وكان لوط قد شخص[١] مع عمّه إبراهيم عليهما السلام من المدائن[٢] إلى أرض الشأم، مؤمنًا به، مهاجرًا معه، ومع إبراهيم تارح وسارّة بنتُ ماحور؛ فلمّا انتهوا إلى حرّان هلك تارح بها وهو باق على كفره؛ وسار إبراهيم ولوط وسارّة إلى الشأم؛ ثم مضوا إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة يقال له: سِنان بن علوان بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام؛ ورجعوا إلى أرض الشأم فنزل إبراهيم فلسطين، وأنزل لوطًا الأُرْدُنّ، فكان هناك إلى أن بعثه الله نبيًّا.

قال: وأوحى الله عزّ وجلّ إلى إبراهيم أن يرسل لوطًا نبيًّا إلى (سَذُوم)[٣]، وكانت خمسَ مدائن؛ وهي: (صامورا) (وصابورا) (وسَذُوم) (ودُومة) (وعامورا)[٤]، وهي المؤتفكات[٥]، وكان أعظمها (سَذُوم) وعلى كلّ مدينة سور عظيم مبنيّ بالحجارة والرّصاص، وعليهم ملك يقال له: (سَذُوم) من بيت نمروذ بن كنعان، وكان أهل هذه المدائن قد خُصّوا بحذف الحصا والحَبِق[٦] في المجالس وعبادةِ الأصنام، وكانوا حسان الوجوه، فأصابهم قحط، فأتاهم إبليس فقال: إنما أصابكم القحط لأنّكم منعتم الناس من دُوركم ولم تمنعوهم من بساتينكم. فقالوا: كيف

---

(١) شخص: حضر.

(٢) المدائن: اسم المدائن بالفارسية توسفون، وإنّما سمّتها العرب المدائن لأنها سبع مدن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة فلما ملك العرب ديار فارس واختطت الكوفة والبصرة انتقل إليهما الناس عن المدائن وسائر مدن العراق، وهي الآن بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين ستة فراسخ، وأهلها فلاحون «معجم البلدان ٥/ ٧٥».

(٣) سذّوم: فعول من السّدم، وهو النّدم، مدينة من مدائن قوم لوط «معجم البلدان ٣/ ٢٠٠».

(٤) عاموراء: وهي من قرى قوم لوط عليه السلام «معجم البلدان ٤/ ٧١».

(٥) المؤتفكات: من الإفك، وهو الإثم.

(٦) الحبق: الضراط.

السبيل إلى المنع؟ قال: اجعلوا السنّة بينكم إذا دخل بلدكم غريب سلبتموه ونكحتموه في دبره، فإذا فعلتم ذلك لم تقحطوا.

فخرجوا إلى ظاهر البلد فتصوّر لهم إبليس في صورة غلام أمرد، فنكحوه وسلبوه، فطاب لهم ذلك حتى صار فيهم عادةً مع الغرباء، وتعدّوا إلى أهل البلد، وفشا بينهم؛ فأرسل الله إليهم لوطًا، فبدأ بمدينة (سَذُوم) وبها الملك، فلما بلغ وسط السوق قال: يا قوم اتقوا الله وأطيعون وارجعوا عن هذه المعاصي التي لم تُسبقوا إليها، وانتهُوا عن عبادة الأصنام، فإنّي رسول الله إليكم.

فكان جوابهم أن قالوا: ﴿أَئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٩].

وبلغ الخبر الملِك، فقال: «ائْتُوني بِهِ» فلمّا وقف بين يديه سأله: من أين أقبل؟ ومن أرسله؟ ولماذا جاء؟ فأخبره أن الله أرسله. فوقع في قلبه الخوف والرعب، وقال: إنما أنا رجل من القوم، فادعهم فإن أجابوك فأنا منهم. فدعاهم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٦٧]. فقال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ١٦٨، ١٦٩].

فلبث فيهم عشرين سنة يدعوهم إلى الله وهم لا يجيبونه.

ثمّ توفيت امرأته، فتزوّج بامرأة من قومه كانت قد آمنت به، فأقام معها أعوامًا وهو يدعوهم حتى صار له فيهم أربعون سنة وهو يدعوهم بما أخبر الله به ويقول: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٠] الآيات، وهم لا يزدادون إلا كفرًا وإصرارًا وتماديًا على أفعالهم الذميمة، فضجّت الأرض منهم.

ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن

قد ذكرنا في قصّة إبراهيم أن الله عزّ وجلّ أرسل الملائكة إليه وبشّروه بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب، وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط، وقال لهم: امضوا حيث تؤمرون.

فاستوَوا[1] على خيولهم، وساروا إلى المدائن وهم على صفة البشَر، فأتوا المدائن وقت المساء، فرأتهم ابنة لوط ـ وهي الكبرى من بناته وهي تستقي الماء

(١) استووا: استقرّوا.

ـ فتقدّمت إليهم وقالت: ما لكم تدخلون على قوم فاسقين؟ ليس يضيفكم إلّا ذلك الشيخ. فعدلت الملائكة إلى لوط، فلما رآهم اغتمّ غمًّا شديدًا مخافةً عليهم من شرّ قومه، ثم قال لهم: من أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع بعيد، وقد حللنا بساحتك، فهل لك أن تضيفنا الليلة؟ قال: نعم، ولكن أخاف عليكم من هؤلاء الفاسقين عليهم لعنة الله قال جبريل لإسرافيل: هذه واحدة ـ وكان الله قد أمرهم ألّا يدمّروا على قومه إلّا بعد أربع شهادات من لوط ولعنته عليهم أقبلوا إليه وقالوا: يا لوط، قد أقبل علينا الليل، فاعمل على حسب ذلك. قال: قد أخبرتُكم بأنّ قومي يأتون الرجال من العالمين عليهم لعنة الله فقال جبريل لإسرافيل: هذه ثانية. ثم قال لهم لوط: انزلوا عن دوابّكم واجلسوا هٰهنا حتى يشتدّ الظلام، وتدخلون ولا يشعر بكم أحد منهم عليهم لعنة الله قال جبريل: هذه ثالثة. ثم مضى لوط والملائكة وراءه، فدخل المنزل، وأغلق الباب، وقال لامرأته: إنك قد عصيت الله أربعين سنة وهؤلاء ضِيفاني قد ملؤوا قلبي خوفًا، فاكتمي[1] عليّ أمرهم حتى يغفر الله لكِ ما مضى. قالت: نعم. ثم خرجت وبيدِها سراج كأنها تُشغَل، فطافت على عدّة من القوم، فأخبرتهم بجمالهم وحسنهم، فعلم لوط بذلك، فأغلق الباب وأوثقه؛ فأقبل الفُسّاق وقرعوا الباب، فناداهم لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾ [هُود: الآيتان ٧٨، ٧٩] ثم كسروا الباب، ودخلوا، فقالوا له: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٧٠].

فوقف لوط على الباب الذي دونه ضيفانه وقال: لا أسلِم ضِيفاني إليكم دون أن تذهب نفسي.

فتقدّم بعضهم ولطم وجهه، وأخذ بلحيته، ودفعوه عن الباب، فقال: أوّه ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٠]، ثم قال: إلٰهي خذ لي بحقّي من هؤلاء الفسقة والعنهم لعنًا كبيرًا. فقال جبريل عند ذلك: هذه أربعة. وقام جبريل ففتح الباب وقال للوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ﴾ [هُود: الآية ٨١] فهجم القوم. ودخلوا وبادروا نحو الملائكة، فطمس الله أعينهم، واسودّت وجوههم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القَمَر: الآية ٣٧] فجاءت طائفة أخرى ونادوهم: اخرجوا لندخل. فنادوا: يا قوم، هؤلاء قوم سحرة سحروا أعيننا

(١) اكتمي أمرهم: أي أخفيه عن قومي.

فأخرِجونا. فأخرجوهم، وقالوا: يا لوط، حتى نصبح نريك وبناتك. وخرجوا فقال لوط للملائكة: بماذا أرسلتم؟ فأخبروه، فقال: متى؟ قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هُود: الآية ٨١].

ثم قال له جبريل: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هُود: الآية ٨١] فجمع لوط أهله وبناته ومواشيه، وأخرجه جبريل من المدينة، وقال له: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٦٦] ومضى لوط بمن معه، وجبريل قد بسط جناح الغضب، وإسرافيل قد جمع أطراف المدن ودريائيل قد جعل جناحه تحت الأرض، وملك الموت قد تهيّأ لقبض أرواحهم حتى إذا برز عمود الصبح صاح جبريل صيحة: يا بئس صباحُ قوم كافرين. وقال ميكائيل: يا بئس صباح قوم فاسقين. وقال دريائيل: يا بئس صباح قوم ظالمين. وقال إسرافيل: يا بئس صباح قوم مجرمين. وقال عزرائيل: يا بئس صباح قوم غافلين.

فاقتلع جبريل هذه المدن عن آخرها، ثم رفعها، بلغ بها إلى البحر الأخضر وقلبها، فجعل عاليها سافلها. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: الآيتان ٥٣، ٥٤]، يعني رمَى الملائكة إيّاهم بالحجارة من فوقهم.

قال: واستيقظ القوم، وإذا هم بالأرض تَهوي بهم، والنيران من تحتهم والملائكة تقذفهم بالحجارة.

قال: ومن كان من القوم بغير مدائنهم ممّن كان على دينهم وفعلهم أتاه حجر فقتله.

قال: وبقي يخرج من تحت المدائن دخان منتن، لا يقدر أحد يَشُمّه لنتنه، وبقيت آثار المدائن. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾ [العَنكبوت: الآية ٣٥].

قال: ومضى لوط إلى إبراهيم عليهما السلام فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٤، ٧٥].

الباب الثالث
من القسم الثاني من الفن الخامس
في خبر إسحٰق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ

قال: ولمّا قبض الله تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام سكن إسماعيل الحرم، وإسحٰق الشأم ومدين[1]، وسكن معه سائر أولاد إبراهيم، وبعثه الله إلى الأرض المقدّسة نبيًّا ورسولًا، فأقام بينهم نحوًا من ثمانين سنة، وكفّ بصره فبينما هو نائم إلى جنب امرأته إذ تحرّكت شهوته، فقالت: وفيك بقيّة يا إسحٰق؟ فواقعها مرّة فحملت بذكرين: وهما يعقوب والعيص ـ على ما ذكرناه في الأنساب ـ وهو في الباب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الثاني، وهو في الجزء الثاني من هذا الكتاب، وذكرنا أيضًا أولاد العيص فيه.

قال: ثم قبض الله تعالى نبيّه إسحٰق، فقسم ما كان له من بقر وخيل وغنم وغير ذلك بالسوية، ومات؛ فغلَب العيصُ على مال يعقوب، واغتصبه إياه وقصد قتله؛ فقالت له أمّه: إلحق بخالك (لابان) وإخوته بحَرّان[2]، فإنّهم مؤمنون من آل إبراهيم.

فتوجّه يعقوب إلى حرّان، فأكرمه خاله، وزوّجه ابنته، وسلّم إليه ما بيده من المال، وكانت ابنته هذه الكبرى، واسمها (لِيا) فرُزق منها روبيل وشِمعون، ثم ذكرين: لاوي ويهوذا، وتوفيت؛ فزوّجه خاله ابنته الثانية واسمها سروريّة، فولدت له ولدين: دانا ونفتالى؛ ثم توفيت، فزوّجه الثالثة فأولدها ذكرين يساخر وزبولون، وماتت؛ فزوّجه ابنته الرابعة، واسمها راحيل ـ وكانت أحسن بناته ـ وذلك بعد أن استكمل يعقوب من عمره أربعين سنة، فجاءه الوحي يومئذٍ وهو بحرّانَ وقد ماتت أمّه.

---

(١) مدين: هي مدينة قوم شعيب سمّيت بمدين بن إبراهيم عليه السّلام، وهي على بحر القلزم، محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السّلام لسائمة شعيب «معجم البلدان ٥/ ٧٧».

(٢) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، وهي على طريق الموصل والشام والرّوم، قيل: سمّيت بها ران أخي إبراهيم عليه السلام، فعرّبت فقيل حرّان «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

ذكر مبعث يعقوب بن إسحـٰق بن إبراهيم - عليهم السلام -

قال: ولما أتاه الوحي أقبل على خاله لابان، وشكره على فعله، وقال: إن ربّي بعثني رسولًا إلى أرض كنعان[١]. فزوّده بخيل وغنم وبقر وغيرِ ذلك، وقال: امض لما أمرك به ربّك. فخرج يعقوب ومعه أولاده العشرة[٢] وامرأتُه يريد أرض كنعان، فبلغ خبر نبوّته أخاه العيص، فغضب لذلك، وعارضه في طريقه بجموعه؛ فراسله يعقوب مع ابنه روبيل، وذكّره الأخوّة والرحم، فزبر[٣] روبيل وردّه؛ ثم التقيا، فظفّر الله يعقوب بالعيص بقوّة النبوّة، فاحتمله وألقاه على الأرض وجلس على صدره، وقال له: كيف رأيت صنع الله بك يا عِيص؟ ثم رقّ له وقام عن صدره واعتنقه، فاعترف العِيص بفضله عليه، وسأله أن يعفوَ عمّا سلف منه في حقّه؛ فاستغفر له يعقوب ودعا له، وانصرف العيص إلى بلده، وأقبل يعقوب إلى أرض كنعان، فبنيت له دار متَّسعة، سكنها بأهله وأولاده، وكان بأرض كنعان ملك يقال له: سحيم، فدعاه يعقوب إلى الإيمان بالله، فلم يكترث به قال: فإنّي مجاهدك. قال: بمن تجاهدني وليس معك أحد؟ قال: أجاهدك بالله وملائكته وهؤلاء أولادي.

وأقبل يعقوب بأولاده والملِك في حصنه، فقال: يا بَنِيّ، جاهدوا في الله حقّ جهاده. فقال ابنه شمعون: أنا أكفيك هذا الحصن. وأقبل وضرب باب الحصن برجله فتساقطت حيطانه، وصاح صيحة عظيمة فمات الملِك وأكثرُ من بالحصن. ودخل يعقوب الحصن، وغنم ما كان فيه؛ فكانت هذه معجزةً ليعقوب، وبلغ ذلك أهلَ كنعان، فوقع الرعب في قلوبهم، فآمنوا بيعقوب عليه السلام.

---

(١) أرض كنعان: كنعان: هو كنعان بن سام بن نوح، وإليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلّمون بلغة تضارع العربية، والشام: هي منازل الكنعانيين «معجم البلدان ٤/ ٤٨٤».

(٢) يلاحظ أن المؤلّف لم يذكر فيما سبق من أولاد يعقوب غير ثمانية، ولم يذكر ولديه من راحيل وهما: يوسف وبنيامين، فقوله هنا: العشرة غير ظاهر ويؤخذ ممّا يأتي أنه لم يرزق بولديه من راحيل إلّا بعد خروجه إلى أرض كنعان، وغزوته لملكها.

(٣) زبره: أي انتهره.

الباب الرابع
من القسم الثاني من الفن الخامس
في قصة يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم
ـ عليهم السلام ـ

وهذه القصة تدخل فيها بقيّة أخبار يعقوب وما كان من أمره ووفاته وخبر الأسباط أولاده.

ذكر خبر ميلاد يوسف عليه السلام

قال: ولمّا رجع يعقوب من غزاته دخل على امرأته راحيل فواقعها[1] فحملت بيوسف وببنيامين أخيه، فوضعتهما، فجاء يوسف كالقمر، فربّته أمّه حتى صار عمره سنتين، وماتت أمه؛ فلمّا بلغ عمره عشر سنين أمر يعقوب بجَذَعة[2] من غنمه، فذبحت، وصنعت طعامًا، وجمع أولاده على الطعام يأكلون، فأقبل مسكين وسأل وأكثر السؤال، واشتغل يعقوب عنه ولم يأمرهم بإطعامه، حتى انصرف السائل.

فلما فرغ يعقوب من أكله قال: أعطيتم السائل شيئًا؟ فقالوا: إنك لم تأمرنا بشيء. فجاءه الوحي: يا يعقوب، قد جاءك مؤمن فقير مريض شمّ رائحة طعامك فلم تطعمه، وأحرقت قلبه، فلأحرقنّ قلبك. فاغتم يعقوب.

ذكر رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ وكيد إخوته له

قال: ولما بلغ اثنتي عشرة سنةً رأى رؤياه وقصّها على أبيه. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: الآيات ٤ ـ ٦].

قال: فسمع إخوتُه الرؤيا، فداخلهم الحسد، وقالوا ما أخبر الله به عنهم: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ

(١) واقعها: جامعها.
(٢) الجذعة: الصغير من الغنم.

مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يُوسُف: الآيات ٨ - ١٠].

قال: فاتفقوا وجاؤوا إلى أبيهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يُوسُف: الآيتان ١١، ١٢]. فقال لهم يعقوب: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآيتان ١٣، ١٤].

قال: وأحب يوسف ذلك، فدعا يعقوب بسلّة فيها طعام وكوز ماء، وقال: إذا جاع فأطعموه من هذا الطعام، وإذا عطش فاسقوه؛ وأخذ عليهم العهود بردّه وشيّعهم بنفسه، وجلس على تلّ عال ينظر إليهم حتى غابوا عنه؛ فندم على إرساله ثم رجع إلى منزله، وجعل إخوة يوسف يُمعنون في السير، وهو يمشي وراءهم ولا يلحقهم، ويناديهم: «قفوا لي». فلم يقفوا. ويقول: «اسقوني». فلم يسقوه؛ وكسر شَمعون الكوز وقال: قل لأحلامك الكاذبة حتى تسقيك. ورمى (لاوى) سلّة الطعام في الوادي؛ فعلم يوسف أنهم قد عزموا على أمر، فناداهم وناشدهم الله والرحم، وذكّرهم بعهود أبيه، فلطمه أحدهم فأكبّه[1]؛ وساروا ويوسف يعدو وراءهم حتى بلغوا موضع أغنامهم، فأرادوا قتله؛ فقال لهم يهوذا: إن قتلتموه حلّ بكم ما حلّ بقابيل[2] حين قتل أخاه. فأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب[3] وطلبوا له جبًا عميقًا فوجدوه، فجرّوه إليه وهو يبكي، فقال لهم يهوذا: يا بني يعقوب لقد ذهبت الرحمة من قلوبكم. قالوا: فنردّه إلى أبيه فيحدّثه بما فعلناه به؟ قال: فإن طرحتموه في الجبّ لا يبلغ قعره حتى يموت، ولكن دَلُّوه بحبل. ولم يكن معهم حبل، فذبحوا شاة، وقدّوا جلدها كالحبل، ودلّوه به؛ فلما نزل إلى الجبّ امتلأ نورًا، وأتاه جبريل وقال له: لا تخاف فإنّ الله معك. وكان في الجبّ حجر عظيم، فسطّحه جبريل بجناحه فصار كالطبق وأجلسه فيه، وأتاه بطعام من الجنّة فأكل، وأتاه بقميص فلبسه، وبفراش من الجنة، وآنسته الملائكة في الجبّ.

---

(١) أكبّه: صرعه.

(٢) قابيل ابن آدم عليه السّلام، وهو الذي قتل أخاه هابيل ظلمًا.

(٣) الغيابة: قعرُ كلّ شيء، وغيابة الجبّ: قعره، والجبّ: البئر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٥].

قال: ثم قالوا: ماذا نقول لأبينا؟ قال بعضهم: إنه كان يخاف عليه من الذئب، فنقول: إن الذئب أكله. فعمدوا إلى جدي فذبحوه على قميصه. وألصقوا بالدم شيئًا من شعر الجدي، ورجعوا إلى أبيهم.

ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب

قال: ولمّا قَرُبوا من عريش يعقوب أخذوا في البكاء والعويل، فرأتهم ابنة يعقوب، فنزلت إلى أبيها باكية، وقالت: رأيت إخوتي متفرّقين يبكون، وروبيل يقول: «يا يوسف يا يوسف». فصاح يعقوب، وخرّ على وجهه؛ فدخلوا عليه وقالوا: يا أبانا، حلت المصيبة وعظمت الرزيّة ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: الآية ١٧]، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] وأخذ يعقوب القميص، ونظر إليه فلم ير فيه أثر خدش فقال: يا بُنيّ، ما للذئب وأكل أولاد الأنبياء؟ وأخذ يبكي؛ ثم قال: اخرجوا في طلب هذا الذئب، وإلّا دعوت عليكم فتهلكوا. فخرجوا فأخذوا ذئبًا عظيمًا وجعلوا يضربونه ويجرّونه، حتى جاؤوا به إلى أبيهم، فقال: كيف عرفتموه؟ قالوا: لأنه ذئب كبير، وكان يتعرّض لنا في غنمنا.

ذكر كلام الذئب بين يدي يعقوب

فقال يعقوب: سبحان من لو شاء لأنطقك بحجتك. فنطق الذئب وقال: لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له، يا نبيّ الله، إني ذئب غريب، فقدت ولدًا لي فجئت في طلبه حتى بلغت بلدك، فأخذني هؤلاء وضربوني وكذبوا عليّ؛ والذي أنطقني ما أكلت ولدك، وكيف يأكل الذئبُ أولادَ الأنبياء؟ فأطلقه يعقوب.

ذكر خبر خروج يوسف من الجب وبيعه من مالك بن دعر

قال: وأقبل قوم من بلاد اليمن يريدون أرض مصر، فخرج بعضهم في طلب الماء، فرأى نورًا يسطع من البئر، فأدلى دلوه، فتعلّق به يوسف، فاجتذبه، فنظر إليه فرآه، فقال للّذي كان معه: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ١٩] فأخرجوه.

قيل: وذلك في اليوم الرابع من إلقائه في الجبّ، وكان إخوته على رأس جبل فنظروا إلى اجتماع القافلة على الجبّ، فعدوا[١] إليهم، وقالوا: هذا عبد لنا أَبَق[٢] منذ أيام، ونحن في طلبه، فإن أردتم بعناه منكم.

ثم قالوا ليوسف بالعبرانية: إن أنكرت العبوديّة انتزعناك من أيديهم وقتلناك. فسأله أهل القافلة فقال: «إني عبد»، أراد لله.

وكان رئيس القافلة مالك بن دُعْر، فاشتراه منهم بأقل من عشرين درهمًا.

قيل: تنقص درهمًا. وقيل: تزيد درهمين. وقيل: اشتراه بأربعين درهمًا والله أعلم. فاقتسموها بينهم.

قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٢٠]، ثم قالوا لمالك: هذا عبد أبِق سارق، قيّده حتى لا يَهرُب منك ولا يسرق. فقيده وأركبه ناقة، وكتب يهوذا كتاب البيع، وساروا حتى بلغت القافلة قبر أمّ يوسف، فلم يتمالك أن رمى بنفسه على القبر وبكى؛ فافتقدوه فلم يرَوه، فبعثوا في طلبه، فوجدوه وقد اتكأ على القبر؛ فلطمه واحد منهم، وقالوا: هلّا كان هذا البكاء قبل اليوم حتى كنّا لا نشتريك؟ وساروا به حتى دخلوا مصر، فغيّر مالك لباس يوسف، وعبَرَ به، فاجتمع الناس على القافلة، ورأوا يوسف فعجبوا لحسنه وجماله.

ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر

قال: وواعدوا مالكًا على بيعه بباب الملك ريّان بن الوليد، فزَيّن يوسف بأحسن زينة، وأقعده على كرسيّ، وأقبل عزيز مصر واسمه قِطْفِير، واجتمع التجار وقام الدلّال[٣] ونادى عليه؛ فبكى يوسف، وتزايد القوم حتى بلغ يوسف مالًا لا يحصى كثرة؛ واستقرّ بيعه من قِطْفِير، وأحضَر الأموال.

وقد اختلف الرّواة في كمّية الثمن، فمنهم من لم يَحُدَّه، بل قال: مالًا كثيرًا.

---

(١) عدوا: من العَدو، وهو الرّكض. (٢) أبق: هرب.
(٣) الدّلّال: الذي ينادي بسوق النّخاسة.

ومنهم من قال: إنّ عزيز مصر تلقّى القافلة، واشتراه من مالك بن دُعْر بعشرين دينارًا، ونعلين، وثوبين أبيضين. وقد عُزِي هذا القول إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

ورُوِيَ عن وهب بن منبّه أنه أقيم في السوق، وتزايد الناس في ثمنه، فبلغ ثمنُه وزنَه مسكًا وورِقًا[(١)] وحريرًا؛ فابتاعه العزيز بهذا الثمن.

نرجع إلى سياق الكسائيّ:

قال: فوقف عليه رجل من بلاد كنعان على ناقة، فمدّت عنقها، وجعلت تَشَمّ يوسف، فسأل يوسف صاحب الناقة بالعبرانيّة: من هو؟ فأخبره أنه من أرض كنعان؛ فقال له: أقرىء[(٢)] يعقوب سلامي إذا رجعت، وصف له صفتي. فلمّا عاد الكنعانيّ خبر يعقوب بذلك؛ فقال يعقوب: سلني حاجةً بهذه البشارة. قال: ادع لي أن الله يُكثِر ولدي ومالي. فقال: اللهمّ أكثر ولده وماله وأدخله الجنة.

قال: ثم دنا مالك[(٣)] من يوسف فقال له: أنا يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل؛ وأخبره بخبر إخوته. فصلح مالك وقال: والله ما علمت فاستغفر لي فإني من أولاد مدين بن إبراهيم. فبكى يوسف، وقال له مالك: أسألك أن تدعو الله يرزقني ولدًا. فدعا الله فرزقه أربعة وعشرين ولدًا؛ وعاش مالك حتى رأى يوسف وهو عزيز مصر.

قال: ودخل قطْفير منزله ويوسف معه، فرأته زَليخا ـ وكانت أحسن نساء زمانها ـ فقال لها زوجها قطفير: قد اشتريت هذا الغلام لنتّخذه ولدًا فإنا لم نرزق ولدًا. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسُف: الآية ٢١].

ذكر خبر يوسف وزليخا

قال: ولمّا رأته زليخا عجبت لحسنه، ولاطفته، وقالت: لا ينبغي لمثلك أن يباع عبدًا. ويوسف ساكت؛ وكان لا يأكل من ذبائحهم، فقالت له: لم لا تأكل من ذبيحتنا وتقبل كرامتنا ولي هذا البستان أريد أن تحفظه. فقال يوسف: أفعل ذلك.

---

(١) الورق: الدراهم المضروبة من الفضة «اللّسَان مادة ورق».
(٢) أقرىء: بلّغ.
(٣) لعلّ الصّواب: ثمّ دنا يوسف من مالك، لأن السّياق فيما بعد يدلّ على ذلك...

فكان يوسف يتعاهده حتى عمر ببركته، وهو يأكل من نباته، فوقعت محبّته في قلب زليخا، فكتمت ذلك حتى كاد يظهر عليها، فأتتها دايتها[١]، وقالت: يا سيدة نساء مصر، أخبريني بقصّتك. فذكرت ما بها من حبّ يوسف؛ فأمرتها أن تتزيّن بأحسن زينتها؛ ففعلت، وجلست على سرير وأحضرت يوسف، فوقف بين يديها وهو لا يعلم ما يراد منه؛ وأغلقت الداية أبواب المجلس من خارج؛ فعلم عند ذلك مراد زليخا ـ وكان عمره ثمان عشرة سنة ـ؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: الآية ٢٣].

قال: فرمت بتاجها وهمت به. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤].

قالوا: همَّ بضربها، وقيل: بردعها. وقيل: لما حصل عنده من الهمّ ولا تعويل على ما نقله أهل التاريخ: أنّه همّ بها كما همّت به.

قالوا: وكان البرهان الذي رآه أنه سمع صوتًا من ورائه، فالتفت، فرأى صورة يعقوب وهو عاضّ على يديه يقول: «الله الله يا يوسف».

وقيل: خرجت كفّ من الحائط مكتوب عليها: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣]؛ ثم انصرفت الكفّ وعادت زليخا لمراودته، فخرجت الكف ثانية مكتوب عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفِطار: الآيات ١٠ - ١٢]، ثم عادت فخرجت الكف ثالثة وعليها مكتوب: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [البَقَرة: الآية ٢٨١].

قال: فلمّا نظر يوسف إلى البرهان، بادر إلى الباب؛ فَعَدَتْ زليخا خلفه فلحقته عند الباب، فجذبت قميصه فقدّته من دُبر؛ وإذا قطفير قد أقبل. قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٥].

قال: فلمّا نظرت زليخا إليه لطمت وجهها، وقالت: أيّها العزيز، هذا يوسف الّذي اتخذناه ولدًا دخل يراودني عن نفسي.

(١) الدّاية: القابلة.

ثم قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يُوسُف: الآيتان ٢٥، ٢٦]، فهمّ قطفير أن يضرب يوسف بسيف، فأنجاه الله منه؛ وكان في المجلس صغير ابن شهرين - وهو ابن داية زليخا - فتكلّم بإذن الله وقال: لا تعجل يا قطفير، أنا سمعت تخريق الثوب. قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧﴾ [يوسف: الآيتان ٢٦، ٢٧]، ثم لم ينطق الصبيّ بعد ذلك حتى بلغ حدّ النطق، وهذا الصبيّ أحد من تكلّم في المهد. ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يُوسُف: الآية ٢٨]؛ وأقبل على يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يُوسُف: الآية ٢٩] الحديث لا يسمعه أحد. وقال لزليخا: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٩].

وخرج قطفير من منزله، وعادت زليخا لمراودته؛ فامتنع عليها.

ذكر خبر النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ

قال: وفشا في المدينة، وشاع عند نساء الأكابر خبرها، فعتبنها عليه، وهو قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يُوسُف: الآية ٣٠]، فلمّا بلغها ذلك من قولهنّ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يُوسُف: الآية ٣١].

قال: استدعت امرأة الكاتب والوزيرِ وصاحبِ الخراج(١) وصاحبِ الديوان(٢).

وقيل: إنّ النساء اللاتي تكلّمن في أمر زليخا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحبِ الديوان وامرأة صاحبِ السجن وامرأة الحاجب(٣)؛ والله أعلم.

قيل: إنها قدّمت إليهنّ صوانيّ الأترج وصِحاف العسل: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يُوسُف: الآية ٣١] وزيّنت يوسف، وقالت: إنّك عصيتني فيما مضى، فإذا دعوتك الآن فاخرج. فأجابها إلى ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

---

(١) صاحب الخراج: الذي يتولى الضريبة التي تؤخذ من الناس، أو الجزية.

(٢) صاحب الديوان: كانوا يعبّرون عنه في الزّمن الأول بمتولّي الديون، وهو ثاني رتبه الناظر في المراجعة، وله أمورٌ تخصّه كترتيب الدَّرج ونحو ذلك «صبح الأعشى ٥/٤٣٧».

(٣) الحاجب: الذي يتولى خدمة باب السلطان.

إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٣١].

قال: كُنّ يأكلن الأترُجَّ[1] بالسّكاكين فنالهنّ من الدهش والحيرة ما قطّعن أيديهنّ[2] وتلوّثت بالدماء ولم يشعرن؛ فقالت لهنّ زليخا ما حكاه الله عنها: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٣٢].

وقيل: إنّ النساء خلون بهِ ليعذّلنه[3] لها، فراودته كلّ واحدة منهنّ عن نفسه لنفسها، ثم انصرفن إلى منازلهنّ.

ثم دعته زليخا وراودته، وتوعّدته بالسجن إن لم يفعل؛ فقال يوسف ما أخبر الله به عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٣٣].

قال: فلمّا أيست زليخا منه مضت إلى الملِك ريّان بن الوليد ـ وكانت لا تُردّ عنه ـ فقالت: إنّي اشتريت عبدًا، وقد استعصى عليّ، ولا ينفع فيه الضرب والتوبيخ، وأريد أن أحبسه مع العصاة. فأمر الملك بحبسه، وأن يفرج عنه متى اختارت؛ فأمرت السجّان أن يضيّق عليه في محبسه ومأكله ومشربه؛ ففعل ذلك؛ فأنكره العزيز، وأمر أن يُنقل إلى أجود أماكن السجن، ويُفكّ قيده، وقال له: لولا أن زليخا تستوحش من إخراجك لأخرجتك، ولكن اصبر حتى ترضى عنك ويطيب قلبها.

ذكر إلهام يوسف ـ عليه السلام ـ التعبير

ونزل جبريل على يوسف عليه السلام وبشّره أنّ الله قد ألهمه تعبير الرؤيا فعرفه بإذن الله عزّ وجلّ، وأنبت الله له شجرة في محبسه يخرج منها ما يشتهيه.

ذكر خبر الخبّاز والساقي

قال: وغضب الملِك ريّان بن الوليد على ساقيه شرهيا، وصاحب مطبخه شرها، فأمر بحبسهما، فحبِسا في السجن الذي فيه يوسف، فرأى الساقي رؤيا فسأل

---

(١) الأترج: شجر وثمر من جنس الليمون تسمّيه العامة «الكبّاد».

(٢) يلاحظ أنّ المؤلف في هذه العبارة قد حذف عائد «ما» الموصولة وهو قوله: بسببه أو به، مثلًا، ويستفاد من كتب القواعد أن حذف العائد المجرور جائز إذا تعيّن الجار كما هنا.

(٣) يُعذّلنّهُ: بتشديد الذّال وتخفيفها: أي يقوّمنّه، وعدله: قوّمه وسوّاه. . .

أهل السجن عن تأويلها[١]، فدلّوه على يوسف؛ فأتاه وقال: قد رأيت رؤيا. فقال له يوسف: قصّها. فقال: رأيت كأنّي في بستان فيه كَرمة حسنة؛ وفيها عناقيد سود؛ فقطعت منها ثلاث عناقيد وعصرتها في كأس الملِك، ورأيت الملك على سريره في بستانه، فناولته الكأس فشربه، وانتبهت.

فقال صاحب المطبخ: وأنا رأيت مثل هذه الرؤيا، رأيت كأني أخبز في ثلاثة تنانير: أحمر وأسود وأصفر، ورأيت كأنّي أحمل ذلك الخبز في ثلاثِ سِلال إلى دار الملِك، وإذا بطائر على رأسي يقول لي: قف فإنّي طائر من طيور السماء ثم سقط على رأسي فجعل يأكل من ذلك الخبز، والناس ينظرون إليه وإليّ، وانتبهت فزِعًا.

فقال يوسف: بئسما رأيت. ثم قال للساقي: إنّك تقيم في السجن ثلاثة أيّام ويخرجك الملِك فيسلّم إليك خِزانته، وتكون ساقيه وصاحب خِزانته. وأنت يا خباز بعد ثلاثة أيام تُضرب رقبتك وتُصلب وتأكل الطير من رأسك. فقال الخباز: إني لم أر شيئًا، وإنّما وَضعتُ رؤياي هذه. فقال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يُوسُف: الآية ٤١].

ثم قال يوسف للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢] وأعلِمه أنّي محبوس ظلمًا. فقال له: ما أبقِي جهدًا.

فلمّا كان بعد ثلاثة أيّام كان من أمر السّاقي والخباز ما قاله لهما يوسف.

ثم هبط جبريل على يوسف وقال: إن الله يقول لك: نسيتَ نعمائي عليك فقلتَ للساقي يذكرك عند ربه، وهما كافران، فأنزلت حاجتك بمن كفر بنعمتي وعبد الأصنام دوني.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢].

قيل: الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الساقي، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢] وهو يبكي ويستغفر ويتضرّع إلى الله؛ فأوحى الله إليه: أني قد غفرت لك ذنبك، وأنه سيخرجك من السجن، ويجمع بينك وبين أبيك وإخوتك وتصدق رؤياك. فخرّ ساجدًا لله تعالى.

---

(١) تأويل الرؤيا: تفسيرها.

ذكر رؤيا الملِك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته

قال: وقدّر الله عزّ وجلّ أن الملك ـ وهو الريّان بن الوليد بن ثروان بن أواسة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن نوح عليه السلام ـ رأى في تلك الليلة رؤيا هالته؛ فدعا بالمعبّرين، فقالوا: إن هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسُف: الآية ٤٤]، فغضب الملك وقطع أرزاقهم؛ وذكّر الله الساقي؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسُف: الآية ٤٥] فتقدّم إلى الملك وذكر له خبر يوسف ـ وكان بين المدّتين[١] سبعُ سنين وسبعة أشهر ـ فأرسله الملك إليه وقال: أخبره برؤياي وأتني بتأويلها. فأقبل الساقي إلى السجن واجْتمع بيوسف، واعتذر له، وأخبره برؤيا الملك، وقال: هل عندك تعبير ذلك؟ قال: لا أفعل حتى ترجع إلى الملك وتسأله ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسُف: الآية ٥٠]؛ فرجع الساقي إلى الملك وأخبره، فاستدعى النسوة، فأتى بمن كان يعيش منهن، فقال الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسُف: الآية ٥١]، فلما قلن ذلك قال الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسُف: الآية ٥٤]؛ فلمّا دخل عليه أجلسه معه على السرير، وسأله عن اسمه ونسبه، فانتسب له، وذكر قصّته مع إخوته؛ فقال له الملك: قد سمعتَ ما رأيتُ في منامي. ثم قصّها عليه، فقال: رأيت سبع بقرات سمان في نهاية الحسن، ولكل بقرة قرون كبيرة، فحملتني واحدة على قرنيها، فجعلت أصير من بقرة إلى بقرة حتى طفت على الجميع؛ فبينما أنا كذلك وإذا بسبع بقرات عِجاف[٢] مهازيل، فعمدتْ فأكلتْ كلُّ واحدة من المهازيل واحدة من السمان، وبقيت الّتي أنا على قرنيها فلمّا تقدّمت المهزولة لأكلها، رمتني عن قرنيها، فأكلتْها المهزولة؛ ثم صار للمهازيل أجنحة، فطارت ثلاثٌ نحو المشرق وثلاث نحو المغرب، وبقيت هناك واحدة؛ فبينما أنا كذلك وإذا أنا بسبع سنبلات في نهاية الخضرة خرجن من ذلك الوادي، ثم لاحت فيهن سبع سنبلات يابسات، فالتففن على الخضر حتى غلبن على خضرتهن، وإذا بملك قد أقبل وقال: يا ريّان، خذ هذا الرجل فأقعده على سريرك، فإنّه لا يصلح ما رأيت إلّا على يديه؛ فهذا ما رأيت.

---

(١) في نسخة الكسائي «وكان بين هذا الحديث وبين هذه الرؤيا». . .

(٢) العجاف: الضّعاف المهازيل.

فقال يوسف: أما السبع بقرات السِّمان فهي سبع سنينَ يكون فيها زرع وخصب ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٧] فإنّه أبقى له.

وأما البقرات العجاف، فإنّها سبعُ سنين فيها قحط وضيق، فتأكل ما حصدتم في سنين الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٨] في بيوتكم.

وأما السنابل الخضر، فهي سِنو الخصب، واليابسة سِنو الجوع، والرجل الذي قال لك؛ أقعده على سريرك، فيكون صلاح ذلك على يديه فأنا هو؛ وقد أمرك ربي بهذا؛ فهذا تأويل رؤياك.

قال: فقال له ريّان: أشر عليّ الآن بمن أقدّمه في هذا الأمر. فقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥].

قال: كيف يتهيّأ لك وأنت رجل عبرانيّ لا تعرف لغة أهل مصر؟ فقال: إنّ الله ألهمني جميع هذه الألسنة يوم دخلت مصر. فنزع الملك خاتَمه، وجعله في إصبع يوسف، وقال لأصحابه: هذا عزيز مصر وخليفتي، فاسمعوا له وأطيعوا.

قال الثعلبيّ: قال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف في الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر. وكان مرادهم ـ والله أعلم ـ أنه لما استكمل ثلاثين سنة من عمره.

وحكى الثعلبيّ أن الملك عزل العزيز وولّى يوسف، ثم هلك العزيز عن قريب وكان يوسف يوم قضائه تُضرب له قبّة من الديباج[1] يجلس فيها للحكومة بين الناس وبقيّةَ الأيام يدور في عمله ويأمر بالزراعة والحرث وعمر البيوت لخزن الحبوب بسنابلها، حتى ملأها، وخزن الأتبان حتى انقضت سنوّ الخصب ودخلت سِنوّ القحط، فنهى عن الزراعة فيها لعلمه أن الأرض لا تثمر فيها شيئًا؛ فأكلوا ما عندهم حتى نفذ؛ فالتجأوا إلى الملك، فقال الملك: عليكم بالعزيز فإن في يده خزائن الطعام. فجاؤوه، فباعهم في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي السنة الثانية بالحليّ والجواهر، وفي الثالثة بالأراضي والعقار، وفي الرابعة بالإماء والعبيد، وفي الخامسة بأولادهم، وفي السنة السادسة بأنفسهم، حتى صاروا مِلكًا له وعبيدًا، وأطعمهم في السنة السابعة لأنهم صاروا عبيده وإماءه؛ والله أعلم.

(١) الديباج: نوعٌ من رقيق الحرير.

ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها

يقال: إن زليخا أصابها من الحاجة ما أصاب غيرها، وابتاعت الطعام بجميع مالها، وبقيت منفردة، فلم تجد بدًّا من التعرّض ليوسف، فقعدت على طريقه وإذا هو قد أقبل في مواكب عظيمة، فقامت وقالت: يا يوسف، سبحان من أعز العبيد بالطاعة، وأذلّ السادات بالمعصية، أنا أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأنّك من أولاد النبيين.

فسألها يوسف. من أنت؟ فقالت: زليخا؛ وبكت وذكرت حاجتها إلى الطعام؛ فصرفها إلى منزلها، وردّ عليها أملاكها وأموالها؛ وبعث لها بمال جزيل وطعام كثير؛ ثم استأذن الله تعالى في زواجها؛ فأذن له؛ فتزوّجها، وردّ الله عليها حسنها وجمالها؛ فلمّا دخل عليها وجدها بكرًا؛ فعجب من ذلك؛ فقالت: يا نبيّ الله «والذي هداني إلى دينك ما مسّني ذكر قطُّ، وما قدر عليّ العزيز».

فيقال: إنه رزق منها عشرة أولاد في خمسة أبطن.

وقد حكى الثعلبيّ أنّ العزيز قطفير لـمّا هلك بعد عزله زوّج الملكُ يوسفَ بامرأته زليخا، وسماها الثعلبيّ في كتابه: «راعيل».

قال: وانتشر القحط حتى بلغ أرض كنعان؛ فقال يعقوب لبَنيه: يا بنيّ، إنكم ترون ما نحن فيه من الضرّ، وقد بلغني أنّ عزيز مصر تقصده الناس فيمتارون[1] منه ويحسن إليهم، وأنه مؤمن بإلـٰه إبراهيم، فاحملوا ما عندكم من البضاعة وتوجهوا إليه. ففعلوا ذلك وساروا.

قال: وأقبل مالك بن دُعْر على يوسف ومعه أولاده، وهم أربعة وعشرون ولدًا، كلّهم ذكور، فوقف بين يديه وحيّاه بتحيّة المُلك، وقال: أيّها العزيز أتعرفني؟ قال: إنّي أشبّهك برجل حملني إلى هـٰهنا. قال: أنا هو.

فقرّبه وسأله عن الفتية، فقال: هم أولادي رُزِقتهم ببركة دعائك. فكساه وكساهم، وكفاهم من الطعام؛ وسأله: هل مرّ بأرض كنعان؟ قال: نعم وإنّهم لفي جهد[2]، وقد رأيت الذين باعوك منّي مقبلين عليك يريدون أن يمتاروا. ففرح يوسف.

---

(١) يمتارون: أي يشترون منه الميرة، وهي الطعام والمونة.

(٢) الجهد: الفاقة والشدّة.

ذكر دخول إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ في المرّة الأولى

قال: وأقبل إخوة يوسف فدخلوا مصر ليلًا، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيهم؛ فأشرف عليهم وقال: من أنتم؟ قالوا: نحن أولاد يعقوب النبيّ، قدمنا من أرض كنعان لنشتري القوت. فسكت، وأمر بتزيين قصره؛ وبات إخوته على الباب.

وأصبح يوسف فجلس على السرير، وتتوّج وتمنطق(١) وتطوّق(٢)؛ ثم أمر بإخوته؛ فدخلوا عليه ـ وهم عشرة، وتأخر عنهم بنيامين عند أبيه.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٥٨].

فسلّموا عليه، وحيّوه بتحيّة الملوك؛ فردّ عليهم وقال لهم: إنكم أولاد يعقوب النبيّ، فكيف لي بصدقكم؟ فقال له روبيل: نحن نأتيك بأخينا الّذي عند أبينا يخبرك بمثل ما أخبرناك به.

فأمر بأخذ بضاعتهم، وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم.

ثم قال لأعوانه: اجعلوا بضاعتهم في رحالهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يُوسُف: الآيات ٥٩ - ٦٢].

فوضعت في رحل يهوذا؛ ثم سار القوم حتى أتوا إلى أرض كنعان، فدخلوا على أبيهم؛ فسألهم عن حالهم وما كان من أمرهم؛ وفتحوا رحالهم، فوجدوا بضاعتهم ردّت إليهم؛ فدخلوا على أبيهم وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٥].

فقال: إنّ هذا الطعام حرام عليكم إلّا أن تؤدّوا ثمنه.

فقالوا: كيف نرجع إليه وقد ضمنّا له أن نأتيه بأخينا بنيامين؟

---

(١) تمنطق: أي لبس النّطاق، وهو قطعة من ثوب أو جلد أو نحوهما يشدُّ بهما الوسط.

(٢) تطوّق: لبس الطّوق، وهو حليٌّ للعنق يحيط به.

ثم قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ [يُوسُف: الآيتان ٦٣، ٦٤].

فقال له يهوذا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ۝٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٦٦﴾ [يوسف: الآيتان ٦٥ - ٦٦].

ودعا يعقوب بقميص يوسف الّذي وردوا به عليه بالدم، فألبسه بنيامين وودّعهم: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾ [يُوسُف: الآية ٦٧] ثم ساروا.

ذكر خبر دخولهم عليه في المرّة الثانية

قال: فلمّا بلغوا مصر ودخلوا على يوسف قرّبهم، ونظر إلى أخيه بنيامين وأدناه وأجلسه بين يديه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٩].

ثم قال له: أرى كلّ واحد من هؤلاء مع أخيه، فما بالك منفردًا؟ فقال: أيّها العزيز، كان لي أخ، ولا أدري ما أصابه، غير أنّه خرج مع هؤلاء الإخوة إلى الغنم، فذكروا أنّ الذئب أكله، وردّوا قميصه هذا الّذي عليّ وهو ملطّخ بالدم.

فقال لهم يوسف: يا أولاد يعقوب، إنّ فيكم من يصيح بالأسد فيخرّ ميتًا ومن يأخذ برجل الذئب فيشقّه اثنين، وفيكم من يقتلع الشجرة من أصلها، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقه.

قالوا: نعم أيها العزيز. فقال: سوءة[1] لكم ولقوّتكم إذ يعدو الذئب على أخيكم فيأكله. فقالوا: إذا جاء القضاء ذهبت القوى.

فسكت يوسف، ثم أمر لهم بخمس موائد، وأمر كلّ اثنين منهم أن يجلسا على مائدة؛ ثم وضعت أخرى بين يدي بنيامين، فبكى؛ فقال له: ما يبكيك؟ قال: أيّها

---

(١) سوءة لكم: من سوّأ الشيء تسويئًا: إذا عابه وقبّحه ووبّخه.

العزيز، إخوتي يأكلون كلّ واحد مع أخيه، وأنا وحدي، ولو كان أخي يوسف باقيًا أكل معي.

فقال يوسف: يا فتى، أنا لك كالأخ. ثم نزل عن السرير وأكل معه.

فلمّا فرغوا من الأكل جعل يوسف يسألهم عن أرض كنعان وهم يخبرونه.

ثم خرج صبيّ من القصر يتثنّى، فنظر إليه بنيامين وبكى؛ فقال له يوسف: ممّ بكيت؟ قال: هذا الصبيّ يشبه أخي يوسف، فبكيتُ لأجله.

فقال يوسف: هل فيكم مَن حزِن على يوسف؟ قالوا: نعم، كلّنا حزنّا عليه وبنيامين أشدّ منّا حزنًا.

ثم قال: فما الّذي حملتم من البضاعة؟ قالوا: لم نحمل شيئًا، لأنه لم يكن لنا شيء، غير أنا رددنا عليك البضاعة التي وجدناها في رحالنا، لأنها ثمن الطعام الّذي حملناه من عندك.

فأمر أن يُعطَوا من الطعام ما تحمله إبلهم، وأمر غلمانه أن يجعلوا الصُواع[1] في رحل بنيامين؛ فكانوا يكيلون وإخوة يوسف يَخيطون الأعدال[2]، حتى فرغوا.

ورحل إخوة يوسف وهم لا يشعرون بالصُواع.

وقال الثعلبيّ: كانت السقاية مِشربةً يَشرب فيها الملك، وكانت كأسًا من ذهب مكلّلةً بالجوهر، جعلها يوسف مكيالًا يكال بها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يوسف: الآيات ٧٠ - ٧٥].

فعند ذلك أمر يوسف أن تفتَّش رحالهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يوسف: الآية ٧٦] الآية.

---

(١) الصّواع: المكيال.

(٢) الأعدال: جمع «عدل» وهو الكيس الكبير.

قال: فلما نظروا ذلك ضربوا بأيديهم على جباههم، وقالوا: ثكلتك أمّك فضحتَنا يا بنيامين. قال: إني لم أفعل ذلك. قالوا: من وضعه في رحلك؟ قال: الّذي جعل البضاعة في رحالكم. فسكتوا، ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يُوسُف: الآية ٧٧].

قال الثعلبيّ: واختلف العلماء في السرقة التي وُصف بها يوسف، فقال سعيد[١] وقتادة[٢]: سرق يوسفُ صنمًا لجدّه أبي أمّه وكان من ذهب، فكسره وألقاه في الطريق.

وقال ابن جريج[٣]: أمرته أمّه ـ وكانت مسلمة ـ أن يسرق صنمًا لخاله كان يعبده.

وقال مجاهد[٤]: جاء سائل يومًا، فسرق يوسف بيضة من البيت.

وقال ابن عيينة[٥]: دجاجة، فناولها السائلَ، فعيّروه.

وقال وهب: كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء.

وقال الضحاك[٦] وغيره: كان أوّلَ ما دخل على يوسف من البلاء أن عمّته بنتَ إسحٰق كانت أكبرَ ولد إسحٰق، وكانت لها منطقة إسحٰق، وكانوا يتوارثونها بالكِبر، وكانت راحيل أمّ يوسف قد ماتت، فحضنتْه عمّته وأحبّته حبًّا شديدًا فكانت لا تصبر عنه؛ فلما ترعرع وبلغ سُنَيَّات وقع حبّه في قلب يعقوب؛ فأتاها وقال: يا أختاه سلّمي إليّ يوسف، فوالله ما أصبر عنه ساعةً واحدة. فقالت: ما أنا بتاركته.

---

(١) سعيد: لعلّه سعيد بن جبير الوالبي، أحد الأعلام، روى الحديث عن ابن عبّاس وغيره قتل شهيدًا في شعبان سنة ٩٥ هـ «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٢) قتادة: هو قتادة بن دعامة أبو الخطّاب السّدوسي الأعمى الحافظ المفسّر، مات كهلًا سنة ١١٨ هـ، محدّث ثقة «الكاشف ٢/ ٣٤١».

(٣) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز، أبو الوليد وأبو خالد، فقيه الحرم المكيّ، كان إمام أهل الحجاز في زمانه، روميّ الأصل، من موالي قريش مات سنة ١٥٠ هـ «الأعلام ٤/ ١٦٠».

(٤) مجاهد: هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج، مولى السّائب بن أبي السّائب المخزومي إمام في القراءة والتفسير والحديث، مات سنة ١٠٤ هـ «الكاشف ٣/ ١٠٦».

(٥) هو سفيان بن عيينة، أبو محمد الهلالي، أحد الأعلام الثقات، من أئمة رجال الحديث مات في رجب سنة ١٩٨ هـ «الكاشف ١/ ٣٠١».

(٦) الضّحاك: هو الضّحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، محدّث مفسّر مات سنة ١٠٥ هـ «الكاشف ٢/ ٣٣».

فلما غلبها يعقوب قالت: فدعه عندي أيامًا أنظر إليه، لعل ذلك يسليني عنه. ففعل ذلك يعقوب؛ فلمّا خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحٰق فحزمتْها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدتُ منطقة إسحٰق فانظروا من أخذها. فالتُمست فلم توجد؛ فقالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف؛ فقالت: والله إنّه ليُسلَّم لي أصنع فيه ما شئت ـ وكان ذلك حُكمَ آل إبراهيم في السارق ـ فأتاها يعقوب، فأخبرته بذلك؛ فقال: إن كان فعل ذلك فهو يُسلَّم إليك، ما أستطيع غير ذلك.

فأمسكته بعلّة المنطقة، فما قدر يعقوب عليه حتى ماتت، فهو الذي قال له إخوته: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: الآية ٧٧]، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف: الآيات ٧٨ - ٨١].

قال: ثم تشاوروا فقالوا: إن هذا الملك وأهلَ مصر كفرة يعبدون الأصنام فتعالوا نتظاهر عليهم.

قال روبيل: أنا أكفيكم الملك وأعوانه.

وقال شَمْعون: أنا أكفيكم أمر العزيز وأعوانه.

وقال يهوذا: أنا أكفيكم الأسواق.

فعلم يوسف بذلك، فأحضرهم وقال: يا بني يعقوب، ما الّذي غرّكم منّي؟ أحسنتُ إليكم مرّة بعد مرة، وتفضّلت عليكم، وجنى أخوكم جناية فتشاورتم في هلاك المدينة وأهلها، أتظنون أن هذه القوّة لكم دون غيركم؟ ثم ضرب برجله السُّدّة[١] التي كان عليها فطحطحها[٢] وكسر صفائح رخامها؛ ثم قال: لولا أنكم من أولاد الأنبياء لصحت بكم صيحة تخرّون على أذقانكم.

---

(١) السُّدّة: ما يجلس عليه من سرير أو يصعد عليه كالمنبر.

(٢) طحطحها: هدّها.

قال: وكان يهوذا قد عزم على أن يفعل شيئًا، وكان على كتفه شعرةٌ إذا غضب خرجت من جبته فيقطر منها الدم، ثم يصيح صيحة فلا يسمعها أحد إلّا سقط مغشيًّا عليه؛ وكان لا يسكن غضبه إلا أن يمسّه أحد من آل يعقوب؛ فدعا يوسف بابنه مَنَسًّا وقال: اذهب إلى ذلك الكهل فمَسَّه بيدك، وتنحّ عنه من حيث لا يشعر بك. ففعل ذلك، فسكن غضبه؛ فقال يهوذا لإخوته: من الذي مسّني منكم فقد سكن غضبي. قالوا: لم يمسّك غيرُ ذاك الصبي. فقال: والله لقد مسّتني يد من آل يعقوب.

فلمّا عسر عليهم ما عزموا عليه، عزموا على العود إلى أبيهم، وتركوا روبيل عند بنيامين.

قال: فلمّا انصرفوا دخل يوسف إلى منزله وأحضر بنيامين، وقال: أتعرفني؟ قال: نعم، أنت العزيز، والله ما سرقتُ، فلا تعجل عليّ، فإنك موصوف بالإحسان. فضمّه يوسف إلى صدره، وقال له: أنا أخوك يوسف. ثم كساه وسأله عن أبيه، فأخبره بما يقاسيه من أجله.

قال: ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم فذكروا ما كان من خبر بنيامين، وأن روبيل أقام عنده.

قال: وكيف يسرق ولدي وهو من الذرّيّة الطيّبة؟ فقالوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآيات ٨٢ ـ ٨٦].

قال: وأخذ في البكاء حتى ضجر منه جيرانه، فأوحى الله إليه: أن كفّ عن بكائك فإنّي سأردّ عليك بصرك، وأجمع بينك وبين لدك. فسكن وهدأ، ثم قال لبنيه: احملوا كتابي إلى العزيز. ودعا بابنته (دِينَة) وقال لها: اكتبي، باسم إلٰه إبراهيم، من يعقوب إلى عزيز مصر، إن الله أكرمني بولد كان أحبَّ أولادي إليّ وقد فقدته وبكيت عليه حتى عميت، وكنت آنس بأخيه بنيامين الّذي حبستَه عندك؛ وعجبتُ من أمر الصُّواع؛ فإن أولاد الأنبياء لا يفعلون ذلك، وإنه مكذوب عليه؛ فإذا أتاك كتابي هذا فتفضّل عليّ بولدي وردّه عليّ فإني أدعو الله أن يزيدك فضلًا وكرامة.

وسلّم الكتاب إليهم، وقال: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧] الآية.

ذكر خبر دخولهم عليه في الدفعة الثالثة

قال: وساروا حتى دخلوا مصر، فاستقبلهم روبيل ودخل معهم، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: الآية ٨٨] وناولوه الكتاب؛ فقبّله وقرأه، ثم قال لهم: لو كنتم حملتم إليّ هذا الكتاب قبل اليوم دفعته لكم، ولكنّي قد ألقيت حديثه إلى الملك، وأنا أكلّمه فيه.

ذكر خبر حديث الصاع

قال: ثم أمر يوسفُ بإحضار الصاع[1] بين يديه وقال: اجتمعوا حتى أسأل هذا الصاع عنكم. فنقر الصاع فَطنّ، فقال: يا بني يعقوب، إنّ هذا الصاع يقول: إنكم تشهدون بالزور؛ وإنكم كذبتم في قولكم: إنّ الذئب أكل أخاكم. قالوا: ما شهدنا بالزور قط، وما قلنا في يوسف إلّا الحقّ. فنقر الصاعَ وقال: أتدرون ما يقول؟ إنه يقول: إنكم حسدتم أخاكم، وأخرجتموه من عند أبيه وأردتم قتله، ثم ألقيتموه في الجب المظلم البعيد القعر. ثم نقر ثالثًا وقال: إنه يقول، ما كذبتُك فيما أقول، ولقد أخرجوا أخاهم من الجب فباعوه بعشرين درهمًا عددًا تنقص درهمًا، وأوصَوا مشتريه أن يقيّده حتى يبلغ أرض مصر. فتغيّرتْ وجوه القوم، وقالوا: ما نعرف شيئًا من هذا. ثم نقره رابعًا وقال: إنه يقول: وكتبوا كتاب البيع بخطّ يهوذا. فقال: أيّها العزيز، إني لم أكتب شيئًا وأنكِره. فقال: مكانكم حتى أعود إليكم. ودخل على زليخا وقال: هاتي تلك الصحيفة. فأخرجتها له؛ فأخرجها إلى يهوذا وقال: أتعرف خطّك؟ قال: نعم. فألقاها إليه فرآها وهي خطّه؛ فقال: هي خطّي، «غير أنّي لم أكتبه باختياري[2]، وإنّما كتبته على عبد أَبَق منّا».

فغضب يوسف وقال: ألستم تزعمون أنكم من أولاد الأنبياء، ثم تفعلوا مِثل هذا.

ثم قال لأعوانه: انصبوا عشرة أشجار على باب المدينة حتى أضرب أعناق هؤلاء وأصلّبهم؛ وأجعلَهم حديثًا لأهل مصر. فبكوا وقالوا: اقتلنا كيف شئت ولا تصلّبنا.

---

(١) الصّاع: مكيال للحبوب أو نحوها مقداره أربعة أمداد تقريبًا.

(٢) يلاحظ أن وجه المقابلة غير ظاهر بين قوله: «لم أكتبه باختياري» وقوله: وإنّما كتبته على عبدٍ أبق منا».

وأقبل بعضهم على بعض وقالوا: هذا جزاؤنا بما عامَلْنا به أخانا. فلمّا أقرّوا كلّهم بالذنب، رفع التاجَ عن رأسه، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٩]، وكان في رأسه شامة مِثلُها في رأس يعقوب؛ فلما نظروا إلى الشامة عرفوها وقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآيات ٩٠ ـ ٩٢].

فعمد يوسف إلى قميصه، وجعله في قصبة من فضة؛ ودفعه إلى يهوذا وخلع عليهم وطيّبهم، وقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٩٣]. فخرجوا، وسبقهم يهوذا بالقميص. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٩٤].

قال: لمّا فصلت العير من أرض مصر حملت الريح رائحة القميص فشمّها يعقوب، فقال ذلك. ومعنى ﴿تُفَنِّدُونِ﴾، أي تكذّبون. فقال له أهله: ـ وقيل: بنو بنيه ـ ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: الآية ٩٥] معناه في حبّك القديم ليوسف.

فلمّا وصل يهوذا بالقميص ودخل على يعقوب ألقاه على وجهه وقال: خذها بشارة. فعاد بصره من ساعته، وخرّ ساجدًا لله. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يُوسُف: الآية ٩٦] الآية.

وجاء بنوه وقالوا: يا نبيّ الله، نحن الذين غيّبنا يوسف عنك، ونحن الذين أتيناك بخبره وهو عزيز مصر. ثم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يُوسُف: الآيتان ٩٧، ٩٨].

قال: وجاءه جبريل بناقة من نوق الجنّة، فاستوى عليها، وخرج من أرض كنعان يريد مصر ومعه أولاده وأهله، وهم ثمانية وسبعون إنسانًا، فدعا لهم يعقوب فما دخل أولاده مصر إلّا وقد غفر لهم؛ وخرج يوسف لملتقى أبيه ومعه خلق كثير فلما رآه يوسف ترجّل عن فرسه وأبرك[1] يعقوب ناقته، واعتنقا وبكيا، وقال يوسف: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٩].

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: الآية ١٠٠] يعني الأب والخال، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ

(١) أبرك: أناخ.

بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: الآية ١٠٠].

قال: وكان بين مفارقته ووقتِ الاجتماع أربع وثلاثون سنة.

وقال الحسن[١]: كان بين خروج يوسف إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجفّ عيناه.

وأقام يعقوب بمصر أربعين سنة. وقيل: أربعًا وعشرين سنة؛ ثم أمره الله أن يرتحل إلى أرض كنعان لاقتراب أجله؛ فارتحل ومات هناك، ودفن إلى جانب أبيه إسحٰق.

وحكى الثعلبيّ رحمه الله أن يعقوب مات بمصر، وأوصى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدّسة حتى يدفنه عند أبيه إسحٰق وجدّه إبراهيم؛ ففعل ذلك، ونقله في تابوت من ساج إلى البيت المقدَّس، وخرج معه في عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر، ووافق ذلك اليومُ وفاةَ عيصو[٢]، فدفنا في يوم واحد، وكان عمرهما جميعًا مائة سنة وسبعًا وأربعين سنة، لأنّهما وُلدا في بطن واحد، وقُبرا في قبر واحد.

ذكر دعوة يوسف ـ عليه السلام ـ وارتحاله عن بلد الريّان

قال: ثم إنّ يوسف عليه السلام دعا أهل مصر إلى الإيمان سرًّا وعلانية، فآمن به كثير منهم، وكسروا الأصنام، وصارت الغلبة للمسلمين؛ فاستدعاه ريان بن الوليد وقال له: أيها العزيز، إن أهل مصر كانوا يحبّونك وقد كرهوك بسبب أديانهم، فما لك وأديانَهم؟ فقال يوسف: قد بلغني ذلك وأنا رادّ عليك ما خوّلتنيه[٣]، ومتحول عنك وعن قومك بأهل ملّتي، فإني لا أحبّ أن أكون من عبدة الأوثان.

وخرج يوسف هو وأولاده وإخوته وقومه الذين آمنوا حتى نزل الموضع الذي استقبل أباه يعقوب عنده؛ فجاءه جبريل وخرق له نهرًا من النيل إلى هناك، وهو نهر الفَيُّوم، ولحق به كثير من الناس، وآمنوا، وابتنى مدينتين وسمّاهما بالحرمين وكان لا

(١) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد من التّابعين، كان إمام أهل البصرة، وهو أحد العلماء الفقهاء الشجعان النّساك، مات سنة ١١٠ هـ «الأعلام ٢/٢٢٦».

(٢) عيصو: هو ابن إسحٰق وأخ يعقوب عليهما السّلام.

(٣) ما خوّله: ما أنعم عليه به أو ما جعله قيّمًا عليه.

يدخلهما أحد إلّا يلبّي يقول: «لبيّك يا مفضِّل إبراهيم بالنبوّة لبَّيك». ولم يكن بأرض مصر أعمر منهما، وسار يوسف في قومه سيرة الأنبياء حتى مات.

ذكر خبر وفاة يوسف ـ عليه السلام ـ

قال: ولمّا أدركته الوفاة أوصى إلى ابنه (أَفْرايم) أن يسوس[١] قومه بالواجب وأن يكون معاندًا[٢] لأهل مصر الذين يعبدون الأوثان، ويجاهدهم في الله حق جهاده؛ ثم توفّي، وكانت زَليخا قد ماتت قبله، وما تزوّج بعدها.

قال الثعلبيّ: قال أهل التاريخ: عاش يوسف بعد يعقوب ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة.

قالوا: ودفن في بلده فعمَر الجانب الذي يليها وأخصب، وقَحِط الجانب الآخر، فشكا أهله إلى الملك، فبعث إلى أفرايم أن ينقله فيدفنه في الجانب الآخر وإن لم يفعل قاتله؛ فدفنه هناك، فخَصَب ذلك الجانب، وقَحَط الآخر، فكان يدفن سنة في هذا الجانب، وسنة في الآخر؛ ثم اجتمعت الآراء أن يدفن في وسط النهر؛ ففعلوا ذلك، فخَصَب الجانبان ببركته، ولم يزل في نهر النيل حتى بعث الله موسى عليه السلام فأمره الله أن يحمل تابوت يوسف؛ فأخرجه ونقله إلى بيت المقدس، فدفنه هناك، وموضع قبره معروف.

الباب الخامس
من القسم الثاني من الفنّ الخامس
في قصّة أيوب عليه السلام وابتلائه وعافيته

عن وهب بن منبّه أنه لم يكن بعد يوسف نبيّ إلّا أيوب، وهو أيّوب بن أموص بن عيصو بن إسحٰق بن إبراهيم.

وكان أموص كثير المال والماشية، لم يكن في أرض الشأم أغنى منه؛ فلما مات صار ذلك جميعه لأيوب؛ وكان أيوب يومئذٍ ابن ثلاثين سنة، فأحبّ الزواج فخطب رحمة بنتَ أفرايم بنِ يوسف؛ فتزوّجها، وكانت أشبه الخَلْق بيوسف وكانت كثيرة العبادة، فرزقه الله منها اثني عشر بطنًا، في كلّ بطن ذكر وأنثى؛ ثم بعثه الله تعالى

---

(١) يسوس قومه: أي يتولّى أمرهم وقيادتهم. (٢) معاندًا: أي مخالفًا لما هم فيه من ضلال.

إلى نومه رسولًا ـ وهم أهل حَوْران والبَثَنِية[١] ـ ورزقه الله حُسن الخلق والرفق، فشرع لقومه الشرائع، وبنى المساجد، ووضع موائده للفقراء والأضياف؛ وأمر وكلاءه ألّا يمنعوا أحدًا من زراعته وثماره، فكان الطير والوحش وجميعُ الأنعام تأكل من زرعه وبركة الله تزداد صباحًا ومساءً؛ وكانت كلّ مواشيه تَحمِل في كلّ سنة بتوأم.

وكان أيّوب إذا أقبل الليل جمع من يلوذ[٢] به في مسجده، ويصلّون بصلاته ويسبّحون بتسبيحه حتى يصبح، فحسده إبليس؛ وكان لا يمر بشيء من ماله وماشيته إلا رآه وهو مختوم بخاتم الشكر؛ وكان إذ ذاك يصعد إلى السمٰوات ويقف في أي مكان أحبّ منها، حتى رفع الله عيسى ابن مريم، فحُجب عن أربع سمٰوات منها؛ حتى بعث الله نبينا محمدًا ﷺ، فحُجِب عن جميعها فصعد إبليس في زمن أيّوب عليه السلام وقال: يا ربّ إني طفت الأرض ففتنت[٣] من أطاعني إلّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. فنودي: يا ملعون، هل علمت بعبدي أيوب؟ وهل نلت منه مع طول عبادته؟ وهل تستطيع أن تغيّره عن عبادتي؟ فقال إبليس: إلٰهي إنك ذكرتَه بالخير، وقد نظرتُ في أمره فإذا هو عبد عافيتَه بعافيتك، ورزقته شكرك، ولم تختبره بالبلاء؛ فلو ابتليته بالمصائب لوجدته بخلاف ما هو عليه، فلو سلّطتني على ماله لرأيتَه كيف ينساك.

فسلّطه[٤] الله على ماله؛ فانقضّ وجمع العفاريت، وأخبرهم أنه سُلّط على مال أيوب، وحضّهم على زرعه وأشجاره ومواشيه، فأحرقوا الأشجار، وصاحوا بالمواشي صيحة فماتت برعاتها.

قيل: وكان له ألفُ فرس وألف رَمَكة[٥] وألف بغل وبغلة، وثلاثةُ آلاف بعير، وألف وخمسمائة ناقة، وألف ثور، وألف بقرة، وعشرة آلاف شاة وخمسمائة فدّان، وثلاثمائة أتان[٦]، مع ما يتبع ذلك من النِّتَاج؛ فهلك جميع ذلك؛ ثم أقبل إبليس إلى أيوب في صورة راع من رعاته، وخَيّل له أن عليه وهجَ الحريق وقد اسودّ وجهه، وهو ينادي: يا أيّوب، أدركني فأنا الناجي دون غيري ما رأيتُ قطّ مثل هذا اليوم،

---

(١) البثنيَّة: هي مدينة من أعمال دمشق، ويقال لها أذرعات أو يذرعات وبينها وبين الصنمين ثمانية عشر ميلًا، وبها ولاية الحاكم على مجموع الصّفقة «انظر صبح الأعشى ٤/١٠٩».

(٢) يلوذ به: أي يؤمن به من أقرباء وغيرهم. (٣) فتن: أضلّ.

(٤) سلّطه: حكّمه. (٥) الرّمكة: الفرس التي تتخذ للنسل.

(٦) الأتان: الحمارة.

رأيت نارًا أقبلت من السماء فأحرقت أموالك، وسمعت نداء من السماء: هذا جزاء من كان مرائيًا[١] في عمله يريد به الناس دون الله. وسمعتُ النار تقول: أنا نار الغضب. فأقبل أيوب على صلاته، ولم يكترث به حتى فرغ منها، وقال: يا هذا، لقد كثّرت عليّ، ليست الأموالي لي، بل هي لربيّ يفعل فيها ما يشاء. فقال إبليس: صدقت.

وماج الناس[٢] بعضهم في بعض، وقالوا: هلّا قبضها قبضًا جميلًا.

فشقَّ ذلك على أيّوب من قولهم، ولم يجبهم، غير أنه قال: الحمد لله على قضائه وقدره. وانصرف إبليس عنه، وصعد إلى السماء، فنودي: يا ملعون كيف وجدت عبدي أيّوب وصبرَه على ذهاب أمواله؟ فقال إبليس: إلٰهي إنك قد متّعته بالأولاد، فلو سلّطتني عليهم لوجدتَه غير صابر. فنودي: يا ملعون اذهب فقد سلّطتك عليهم. فانقضّ إبليس على باب قصر أيّوب الّذي فيه أولاده فزلزله حتّى سقط عليهم، وشدخهم بالخشب، ومثّل بهم كلّ مُثْلة؛ فأوحى الله إلى الأرض: احفظي أولاد أيّوب فإنّي بالغ فيهم مشيئتي.

وأقبل إبليس إلى أيوب وقال له: لو رأيت قصورك كيف تهدّمت، وأولادك وما حلّ بهم. ولم يزل يعدّ له ما حلّ بهم حتى أبكاه؛ ثم ندم على بكائه، فاستغفر وخرّ ساجدًا؛ وأقبل على إبليس وقال: يا ملعون، انصرف عنّي خائبًا؛ فإن أولادي كانوا عارية[٣] عندي لله.

فانصرف وصعد إلى السماء، ووقف موقفه، فنودي: يا ملعون، كيف رأيت عبدي أيوب واستغفاره عند بكائه؟ فقال: إلٰهي إنّك قد متّعته بعافية نفسه، وفيها عوض عن المال، فلو سلّطتني على بدنه لكان لا يصبر. فنودي: يا ملعون اذهب فقد سلّطتك على جسده إلّا عينيه ولسانَه وقلبَه وسمعَه. فانقضّ إبليس عليه وهو في مسجده يتضرّع إلى الله ويشكره على جميع بلائه؛ فلمّا سمع إبليس ذلك منه اغتاظ، ولم يتركه يرفع رأسه من السجود حتى نفخ في مَنخِريه كالنار الملتهِبة؛ فاسودّ وجهه، ومرّت النفخة في سائر جسده؛ فتمعّط[٤] منها شَعره، وتقرّح جميعُ بدنه،

---

(١) مرائيًا: من المراءاة: وهو أن يظهر المرء خلاف ما يبطن من معتقد أو نحو ذلك. . .

(٢) ماج الناس: هاجوا واضطربوا.

(٣) العارية: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك.

(٤) تمعّط الشّعر: تساقط.

ووَرِم في اليوم الثاني، وعظم في الثالث، واسودّ في الرابع، وامتلأ قيحًا في الخامس، ووقع فيه الدود في السادس، وسال منه الصديد في اليوم السابع ووقع فيه الحُكاك، فجعل يحكّه حتى سقطت أظافيره؛ فحكّ بدنه بالخروق والمُسوح[(١)] والحجارة، وكان إذا سقطت دودة من بدنه ردّها إلى موضعها، ويقول: كلي إلى أن يأذن الله بالفرج.

فقالت له رحمة: يا أيوب، ذهب المال والولد، وبدأ الضرّ في الجسد.

فقال لها: يا رحمة، إنّ الله ابتلى الأنبياء من قبل فصبروا، وإن الله وعد الصابرين خيرًا؛ وخرّ ساجدًا لله تعالى، وقال: إلٰهي لو جعلت ثوب البلاء سرمدًا[(٢)] وحرمتني العافية، ومزّقتني كلّ ممزَّق، ما ازددت إلّا شكرًا؛ إلٰهي لا تشمت بي عدوّي إبليس.

ثم قال لرحمة: انقليني إلى موضع غيرِ مسجدي، فإنّي لا أحبّ أن يلتوّث المسجد.

فانطلقت إلى قوم كان أيوب يحسن إليهم؛ فالتمست منهم أن يعينوها على إخراجه من المسجد؛ فقالوا: إنه قد غضب عليه ربُّه بما كان فيه من الرياء، فليت كان بيننا وبينه بعد المشرقين. فرجعت رحمة واحتملته إلى الموضع الّذي كان يضع فيه الموائد للناس بالفضاء.

ثم قال لها: يا رحمة، إن الصدقة لا تحلّ علينا، فاحتالي[(٣)] في خدمة الناس. وبكى وبكت، فكانت تخدم أهل البلد في سقي الماء وكنس البيوت وإخراج الكناسات إلى المزابل، وتتكسّب من ذلك ما تنفقه على أيوب؛ فأقبل إبليس في صورة شيخ، فوقف على أهل القرية وقال: كيف تطيب نفوسكم بمخالطة امرأة تعالج من زوجها هذا القيح والصديد وتدخل بيوتكم، وتدخل يدها في طعامكم وشرابكم؟!

فوقع ذلك في قلوبهم[(٤)] ومنعوها أن تدخل بيوتهم.

---

(١) المسوح: مفردها «مسح» وهو ثوب من شعر.
(٢) السّرمد: الدائم الذي لا يزول.
(٣) احتالي: يريد احتالي لكي نعيش أي اعملي واخدمي الناس لكسب القوب.
(٤) وقع ذلك في قلوبهم: أي رأوا صوابه واقتنعوا بما يقول.

قال: واشتد بأيوب البلاء، ونَتن حتى لم يقدر أحد من أهل القرية أن يستقرّ في بيته لشدّة رائحته؛ فاجتمعوا على أن يرسلوا عليه الكلاب لتأكله؛ فأرسلوها فعدت حتى قربت منه وولّت هاربة ولم ترجع إلى القرية.

ثم قال لرحمة: إنّ القوم قد كرهوني، فاحتالي في نقلي عنهم.

فتوجّهت واتخذت له عريشًا[١]، واستعانت بمن يحمله؛ فأعانها الله بأربعة من الملائكة، فحملوه بأطراف النِّطْع[٢] إلى العريش، وعزَّوه في مصيبته ودعَوا له بالعافية؛ واتخذت له رحمة في العريش رَمادًا، فألقى نفسه عليه؛ ثم توجّهت في طلب القوت، فردّها أهل القرية، وقالوا: إنّ أيّوب سَخِط عليه ربّه. فعادت إليه باكية، وقالت: إنّ أهل القرية غَلّقوا أبوابهم دوني. فقال: إن الله لا يُغلِق بابه دوننا. فحملته إلى قرية أخرى، وصنعت له عريشًا ودخلت القرية، فقرّبوها وأكرموها، وحمَلتْ في ذلك اليوم عشرة أقراص من خمسة بيوت؛ ثم شمّ أهلُ القرية رائحة أيّوب بعد ذلك، فمنعوا رحمة أن تدخل إليهم، وقالوا: نحن نواسيك من طعامنا بشيء. فرضيت بذلك؛ فبينما هي تتردّد إلى أيوب إذ عرض لها إبليس في صورة طبيب وقال: إني أقبلت من أرض فلسطين لما سمعت خبر زوجك، وقد جئت لأداويه، وأنا صائر إليه غدًا فيجب أن تخبريه، وقولي له: يحتال في عصفور أو طائر فيذبحه ولا يذكر اسم الله عليه، ويأكله ويشرب عليه قدحًا من خمر، ففرجه في ذلك. فجاءت رحمة إلى أيوب وأخبرته بذلك، فتبيّن الغضبُ على وجهه، وأخبرها أنه إبليس وحذّرها أن تعود لمثل ذلك؛ ثم أقبلت بعد ذلك إلى أيوب بشيء من الطعام فعرض لها إبليس في صورة رجل بهيٍّ على حمار، فقال: كأني أعرفك، ألستِ رحمة امرأةَ أيوب؟ قالت: بلى. قال: إني أعرفكم وأنتم أهل غَناء ويسار[٣] فما الّذي غيّر حالكم؟ فذكرت ما أصاب أيّوب من البلاء في المال والولد والنفس قال: وفي أيّ شيء أصابتكم هذه المصائب؟ قالت: لأنّ الله أراد أن يعظم لنا الأجر على قدر بلائه.

قال إبليس: بئس ما قلت، ولكن للسماء إلـٰه وللأرض إلـٰه؛ فأمّا إلـٰه السماء فهو الله؛ وأمّا إلـٰه الأرض فأنا، فأردتكم لنفسي فعبدتم إلـٰه السماء ولم تعبدوني

(١) العريش: الهودج. (٢) النّطع: بساط من جلد.
(٣) اليسار: النعمة والسَّعة في الرزق.

ففعلت بكم ما فعلت، وسلبتكم نعمكم، وكلُّ ذلك عندي، فاتّبعيني حتى تنظري إلى ذلك، فإنّه عندي في وادي كذا وكذا.

فلما سمعت (رحمةُ) ذلك منه عجبت، واتبعته غيرَ بعيد حتى وقفها على ذلك الوادي، وسحر عينيها حتى رأت ما كانت فقدته من أموالهم. فقال: أنا صادق أم لا؟ فقالت: لا أدري حتى أرجع إلى أيّوب. فرجعت وأخبرته بذلك، فتألم وأنكر عليها وغضب؛ فسألته أن يعفو عنها ولا تعود؛ فقال: قد نهيتك مرّة وهذه أخرى، وأقسم إن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدةٍ على كلامها لإبليس.

قال: ولبث أيوب في بلائه ثماني عشرة سنةً حتى لم يبق إلّا عيناه تدوران في رأسه، ولسانه ينطق به، وقلبه على حالته، وأذناه يسمع بهما.

قال: وعجزت (رحمة) في بعض الأيام عن تحصيل القوت، وطافت القرية حتى أتت إلى امرأة عجوز فشكت لها ذلك؛ فقالت العجوز: يا رحمة، قد زوّجت ابنتي، فهل لك أن تعطيني ضفيرتين من ضفائرك لأزين بهما ابنتي، وأعطيك رغيفين. فأجابتها رحمة إلى ذلك، وأخذت الرغيفين، وجاءت بهما إلى أيوب؛ فأنكرهما أيوب وقال: من أين لك هذين؟ فأخبرته بالقصة؛ فصاح أيوب وقال ما أخبر الله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣].

فأوحى الله إليه: يا أيّوب، قد سمعت كلامك، وسأجزيك على قدر صبرك؛ وأمّا رحمة فلأرضينّها بالجنة.

ذكر كشف البلاء عن أيّوب عليه السلام

قال: فلما كان يوم الجمعة عند زوال الشمس، هبط عليه جبريل فسلّم عليه فردّ عليه وقال: من أنت؟ قال: أنا جبريل، وبشّره بالشفاء، وأن الله قد وهب له أهلَه وماله وولده ومِثلَهم معهم لتكون آية، فبكى أيّوب من شدّة الفرح وقال: الحمد لله الذي لم يشمت بي عدوّي إبليس. فقال له جبريل: قم يا أيّوب. فلم يستطع؛ فأخذ بيده وقال: قم بإذن الله. فقام على قدميه، فقال له جبريل: اركض[1] برجلك هذه الأرض. فركضها، فنبعت عين من الماء تحت قدميه أشدّ بياضًا من الثلج وأحلى من العسل وأذكى من المسك؛ فشرب منه شربة فسقط ما في بدنه من الدود، ثم أمره جبريل فاغتسل من تلك العين، فخرج ووجهه كالقمر وعاد إليه حسنه وجماله؛ ثم

(١) ركض برجله الأرض: ضربها وحرّك أديمها.

ناوله جبريل خلعتين[١]، فاتزر[٢] بواحدة وارتدى بالأخرى؛ وناوله نعليْن من الذهب شِراكهما[٣] من الياقوت؛ وناوله سفرجلةً من الجنّة؛ ثم قام إلى الصلاة، فأقبلت رحمة وقد طردها الناس من كل الأبواب؛ فلما صارت إلى ذلك المكان رأته وقد تغيّر، فظنت أنها قد أخطأت الطريق؛ فقالت: أيها المصلّي كلّمني. فلم يكلّمها، وثبت في صلاته؛ فقال له جبريل: كلمها. فقال: ما حاجتك؟ قالت: هل عندك علم بأيوب المبتلَى فإنّي خلّفته هٰهنا ولست أراه.

فتبسّم أيوب وقال: إن رأيتِه عرفتِه؟ فقالت: والله إنّك لأشبه الناس به قبل بلائه. فضحك وقال: أنا أيوب. فبادرت إليه واعتنقته، وبشرهما جبريل بأولادهما وما فقداه من الأموال وغيرها ومثلِهم معهم، وأمطر الله عليهم جرادًا من ذهب؛ وكان له بَيْدَران، فأرسل الله سحابتين فأفرغتا في أحدهما ذهبًا وفي الآخر فضة حتى فاض أحدهما على الآخر.

قيل: إنه كان له بعد العافية أربعةُ آلاف وكيل، رزقُ كلٍّ واحد في الشهر مائةُ مثقال[٤] من الذهب، وبين يديه اثنا عشر من البنين، ومِثلهم من البنات وملّكه الله جميع بلاد الشأم، وأعطاه مِثلَ عمره الّذي عُمِّره في الماضي.

فلما أدركته الوفاة أوصى أولادَه أن يخلفوه[٥] في ماله كما كان يفعل مع الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل؛ ثم مات، وتوفيت امرأته قبله.

وقيل: بعده بقليل؛ فدفن إلى جانب العين التي أذهب الله بلاءه فيها.

قال الثعلبيّ رحمه الله تعالى: وكانت مدّة ابتلائه ثماني عشرة سنة.

الباب السادس
من القسم الثاني من الفن الخامس
في خبر (ذي الكفل)

اختلف العلماء في (ذي الكفل) من هو؟ فقال الكسائي: هو ابن أيوب عليهما السلام وذكر قصته فقال:

(١) الخلعة: الثوب.
(٢) ائتزر: أي جعله إزارًا له.
(٣) الشّراك: الرّباط.
(٤) المثقال: ما يوزن به.
(٥) أن يخلفوه في ماله: أي أن يتبعوا سيرته وسنّته.

لما قبض الله عزّ وجلّ أيوب عليه السلام سار ابنه حوميل - وهو أكبر أولاده - في الناس سيرة أبيه، حتى خرج عليهم ملِك من ملوك الشأم يقال له: لام بن دعام، فغلَب على بلاد الشأم، وبعث إلى حوميل يقول: إنكم ضيّقتم علينا بلاد الشأم، وأريد منكم نصف أموالكم وتزوّجوني أختكم حتى أقرّكم على ما أنتم عليه، وإلّا سرتُ إليكم بخيلي ورَجِلي وجعلتكم غنيمة.

فأرسل إليه حوميل يقول: إن هذه الأموال التي في أيدينا ليس لأحد فيها حق إلا الفقراءِ والمساكينِ والأيتامِ والأرامل؛ وأما أختنا فإنّك من غير ديننا، فلا نزوّجها لك؛ وأما تخويفك لنا بخيلك ورَجلك، فنحن نتوكّل على الله ربّنا، وهو حسبنا.

فجمع الملك جنوده وقصدهم، فالتقوا واقتتلوا قتالًا شديدًا، فكانت الكسرة على أولاد أيوب، وأُسِر بشير بن أيوب وجماعةٌ معه؛ وانقلب[1] حوميل بنفسه وجمع مالًا عظيمًا ليحمله إلى الملك ويخلّص أخاه منه؛ فبينما هو في ذلك إذ أتاه آت في منامه فقال: لا تحمل هذا المال، ولا تخف على أخيك، فإن هذا الملِك يؤمن، وتكون عاقبة أمره خيرًا.

فلما أصبح قصّ رؤياه على إخوته، ففرحوا؛ فبلغ الملكَ توقّفُه في حمل المال فأرسل إليه يقول: احمل ما تكفل به أخاك من المال وإلّا أحرقتُه بالنار. فبعث إليه: إني قد أُمرت ألّا أحمل لك شيئًا، فاصنع ما أنت صانع. فغضب الملك وأمر أن تجمع الأحطاب؛ فجُمعت وألقَى فيها النار والنِّفْط، وأُمر ببشير فألقى فيها فلم تُحرِقه؛ فعجب الملكُ من ذلك، وآمن بالله، واختلط بعضهم ببعض، وزوّجوه أختهم، وسمي بشير ذا الكفل، وأرسله الله إلى الشأم؛ وكان الملِك يقاتل بين يديه الكفار، فلم يزل كذلك حتى مات أولاد أيوب؛ ثم مات الملِك وغلب العمالقةُ[2] على الشأم، إلى أن بعث الله عزّ وجلّ شعيبًا رسولًا.

وحكى الثعلبي في تفسيره وقصصه في قصّة ذي الكفل غير ما تقدّم، وساق القصّة تلوَ قصة اليسع، فقال: قال مجاهد: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت

---

(١) انقلب: رجع.

(٢) العمالقة: وهم بنو عمليق «ويقال: عملاق» بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وهم أئمة عظيمة يضرب بهم المثل في الطول والجثمان. قال الطبري: وتفرّقت منهم أمم في البلاد، فكان منهم أهل عُمان، والبحرين والحجاز وملوك العراق والجزيرة وجبابرة الشّام، وفراعنة مصر = «صبح الأعشى ١/ ٣٦٥».

رجلًا على الناس فعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس وقال: من يتكفّل لي بثلاثةٍ أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب.

فقام رجل شاب تزدريه العين قال: أنا. فردّه ذلك اليوم؛ وقال مثل ذلك في اليوم الآخر؛ فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا. فاستخلَفَه؛ فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم؛ فقال: دعوني وإياه. فجاءه في صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة[1]، وكان لا ينام بالليل إلّا تلك النومة؛ فدقّ الباب؛ فقال: من هذا؟ فقال: شيخ مظلوم. ففتح الباب، فجعل يقص عليه قصته، فقال: إن بيني وبين قوم خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا وفعلوا؛ وجعل يطوّل عليه حتى حضر الرواح[2] وذهبت القائلة؛ فقال له: إذا رحتُ فإنّي قد آخذ بحقك. فانطلق وراح، فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره؛ فلما رجع وأخذ مضجعه أتاه ودقّ الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا الشيخ المظلوم. فقال: ألم أقل لك: إذا قعدتُ فأتني. قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نطيعك ونعطيك حقّك، وإذا قمتَ جحدوني.

قال: فانطلِق، فإذا رحتُ فاتني، ففاتته القائلة، فراح فجعل ينظر فلا يراه وشقّ عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعنّ أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق عليّ النعاس. فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل، فنظر فرأى كوّة[3] في البيت، فتسوّرها فإذا هو في البيت، وإذا هو يدقّ الباب من داخل؛ فاستيقظ ذو الكفل، وقال: يا فلان، ألم آمرك ألّا تأذن لأحد عليّ؟ فقال: أمّا من قِبلي فما أُتيتَ، فانظر من أين أتيت.

فقام إلى الباب فإذا هو مغلق والرجل معه في البيت، فقال له: أتنام والخصوم ببابك؟ فقال: فعلتها يا عدوّ الله. قال: نعم، أعييتني[4] في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك، فعصمك الله مني، فسمّى ذا الكفل، لأنه متكفّل بأمر فوفى به.

وروى الثعلبيّ أيضًا بسند رفعه إلى ابن عمر[5] رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدّث حديثًا لو لم أسمعه إلّا مرة أو مرتين لم أحدّث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات.

---

(١) القائلة: النّوم في الظهيرة.

(٢) الرّواح: العشي.

(٣) الكوّة: الفتحة في الحائط.

(٤) أعييتني: أي جعلتني أفقد صبري وأتعبتني.

(٥) هو عبد الله بن عمر بن الخطّاب العدوي، أبو عبد الرحمـٰن، صحابي جليل، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، وهو آخر من توفي من الصحابة وذلك سنة ٧٣ هـ «الأعلام ٤/١٠٨».

قال: كان في بني إسرائيل رجلٍ يقال له: ذو الكفل، لا ينزع عن ذنب عمله، فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن تعطيه نفسها؛ فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة أرعدت وبكت؛ فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل ما عملته قطّ. قال: أكرهتِك؟ قالت: لا، ولكن حملتني عليه[١] الحاجة. قال: اذهبي فهي لك. ثم قال: والله لا أعصي الله أبدًا. فمات من ليلته. فقيل: «مات ذو الكفل» فوجدوا على باب داره مكتوبًا: إن الله قد غفر لذي الكفل.

وقال أبو موسى الأشعريّ[٢] رضي الله عنه إنّ ذا الكفل لم يكن نبيًّا ولكنه كان عبدًا صالحًا، تكفّل بعمل رجل صالح عند موته، فكان يصلّي لله تعالى في كل يوم مائة صلاة، فأحسن الله عزّ وجلّ عليه الثناء.

وقيل: كان رجلًا عفيفًا، تكفل بشأن رجل وقع في بلاء، فأنجاه الله تعالى.

وقيل: ذو الكفل، هو إلياس النبيّ عليه السلام.

وقيل: هو زكريا النبيّ عليه السلام؛ والله تعالى أعلم.

الباب السابع
من القسم الثاني من الفن الخامس
في خبر شعيب النبيّ عليه السلام

هو شعيب بن صنعون بن عفّا بن نابت بن مدين بن إبراهيم عليه السلام.

قال: وعاش مدين عمرًا طويلًا، وكان قد تزوّج امرأة من العمالقة فولدت له أربعة بنين، ونسلوا فكثر عددهم في حياة مدين، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصّنوها من العمالقة؛ ففعلوا ذلك، وجعلوا أبوابها من الحديد، وسموها مدين باسم أبيهم، وجعلوها محالَّ لقبائلهم، فرغبت العمالقة في مجاورتهم، وامتلأت المدينة من العمالقة ومن أهلها حتى ضاقت بهم، فخرجت العمالقة من مدين ونزلوا بالأَيْكة[٣]، ـ وكانت غَيضةً عن يمين مدين ـ فبنوا هناك

---

(١) حملتني عليه الحاجة: أي أجبرتني.

(٢) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، صحابي من الشجعان، وأحد الحكمين في صفّين توفي في الكوفة سنة ٤٤ هـ «الأعلام ٤/ ١١٤».

(٣) الأيكة: مكان تكثر فيه الأشجار والمياه، وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين.

الدُّور لأنفسهم، واختلطوا بأهل مدين، وكان أهل مدين يعبدون الله، وأصحاب الأيكة يعبدون الأصنام، ولا يعدو بعضهم على بعض؛ وكان (صنعون) والد شعيب من العبّاد والعلماء بمدين، وتحته امرأة من العمالقة، فولدت له شعيبًا في نهاية الجمال؛ فلمّا كبِر أعطاه الله فهمًا وعلمًا؛ وكان قليل الكلام دائم الفكر؛ وكان أبوه إذا تأمّل ضعفه ونحافته يقول: اللهم إنك كثّرت الشعوب والقبائل في أرض مدين، فبارك لي في شعيبي هذا. يعني ولده. فرأى في منامه أن الله تعالى قد بارك لك في شعيبك هذا، وقد جعله نبيًا إلى أهل مدين. فسمّي شعيبًا لذلك.

وتوفّي والده فقام شعيب مقامه، وبرّز بالزهد على أهل زمانه، واشتهر بالعبادة.

قال: وكان ملكُ الأيكة ـ واسمه أبو جاد ـ قد اتخذ لقومه أصنامًا، وهي ثلاثون صنمًا، عشرة من الذهب حَلّاها بالجوهر خاصّة به وبأولاده، والبقية من الفضة والنحاس والحجارة والحديد والخشب لبقية الناس.

قال كعب في تفسير (أبجد): إنها أسماء ملوك مدين.

وقيل: بل ملوك الأيكة، وهم أبو جاد وهوّز وحطّي وكلمن وسعفص وقرشت.

قال: وكان أهلُ مدين أصحابَ تجارات يشترون الحنطة والشعير وغيرَهما من الحبوب، ويجلبون ذلك من سائر البلدان يتربّصون[1] به الغلاء، وهم أوّل من تربّص؛ وكان لهم مكيالان: وافٍ يكتالون به لأنفسهم عند الشراء، وناقصٌ يكيلون به للإعطاء، وكذلك في وزنهم؛ فكانوا على ذلك وشعيب بين أظهرهم وهو لا يخالطهم، وله غنم ورثها من أبيه يأكل من منافعها، وهو عظيم المحلّ[2] عندهم.

فبينما هو ذات يوم على باب منزله مشتغل بالذكر، إذ جاءه رجل غريب فقال: إنّ هؤلاء القومَ يظلمون الناس، وإني اشتريت منهم مائة مكيال بمائة دينار وقبضوا الثمن وزيادة، والذي كالَه منهم نقصَ عشرين مكيالًا. فقال له شعيب: ارجع إليهم فلعلّهم قد غلطوا عليك. قال: قد راجعتهم فضربوني وسبّوني، وقالوا: هذه سنّتنا في بلدنا. والتمس الرجل من شعيب أن يساعده عليهم؛ فخرج شعيب معه حتى صار إلى سوقهم، وسألهم عن قصّته فلم ينكروها، وقالوا: ألم تعلم يا شعيب أنّ هذه سنّة

(١) يتربّصون: ينتظرون الوقت المناسب. (٢) المحلّ: المكانة والمنزلة.

آبائنا في بلدنا؟ قال ليس هذا من السنة. فعذلهم[1]، فلم يرجعوا إلى قوله وضربوا الرجل حتى أدموه، وانصرف شعيب إلى منزله.

ذكر مبعث شعيب عليه السلام

قال: فأتاه جبريل في الحال، وأخبره أنّ الله قد بعثه رسولًا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة وغيرِهم ممّن يعبدون الأصنام، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته، وألّا يبخسوا الناس أشياءهم.

قال: وأقبل شعيب إلى أهل مدين وقال لهم ما أخبر الله تعالى به في كتابه: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: الآيات ٨٤ - ٨٦].

فلما سمعوا ذلك منه أجابوه بما أخبر الله به عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: الآيات ٨٧ - ٩٠].

ثم انصرف عنهم، وعاد إليهم من الغد وقد اجتمعوا مع ملكهم أبي جاد؛ فوقف عليهم ونهاهم عن عبادة الأصنام وبخس المكيال والميزان؛ فقالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: الآيتان ٩١، ٩٢].

---

(١) عذلهم: لامهم.

فاستهزأ القوم به، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: الآية ٩٣].

فكذّبه سفهاء قومه، كما أخبر الله عنهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيات ١٧٦ - ١٨٨].

ثم قال له الملك: قد بلّغت رسالتك بزعمك، وقد سمعناها وأبينا، فلا تعد إلينا فترى ما لا طاقة لك به. فقال: أنا رسول الله إليكم، وإن أعود أدعوكم حتّى ترجعوا إلى طاعة الله. فغضب الملك، وانصرف عنهم شعيب؛ وآمن به رجل من وزراء الملك، واستكتمه إيمانه، فكتمه شعيب؛ ثم عاد من الغد وقد خرج الملك ومن معه إلى سوقهم، وأخرجوا أصنامهم ونصبوها، وأمر الملك في أهل مدين والأيكة: من سجد لأصنامنا فهو منّا، ومن أبى عذّبناه عذابًا شديدًا. فسجد القوم بأجمعهم للأصنام؛ فناداهم شعيب: إنّ هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع، فاتركوا عبادتها. وحذرهم عذاب الله. فقالوا: إنك تدعونا بغير حجة، فهل لك حجة على دعواك النبوة؟ قال لهم شعيب: إن نطقت هذه الأصنام بصدق مقالتي أتؤمنون؟ قالوا: نعم. ورضي الملك بذلك؛ فتقدّم شعيب إلى الأصنام وقال لها: أيتها الأصنام، من ربّك؟ ومن أنا؟ تكلّمي بإذن الله. فنطقت بإذن الله وقالت: ربّنا الله وخالقنا وخالقُ كلّ شيء، وأنت رسول الله ونبيّه. وتنكّست عن كراسيّها ولم يبق منها صنم صحيح؛ وأرسل الله على قوم شعيب ريحًا كادت تنسفهم نسفًا فأسرع الملك ومن معه إلى منازلهم، وآمن بشعيب خلق كثير؛ ثم أصبح الملك ومن معه فخرجوا إلى سوقهم، ونصبوا ما كان قد بقي عندهم من الأصنام، وأمرهم بالسجود لها؛ فأتاهم شعيب ونهاهم وحذرهم فلم يرجعوا إليه، وأمر الملك أصحابه أن يقعدوا لشعيب ولمن معه كلّ مرصد[1]، ويؤذوهم أشدّ الأذى؛ ثم قال الملك وقومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ

(١) قعدوا كلّ مرصد: أي ترصّدوا لهم المكان وراقبوا طرقهم، وتعرّضوا لهم.

ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: الآيتان ٨٨، ٨٩].

قال: وإذا بريح قد هاجت عليهم فيها من الحرّ والكرب ما لا طاقة لهم به حتى رموا أنفسهم في الآبار والسراديب[1]، واشتدّ الحرّ ودام عليهم مدّة وهم لا يزدادون إلا عتوًّا وتمرّدًا، وشعيب يدعوهم ويحذّرهم العذاب؛ فيقولون: لسنا نرى من عذاب ربّك إلا هذا الحرّ، ونحن نصبر عليه.

وأقاموا كذلك أعوامًا كثيرة وهم لا يؤمنون؛ فأرسل الله عليهم الذباب الأزرق، فكان يلدغهم كالعقارب، وربما قتل أولادهم؛ ثم تضاعف الحرّ عليهم فتحوّلوا من مدين إلى الأيكة، فتضاعف الحرّ عليهم، وتنقّلوا من الأودية إلى العياض والحرّ يشتدّ عليهم، حتى اسودّت وجوههم، فأقبل إليهم شعيب ودعاهم إلى الإيمان؛ فنادوه: يا شعيب، إن كان ما نلقاه لكفرنا بك وبربك فزدنا منه فإنا لا نؤمن. فأوحى الله إليه أنّه مهلكهم، فتحوّل عنهم.

ذكر خبر الظُّلّة

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٨٩، ١٩٠].

قال: ولما كان من غد يوم مقالتهم ما قالوه لشعيب وهو يوم الأربعاء وإذا بسحابة سوداء قد ارتفعت فأظلّتهم، فاجتمعوا تحتها يستظلون بها من الحرّ فانطبقت عليهم حتى لم يبصر بعضهم بعضًا؛ واشتدّ الحرّ؛ ثم رمت بوهجها وحرها حتى أنضجت أكبادهم وأحرقتهم وجميع ما كان على وجه الأرض، وشعيب والمؤمنون ينظرون إلى ما نزل بهم، ويتأمّلون مصارعهم، ولم ينلهم من ذلك مكروه. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: الآية ٩٤] يعني صيحة جبريل، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: الآيتان ٩٤، ٩٥]، ثم أقبل شعيب والمؤمنون ينظرون إلى مصارع القوم. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:

---

(١) السّراديب: الحفر تحت الأرض، ولها مخارج.

الآية ٩٣] معناها، كيف أحزن عليهم. ثم قسم شعيب أموال الكفار على قومه، وتزوّج بامرأة من أولاد المؤمنين، ورزقه الله رزقًا حسنًا، ولم يزل بأرض مدين حتى كفّ بصره، وجاء موسى بن عمران من أرض مصر، وزوّجه ابنته ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ.

القسم الثالث

من الفنّ الخامس

يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون؛ وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغيلا وأشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متّى وجرجيس وبلوقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى، عليهم السلام، وأخبار الحواريين

وفيه ستة أبواب؛ والله أعلم بالصواب:

الباب الأوّل

من القسم الثالث من الفن الخامس

في قصة موسى بن عمران وهارون عليهما السلام وخبر فرعون وابتداء أمره وغرقه، وأخبار بني إسرائيل، وخبر قارون، وحروب موسى عليه السلام

ولنبدأ بخبر فرعون وابتداء أمره، وكيف توصل إلى الملك، ثم نذكر قصة موسى عليه السلام معه، ليكون الكلام في ذلك على سياقه.

فأمّا فرعون، فهو الوليد بن مصعب.

قال وهب: كان مصعب بن نُسَيم بمصر يرعى البقر لقومه، وله امرأة يقال لها: راعونة، وهما من العمالقة؛ فأتت عليه مائة وسبعون سنة لم يرزق ولدًا، فبينما هو في برّيّة مصر إذا ببقرة قد ولدت عجلًا؛ فتأوّه وحسد البقرة؛ فنادته: يا مصعب لا تعجل، فسيولد لك ولد مشؤوم يكون من أهل جهنم. فرجع وذكر ذلك لامرأته، وواقعها فحملت بفرعون، ومات أبوه قبل ولادتها؛ ثم ولدته أمّه وسمّته الوليد، وأخذت في إرضاعه وتربيته حتى كبر، فأسلمته إلى النجارين؛ فأتقن صناعة النجارة؛

ثم ولع بالقمار، فعاتبته أمّه؛ فقال: كفّي عني فأنا عون نفسي. فلزمه هذا اللقب، فكان يُعرف بعون نفسه، فقامر في بعض الأيام، فقمروه[١] في قميصه، وبقي في خلق لا يستره؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك؛ فهرب حتى صار إلى قرية من قرى مصر؛ فعرض نفسه على بقّال، فخدمه، وكان يضرب المشترين ويؤذيهم حتى نفروا من البقّال؛ فطردوه فعاد إلى مصر؛ وكانوا يقولون: (فَرَّ عَوْن).

قال: ورجع إليها وهو لا يملك إلّا درهمًا واحدًا، فاشترى به بقلًا وبطيخًا وقعد يبيعه، فجاءه عريف[٢] الطريق وطالبه بحق الطريق؛ قال: وما هو؟ قال: درهم. فتلاحيا[٣]؛ فترك فرعون رحله ومضى، وجعل يسرق وينقب[٤]، فيهرب مرة ويؤخذ أخرى.

فاتفق أن رجلًا من العمالقة جمح به فرسه فعجز عن ضبطه، فوثب فرعون إلى الفرس وضبطه بلجامه؛ فقال له العمليقيّ: أراك جلدًا قويًا. فاتخذه سائسًا؛ فجعل يخدمه حتى مات الرجل وليس له وارث؛ فاحتوى فرعون على جميع ماله وحمله إلى أمّه، وأكل ذلك المال حتى فني، وضاق به الأمر، فوقع في قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر ويطلب أرباب الجنائز بشيء، ويُظهر أنه بإذن الملك؛ ففعل ذلك مدّة حتى اجتمع له مال عظيم؛ واتخذ له أعوانًا وحفدًا[٥] يعينونه على ذلك؛ وكان الملك بعد أن أهلك الله الريان بن الوليد يتوارثه الفراعنة؛ واستقرّ في سنجاب بن الوليد، وكان مكرمًا لبني إسرائيل، وكانوا يعبدون الله علانية ويتلون الصحف جهرًا.

قال: فماتت ابنة للملك؛ فحملت إلى المقبرة، فتعلق بها أعوان فرعون على العادة لأخذ القطيعة[٦]؛ فاتصل الخبر بالملك؛ فأمر بإحضاره وأراد قتله؛ فقصّ عليه قصّته، وفدى نفسه بما جمعه من المال؛ فعظم عند الملك وأقرّه على عمله؛ فقرّر فرعون عند ذلك على جنائز الملوك ألف درهم، وعلى جنائز الوزراء سبعمائة والقوّاد خمسمائة، ثم إلى المائة، إلى الخمسين، إلى عشرة، إلى ثلاثة؛ فاجتمع الناس إلى الملك وحرّفوا رأيه[٧] عن هذه الحالة وقبّحوها عليه؛ فصرفه الملك عنها وأبطلها؛

---

(١) قمروه: أي غلبوه فخسر قميصه في القمار.
(٢) عريف الطريق: الذي أوكل إليه أمرُها وجمع الجزية منها.
(٣) تلاحيا: تسابّا وشتم كلّ واحدٍ منهما الآخر.
(٤) ينقب: يدخل البيوت بعد أن يحدث خروقًا في جدرانها.
(٥) الحفد: الخدم.
(٦) القطيعة: الجزية أو الرّسم.
(٧) حرّفوا رأيه: صرفوه عنه.

وحمل إليه فرعون أموالًا جمّة، وقال له: أيها الملك، إنّ جدّي كان على حرس أبيك، فاجعل ذلك إليّ. فولّاه الحرس وأمره أن يشدّد فيه، ويقتل كلّ من لقيه بالليل كائنًا من كان؛ وجعل الملك معه عدّة من الرجال والأعوان؛ فخرج فرعون واتخذ لنفسه قبّة في وسط البلد، وكان يوجّه أعوانه، فمن أتوه به في الليل أمر بقتله؛ فتقدّم عند الملك بذلك، لأنه أخاف أعداء الملك، وأمن الملكُ جانبهم بسببه، وخافه الناس، وجعل لنفسه حاجبًا، ونفذت كلمته.

ذكر خبر قتل الملك واستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره

قال: واتفق مرض بعض وزراء الملك ـ وكان الملك يأنس إليه ويقتدي برأيه ـ فأحبّ أن يزوره بالليل؛ فخرج منفردًا وليس معه أحد من خدمه؛ فأخذه أعوان فرعون وأتوه به وهو يقول: ويلكم، أنا الملك سنجاب، وهم يظنون أنه يخدعهم بذلك، حتى أتوا به إلى فرعون، فأمر بقتله، فقتل؛ وبادر فرعون بمن معه ـ وكان فيهم كثرة ـ ودخل القصر، وكان لا يمنع منه؛ فاستوى على سرير الملك ووضع التاج على رأسه، وفتح الخزائن، وأحضر الوزراء وفرّق فيهم الأموال فرضُوا به، وصاروا أولياء له.

قال: وأتاه إبليس وسجد بين يديه، وسمّاه إلـٰهًا وربًا؛ ثم سجد له هامان وكان غلامًا لسنجاب ـ وسجد الوزراء والملوك والأعوان وغيرهم؛ وبعث إلى أسباط[1] بني إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له؛ فسجدوا وقصدوا بالسجود الله تعالى.

ثم أقبل فرعون بعد ذلك على إبليس وقال: أيها الشيخ، إنّك كنت مباركًا وأنت أوّل من سجد لي، ثم جرى القوم بعدك على سنّتك، فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل مصر أشير على الملوك بمصالحهم. ثم قال لفرعون: اتخذ لقومك أصنامًا واحملهم على عبادتها، واتخذ لك صنمًا انفرد به أنت، واجعله إلـٰهًا وربًا. فوافقه فرعون على ذلك، واتخذ له ثورًا من ذهب يعبده، وأمر الناس بعبادة الأصنام؛ فعبدوها؛ فكان فرعون يعبد الثور، والقبط يعبدون الأصنام، وبنو إسرائيل يعبدون الله؛ فبلغه ذلك، فأحضر عُبّادهم وقال: قد بلغني أنكم مطيعون لي في الظاهر،

---

(١) الأسباط: عند اليهود كالقبائل عند العرب.

مخالفون لي في الباطن، فاسجدوا لي. فأبوا ذلك، وكان فيهم جماعة من أولاد يوسف ويهوذا، فقتلهم، ثم قتل خلقًا كثيرًا، وتبعه الباقون وأسرّوا[١] الإيمان؛ ثم إن فرعون استعبد الناس ووضع عليهم الخَرَاج الكثير، وشقّ عليهم في الأعمال.

هذا ما حكاه الكسائيّ رحمه الله في خبر فرعون وابتداء أمره وسببِ ملكه.

وحكى أبو إسحٰق الثعلبي رحمه الله في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن): أنّ فرعون موسى هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريّان بن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكنّاه بهذه الكنية.

قال: وملك بعد أخيه قابوس بن مصعب؛ وذلك أنه لما مات الريان بن الوليد فرعونُ يوسف عليه السلام وذكر أنّه قد آمن بيوسف ومات قبل وفاة يوسف عليه السلام ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف الثاني؛ فدعاه يوسفُ إلى الإسلام، فأبى، وكان جبّارًا، وقبض الله تعالى يوسف في ملكه، وطالت أيّام ملكه، ثم هلك؛ وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس الوليد بن مصعب، ولم يذكر خلاف ذلك.

وقد قيل في اسمه ونسبه وسبب ملكه غير ذلك، وسيرد إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك مصر الفراعنة ما ستقف عليه هناك إن شاء الله تعالى والله أعلم.

ذكر خبر آسية ابنةِ مزاحم وزواجِ فرعون بها

قال: وكانت آسية ابنةُ مزاحم من الصدّيقات، وهي مختلَف في نبوّتها ولا خلاف أنّها صدّيقة؛ وكانت بارعة الجمال؛ فبلغ فرعونَ خبرها وجمالها، فأرسل إلى أبيها مزاحم (أن ابعث إليّ بآسية فإنها أمتي). فدخل على فرعون وقال: إن ابنتي صغيرة لا تصلح. فكذّبه فرعون وقال: قد عرفت وقت ودلاتها. فقال: أيها الملك، فاجعل لها مهرًا. فغضب فرعون وقال: احملها إليّ، فإن رضيتُها أكرمتها، وإلّا رددتها إليك. فقال له عمران: أيها الملك، لا تفضحني في ابنة أخي، ولكن أكرمها بخلعة ومهر. فأجابه إلى ذلك؛ فانصرف مزاحم وأخبر آسية بذلك وقال: إن امتنعتِ يكون ذلك هلاكي وهلاكَكِ. قالت: فكيف تكون مؤمنةٌ عند كافر؟ فلم يزل بها حتى أجابت على كره منها؛ وحمل إليها فرعون عشرة آلاف أوقية من الذهب، ومثل ذلك

(١) أسرّوا الإيمان: كتموه.

من الفضّة، وجملةً من أنواع الثياب والطُّرَف، وحُملت إلى فرعون، فحماها الله منه حتى رضي منها بالنظر. وكان فرعون قد رأى قبل ذلك من الآيات ما دلّه على أن زوال ملكه يكون على يد فتى من بني إسرائيل؛ فقال: ائتوني بعمران لأنه كبير فيهم لأصطنع إليه[١] وإليهم معروفًا. فأُتي به، فخلع عليه[٢] وتوجّه، وجعله سيّد وزرائه، حتى كان هامان وغيرُه يحسدونه.

ذكر شيء من الآيات التي رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام

فمن ذلك أنه هتفت به الهواتف تقول: ويلك يا فرعون، قد قرب زوال ملكك على يد فتى من بني إسرائيل.

ثم رأى الرُّؤى التي أزعجته وأفزعته؛ فكان منها أنه رأى شابًا وقد دخل عليه وبيده عصًا، فضربه بها على رأسه وقال: ويلك يا فرعون، ما أقل حياءك من خالق السمٰوات، كلّما رأيت آية ازددت كفرًا. ونظر إلى آسية في المنام ولها جناحان تطير بهما بين السماء والأرض حتى دخلت السماء؛ ورأى الأرض قد انفرجت وأدخلته في جوفها؛ فانتبه فزعًا، وقصّ رؤياه على أهل العبارة[٣]، فقالوا: إنّها تدلّ على مولود يولَد يسلبُك ملكك، ويزعم أنه رسول إلٰه السماء والأرض ويكون هلاكك وقومك على يديه.

وكان فرعون قبل ذلك إذا عبّر عليهم رؤيا يقولون: هذه أضغاث[٤] أحلام ويكتمونه ما تدلّ عليه.

ذكر خبر قتل الأطفال

قال: فاستشار فرعون وزراءه وأهلَ مملكته؛ فأشاروا عليه بقتل من يولد من الذكور؛ فقتل اثنتي عشرة ألف امرأة وسبعين ألف طفل؛ وكان يعذّب الحوامل حتى يسقطن، حتى ضجّت الملائكة إلى ربّها؛ فأوحى الله إليهم بأن له أجلًا وبشّرهم بموسى؛ وكان فرعون قد منع وزراءه وكبار أهلِ مملكته من الاجتماع بأهاليهم

---

(١) اصطنع إليه: أحسن. (٢) خلع عليه: منحه وأعطاه.

(٣) أهل العبارة: أهل التأويل والتفسير.

(٤) الأضغاث: مفردها «الضغث» وهو التخليط والاضطراب.

والخلوة بهنّ، لأنه كان قد بلغه أن المولود يكون من أقرب الناس إليه؛ وكان عمران ممن مُنع؛ وكان فرعون إذا نام لا يفارقه حتى يستيقظ؛ فبينما عمران ذات ليلة على كرسيه عند رأس فرعون إذا هو بامرأته وقد حُملت إليه على جناح ملَك من الملائكة؛ فلما نظر عمران إليها فزع وقال: ما حاجتك هٰهنا؟ فسكتت؛ فقال له الملك: إن الله يأمرك يا عمران أن تأتي زوجتَك على فراش فرعون ليكون ذلك هوانًا[١] له. فواقعها فحملت بموسى؛ ثم اغتسلا في الحوض الذي في دار فرعون؛ ثم حملها الملَك وردّها إلى منزلها؛ وكان على باب فرعون ألف حاجب، والأبواب مغلّقة، فلم يُغن عنه ذلك؛ ولما أصبح فرعون دخل عليه المنجّمون وقالوا: إن الذي تخافه قد حملتْ به أمّه وقد طلع نجمه. فأمر فرعون القوابل والحواضن أن يدرن على نساء بني إسرائيل؛ ففعلن ذلك، ولم يعبرن بيت عمران لعلمهنّ بملازمته لفرعون ليلًا ونهارًا؛ فلما تمت أيّامها جاءها الطلق نصف الليل، وليس عندها إلا ابنتها، فوضعتْه ووجهه يتلألأ نورًا.

ذكر خبر ميلاد موسى
وما كان من أمره وإلقائه في التابوت

قال: وأصبحت أمّ موسى وهي شديدة الفرح به والخوف عليه؛ وسمع فرعون في تلك الليلة هاتفًا يقول: ولد موسى وهلكت يا فرعون وتنكّست الأصنام. فشدّد فرعون في طلب المولود، فكانت أمّه ترضعه، وإذا خرجت في حاجة ألقته في التنّور بمهده[٢] وغطّته؛ ففعلت ذلك في بعض الأيّام، وكانت أخته قد عجنتْ وأرادت أن تخبز، فسجرت[٣] التنور وهي لا تعلم أن موسى فيه؛ وجاء هامان والدايات فدخلوا دار عمران فلم يجدوا شيئًا، ونظروا إلى التنور والنار تعلو منه، فانصرفوا؛ وجاءت أمّ موسى فرأت الأعوان والحرس قد خرجوا من منزلها، فكاد روحها يَزهَق[٤] من الغمّ؛ فدخلت المنزل بسرعة نحو التنور، فرأت النار فيه؛ فلطمت وجهها وقالت: ما نفعني الحذر، أحرقتم ولدي. وانطلقتْ إلى التنور فرأت موسى ولم تمسّه النار؛ فأخرجته؛ ولمّا تم له أربعون يومًا فزِعتْ عليه، فاتخذت له تابوتًا ووضعته فيه، وألقته في اليمّ؛ وكان أبوه قد مات قبل ذلك ودفن، فلذلك اشتدّ خوف أمّ موسى.

---

(١) الهوان: الإذلال والاحتقار.
(٢) المهد: السّرير.
(٣) سجرت: أوقدت.
(٤) زهقت الروح: خرجت من البدن.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القَصَص: الآية ٧].

قال: فلمّا أتت به لتلقيه في النيل تصوّر لها إبليس في صورة حيّة سوداء وقال: إن ألقيتِه في اليمّ ابتلعتُه. فعلمتْ أنه إبليس؛ فسمعت النداء: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٧].

قال: فطرحته في النيل. فقيل: إنه بقي في الماء أربعين ليلة.

وقيل: ثلاثًا.

وقيل: ليلة واحدة.

ذكر دخول التابوت في دار فرعون ورجوع موسى إلى أمّه

قال: وأصبح فرعون في اليوم الذي دخل فيه التابوت إلى قصره، فصعد أعلى القصر وأشرف فرأى التابوت والموج يلعب به؛ وكان لفرعون سبع بنات من غير آسية، بكلّ واحدة منهنّ نوع من البلاء والمرض؛ وكان الأطبّاء قالوا له: إنّ دواءهنّ أن يغتسلن في النيل. فصنع لهنّ نهرًا من النيل وأجراه في وسط القصر يصب في حوض عظيم؛ فكانت بناته يغتسلن فيه؛ فأمر الله الريح أن تلقي التابوت في ذلك النهر وبنات فرعون فيه؛ فبادرت الكبرى وفتحته فإذا فيه موسى وله شعاع ونور؛ فلما لمسته أذهب الله ما بها من البلاء والمرض؛ فلمسته بنات فرعون واحدة بعد أخرى، فذهب ما بهنّ من الأمراض؛ وأقبلن بالتابوت إلى آسية؛ فلما رأته قبلته ولم تعلم أنه ابن عمّها؛ ثم أعادته إلى التابوت؛ وحملَتْه جارية معها ومضت به إلى فرعون؛ فلمّا نظر إليه أرعد[1] منه وقال: يا آسية، إني أخاف أن يكون هذا عدوّي، ولا بدّ لي من قتله. فقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص: الآية ٩].

وحكى الثعلبيّ أنها لما قالت: قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، قال فرعون: قرّة عين لكِ، أمّا أنا فلا حاجة لي فيه.

---

(١) أرعد منه: ارتجف وخاف.

قال أبو إسحٰق[(١)]: قال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلَف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت به لهداه الله تعالى كما هدى به امرأته ولكن الله تعالى حرمه ذلك».

قال الكسائي: ولم تزل تتلطّف بفرعون حتى تركه، وأحضرت له المراضع فلم يرضعهنّ. قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: الآية ١٢].

وأرسلت أمّ موسى ابنتها كلثم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ[(٢)] فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ [القصص: الآية ١١].

قال: فدخلت قصر فرعون فرأته في حجر آسية وقد امتنع أن يرضع؛ فتقدّمت إليها، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: الآية ١٢].

قال: ولم تعلم آسية أنها ابنةُ عمّها لرثاثة ثيابها، لأنها دخلت في حلية المراضع؛ فالتفت إليها فرعون وقال: مَن هؤلاء القوم الّذين يكفلونه؟ قالت: قوم من آل إبراهيم. قال: اذهبي وائتني بهم. فرجعت إلى أمّها وأخبرتها؛ فدخلت على فرعون وموسى بين يديه، فعرفتها آسيةُ وقالت: خذي هذا الصبيّ وأرضعيه. فلما أخذته التقم ثديها[(٣)] ورضع منه، وفرعون لا يعلم أنّها امرأة عمران؛ فقالت لها آسية: أحبّ أن تكونين عندي إلى أن يستغني هذا الغلام عن الرضاع. فأقامت عند آسية سنتين حتى فطمته وفارقته مستبشرة فرحة.

وحكى الثعلبيّ أنها لم تقم عند آسية، بل أخذته وصارت إلى منزلها فأرضعته إلى أن تمّ رضاعه، وأعادته إلى آسية؛ والله أعلم.

ذكر شيء من عجائب موسى ـ عليه السلام ـ وآياته

قال: فلمّا صار موسى من أبناء ثلاث سنين، استدعاه فرعون وأجلسه في حجره[(٤)] وجعل يلاعبه؛ فقبض على لحية فرعون؛ فتألّم لذلك وقال: لا شكّ أنّ هذا عدوّي. وهمّ بقتله؛ فقالت له آسية: إن الصبيان لهم جراءة ولعب من غير معرفة ولا

(١) أبو إسحٰق: هو الثعلبي أحمد بن محمد بن إبراهيم، المفسّر.
(٢) قصّيه: أي اتبعي أثره فانظري كيف يصنع به.
(٣) التقم ثديها: أي أقبل عليه بضمه راضعًا لبنها.
(٤) الحجر من الإنسان: حضنه.

عقل، وأنا أريك أنه لا يعقل؛ وأمرت بإحضار طست وطرحت فيه درّة وجمرة، وقدّمته إلى موسى، فأراد أن يأخذ الدرّة؛ فصرف جبريل يده عنها إلى الجمرة، فأخذها ورفعها إلى فيّه، فاحترق لسانه، فقذفها من فيّه وبكى بكاء شديدًا؛ فقالت آسية لفرعون: علمتَ أنه لا يميّز بين الدرّة والجمرة؟ فسكن عند ذلك.

قال: فلمّا تمّ لموسى سبع سنين، جلس في بعض الأيّام مع فرعون على سريره فقرصه فرعون، فغضب موسى ونزل عن السرير وضرب قوائمه برجله، فكسر قائمتين منه، فسقط فرعون عنه، وانهشم[1] أنفه وسال الدم على لحيته؛ فبادر موسى ودخل على آسية وأعلمها بالخبر، وتبعه فرعون إليها وأراد قتله؛ فقالت: ألا يسرّك أن يكون ولدك بهذه القوّة يدفع أعداءك عنك؟ ولاطفته حتى سكن غضبه.

ثم ظهر له من المعجزات والآيات ما لا يظهر إلّا للأنبياء وفرعون يكرمه؛ والله الموفّق.

ذكر خبر القبطيّ وخروج موسى من مصر

قال: ولما كبِر موسى صار يركب من مراكب فرعون ويلبس من ملابسه؛ وكان يدعى: موسى بن فرعون؛ فامتنع بسببه الظلم عن بني إسرائيل، ولم يعلم إلّا أنّ ذلك من قبل الرضاعة؛ واتفق ركوب فرعون، فركب موسى في أثره والمدينة مغلّقة الأسواق، وليس بها أحد؛ قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ١٥] فكان الذي من شيعته فتى من بني إسرائيل، والذي من عدوّه رجل من القبط، وهو طبّاخ لفرعون، وقد أخذ حطبًا للطعام، وهو يريد الإسرائيليّ على حمله وقد امتنع؛ فلما مرّ بهما استغاثه الإسرائيليّ؛ فقال للطبّاخ: اتركه. فامتنع من تركه؛ فوكزه موسى في صدره فمات؛ فندم موسى على قتله؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص: الآية ١٥].

قال: «فَأَصْبَحَ في الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ».

وجاء القبط وشكوا إلى فرعون أنّ بني إسرائيل قتلوا رجلًا منهم؛ فأمرهم أن يطوفوا على قاتله؛ وخرج موسى في اليوم الثاني، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ

(١) انهشم: تكسّر.

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ١٨] على قبطيّ آخر، والقبطيّ يقول: هذا الّذي قتل ابن عمّي بالأمس. فقال الإسرائيليّ: أعنّي يا موسى على هذا، فإنّه يريد أن يحملني إلى دار فرعون ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص: الآية ١٨].

قال: ثم لم يجد موسى بدًّا من نُصرة الإسرائيليّ، فحسر عن ذراعيه، ودنا من القبطيّ؛ فظنّ الإسرائيليّ أنّ موسى يريد أن يبطش به، فقال ما أخبر الله به عنه: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القَصَص: الآية ١٩].

فلمّا سمع القبطيّ كلام الإسرائيليّ لموسى تحقق أن موسى قاتل ابن عمه؛ فدخل إلى دار فرعون وأخبره أن موسى هو الّذي قتل القبطيّ؛ قال: ومن أعلمك؟ فقصّ عليه القصة؛ فأذن فرعون لأولياء المقتول في قتل موسى حيث وجدوه؛ فجاء حزقيل ـ وكان مؤمنًا من آل فرعون ـ وأعلم موسى بالخبر.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص: الآيات ٢٠ - ٢٢].

ومضى بغير زاد ولا راحلة[1]؛ فمرّ براعٍ في طريقه، فأعطاه موسى ثيابه، وأخذ جبّة الراعي وكساه، وسار فوصل إلى مدين في اليوم السابع وقد أجهده[2] الجوع.

قال: وكان موسى يسير بالليل ودليله النجم، فإذا جاء الصبح جاءه أسدان يدلّانه على الطريق؛ فكان هذا دأبه وهُما كذلك حتى ورد مدين؛ والله الهادي.

ذكر خبر ورود موسى مدين
وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ابنته

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القَصَص: الآية ٢٣] وكانتا ابنتي شعيب عليه السلام.

(١) الراحلة: ما يركب من الدّواب.
(٢) أجهده الجوع: أتعبه.

قال: وكان الرّعاء إذا سقَوا غطّوا البئر بصخرة لا يرفعها إلّا جماعة؛ فلمّا انصرفوا تقدّم موسى إلى الصخرة فوكزها برجله، فدحاها[1] أربعين ذراعًا على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما.

قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القَصَص: الآية ٢٤].

قال: فتمنّى موسى في ذلك الوقت شبعةً من خبز الشعير؛ وانصرفت المرأتان إلى أبيهما وأخبرتاه بالخبر، فأرسل إحداهما إليه وقال: ائتيني به. قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ [القَصَص: الآية ٢٥].

فقام موسى، وكانت تمرّ بين يديه فكشف الريحُ عن ساقيها؛ فقال لها: تأخّري ورائي ودلّيني على الطريق. فتأخّرت وكانت تقول: عن يمينك وعن شمالك. حتى دخلا مدين؛ وجاء إلى شعيب ـ وهو شيخ كبير وقد كفّ بصره ـ فسلّم عليه؛ فردّ عليه ورحّب به وسأله عن خبره. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٢٥].

ثم دعا شعيب بالطعام فأكل؛ فقالت ابنته: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القَصَص: الآية ٢٦] أرادت بالقوّة رفع الحجر عن رأس البئر واستقاءه بالدلو العظيمة، وأمانتِه أنه أخّرها إلى خلفه.

فرغب فيه وقال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القَصَص: الآيتان ٢٧، ٢٨].

فتزوّج موسى صفورًا ـ وهي الصغرى منهما ـ وطلب عصا؛ فقالت له: ادخل بيت أبي الّذي يأوي فيه فخذ عصاك. وكان فيه عصيّ كثيرة ـ فدخل موسى البيت وأخذ من العصيّ عصا حمراء؛ فقال له شعيب: هذه من أشجار الجنة أهداها الله إلى آدم، ثم صارت إلى شيث وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب، وكلهم توكّأوا عليها، فلا تخرجنّها من يدك. ثم أوصاه وحذّره من أهل

---

(١) دحاها: رماها بعيدًا.

مدين، وقال: إنّهم قوم وحسدة، وإذا رأوك قد كفيتني[١] أمر غنمي حسدوني عليك، فدلّوك على وادي كذا وكذا، وهو كثير المرعى، وإنما فيه حيّة عظيمة تبتلع الغنم، فإن دلّوك عليه فلا تمرّ به، فإنّي أخاف عليك وعلى غنمي.

فخرج موسى بالغنم ـ وكانت يومئذٍ أربعين رأسًا ـ وقال في نفسه: إنّ من أعظم الجهاد قتلَ هذه الحيّة. وتوجه بالغنم إلى ذلك الوادي؛ فلمّا قاربه أقبلت الحيّة إلى الغنم، فقتلها موسى ورعى غنمه إلى آخر النهار، وعاد إلى شعيب وأعلمه الخبر؛ ففرح بقتلها، وفرح أهل مدين وعظّموا موسى وأجلّوه؛ وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها، حتى انقضت المدّة التي بينهما، وبلغت أربعمائة رأس وعزم موسى على المسير.

ذكر خبر خروج موسى ـ عليه السلام ـ من أرض مدين ومناجاته ومبعثه إلى فرعون

قال: ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال: يا موسى، إنّي قد كبِرت وضعفت، فلا تضيّعني مع كبر سنّي وكثرة حسّادي، وتترك غنمي شاردةً لا راعي لها. قال موسى: إنّها لا تحتاج إلى راعٍ، وقد طالت غيبتي عن أمّي وخالتي وهارونَ أخي وأختي. فقال شعيب: إني أكره أنّ أمنعك. وأوصاه بابنته وأوصاها ألّا تخالفه؛ وسار موسى عليه السلام بأهله يريد أرض مصر حتى بلغ جانب وادي طُوًى[٢] في عشيّة شديدة البرد؛ وجاء الليل وهبّت الرياح وغيّمت السماء؛ فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على شفير الوادي، وأدخل أهله فيها؛ وهطلت السماء بالمطر؛ وكانت امرأته حاملًا، فجاءها الطلق، فجمع حطبًا وقدح الزناد فلم يور[٣]، فرماه وخرج من البيت، فرأى نارًا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ

(١) كفيتني: أي أغنيتني عن القيام بأمرها والعناية بها.

(٢) وادي طُوى: هو اسمٌ أعجمي للوادي المذكور في القرآن الكريم، وهو موضع بالشّام عند الطور، وقوله عزّ وجلّ: بالواد المقدّس، طُوى: أي طوي مرّتين: أي قدّس، وقيل: ثنيت فيه البركة والتقديس مرّتين. «معجم البلدان ٤/ ٤٤/ ٤٥».

(٣) لم يورِ: أي لم يشتعل.

ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: الآيتان ٢٩، ٣٠].

ولم يكن هناك نار بل نور.

قال الثعلبيّ: واختلفوا في الشجرة ما كانت، فقيل: العوسجة[1]. وقيل: العُنّاب.

قال الكسائي: وأمر موسى بخلع نعليه؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: الآيات ١١ ـ ١٨].

قال: لأنه كان يركزها في الأرض ويعلّق عليها كساءه وإداوته ونعليه، ويقاتل بها السباع، ويستظلّ بها من الشمس.

قال الله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: الآيتان ١٩، ٢٠] على مثال الثعبان العظيم.

قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ[2]﴾ [النمل: الآية ١٠].

فلما أمعن في الهرب قال له جبريل: أتهرب من ربّك وهو يكلّمك؟ قال: ما فررت إلّا من الموت. ورجع وهي بحالها؛ قال الله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: الآية ٢١].

فأدخل يده في فيّها فإذا هي عصا؛ ثم قال الله له: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه: الآية ٢٢] فذهب الخوف عن موسى؛ ثم أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: الآية ٢٤]. قال موسى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: الآيات ٢٥ ـ ٣٥]، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: الآية ٣٦].

---

(١) العوسجة: شجرة شائكة الأغصان.

(٢) لم يعقّب: لم يرجع، من قولهم عقّب فلان: إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ.

قال: ثم تذكّر موسى ما كان منه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص: الآية ٣٣]، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: الآية ١٠]، ثم ذكّره الله منّته عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [طه: الآية ٣٧] الآيات؛ ثم قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: الآيات ٤٣ - ٤٧].

قال: وكان الخطاب لموسى وحده، والرسالة له ولهارون.

قال: وأمّا ابنة شعيب فاشتدّ بها الطلق، وسمع سكّان الوادي من الجنّ أنينها، فأتَوها وأوقدوا النار عندها، وقبِلوها؛ وقيّض الله تعالى لها من ردّها إلى أبيها؛ والله المعين.

ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمّه

قال الكسائيّ: وسار موسى من الطُّور حتى بلغ العمران؛ وكان هارون يومئذٍ وزيرًا لفرعون على عادة أبيه لا يفارقه ليلًا ولا نهارًا؛ فبينما هو نائم إلى جنب سرير فرعون إذ أتاه آت في منامه ومعه شراب في كأس من الياقوت، وقال: يا هارون اشرب هذه الشربة فهي بشارة بقدوم أخيك من أرض مدين، وأنت شريكه في الرسالة إلى فرعون.

فانتبه هارون فزِعًا وظنّ ذلك من الشيطان، وعاد إلى النوم، فعاوده القائل ثلاث مرّات؛ ثم قال له: قم إلى أخيك ـ وكانت الأبواب مغلّقة ـ فاحتمله الملَك إلى قارعة[1] الطريق وقال له: امض واستقبل أخاك. ثم أتاه جبريل بوحي الله وبشّره بالرسالة، وحمله إلى شاطىء النيل، وموسى إلى الجانب الآخر؛ فكان يكلّمه والريح تحمل كلامه إلى هارون؛ ثم أذن الله لهما أن يلتقيا؛ فجاء موسى إلى الجانب الآخر، فالتقيا؛ وبشّره بشركته في الرسالة؛ ثم أقبلا إلى أمّهما وجبريل معهما، فطرق هارون الباب وأمّه في صلاتها، فقامت من محرابها وقالت: من بالباب؟ فقال موسى: أنا ولدك موسى وأخي هارون. ففتحت الباب، ووقعت مغشيًّا عليها من الفرح؛ ثم

(١) قارعة الطريق: أعلاه ووسطه.

أفاقت؛ وذكر لها موسى ما كان من أمره؛ فسجدتْ لله تعالى؛ ثم حمل جبريل هارونَ وأعاده عند رأس فرعون؛ وأقام موسى بقيّة ليلته عند أمّه، وخرج من الغد متنكّرًا، فنظر إلى ما أحدثه فرعون في أرض مصر ورجع حتى أقبلت الليلة الثانية، فخرج وجاء إلى قصر فرعون وبه الحجّاب والحرس والجنود، فقرع الباب بعصاه، فانفتح ودخل حتى بلغ القبّة الأُرجوانيّة، فانفتحت وعبرها وفرعون نائم بها، وهارون عند رأسه؛ فقام إليه هارون وقال: لقد عجلتَ يا أخي. وأخرجه؛ فانصرف، وغُلّقت الأبواب كما كانت.

فلما كان من الغد جاء إلى فرعون فعرفه بعضهم، وأنكره البعض، وجاء بعض الوزراء إلى فرعون وأخبره به، فأرعدت فرائصه[١]، وأمر هامانَ أن يخرج إليه؛ فخرج وسأله عن اسمه، فأخبره أنه موسى؛ فعاد هامان إلى فرعون وأعلمه أنه هو؛ فنظر إلى هارون وقال: أيَقدَم أخوكَ ولم تعلمني به؟ فقال: أردت ذلك وإنما خشيت غضبك.

ذكر خبر دخول موسى عليه السلام إلى فرعون وما كان من أمره معه

قال: وأمر فرعون أن يزيّن قصره، وجلس والتاج على رأسه، ووقف الوزراء عن يمينه وشماله، وأُحضِر موسى؛ فلمّا رآه عرفه، ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله ورسوله وكليمه. قال: أنت عبد فرعون. قال: إن الله أعزُّ من أن يكون له نِدّ[٢]. قال له فرعون: إلى من أرسلت؟ قال: إليك وإلى جميع أهل مصر. قال: فبماذا؟ قال: أن يقولوا لا إلـٰه إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّي موسى عبده ورسوله. قال: فما حجّتك؟ فإنّ لكلّ مدّعٍ بيّنة. قال: إن أتيتك ببيّنة تؤمن؟ قال: نعم. قال موسى: يا هارون، انزل عن الكرسيّ وبلِّغ فرعون الرسالة. فنزل وقال: يا فرعون: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: الآية ٤٧]. فقال فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: الآيتان ٤٩، ٥٠]، الآيات.

---

(١) الفرائص: مفردها «فريصة» وهي اللحمة بين الجنب والصّدر والكتف وهي ترتجف عند الخوف، وارتعدت فرائصه: أي خاف خوفًا شديدًا.

(٢) النِدّ: المثل والنظير.

فغضب فرعون على هارون، وأمر هامانَ بنزع ما عليه من اللباس؛ فنزعه حتى بقي بالسراويل، فألبسه موسى مِدرَعة الصوف؛ فاقشعرّ جلده؛ فنزل جبريل بقميص كوّنه الله تعالى فكان وألبسه إياه؛ فقال فرعون لهامان: احمل موسى وأخاه إلى منزلك ودارِهما، فإن أطاعاني مكّنتهما من خزائني، ولا أقطع أمرًا دونهما. ففعل ذلك؛ فقالا له: يا هامان اشترِ نفسك من ربّك، فضحك من قولهما، ثم أحضرهما من الغد إلى فرعون؛ فأقبل على موسى وقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ١٨ - ٢٠] أي عن النبوّة، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٢١،٢٢] ، ثم قال: تذبّح أبناءهم وتستحي نساءهم، فشكوك إلى ربّ العالمين. وكان فرعون متكئًا، فاستوى جالسًا وقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٢٣، ٢٤]. فالتفت فرعون لمن حوله وقال: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٥]. قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٦ - ٢٨]. قال فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٩ - ٣١].

ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانًا واليد البيضاء

قال: وبينما هما في المخاطبة وإذا بالعصا اضطربت في كف موسى؛ فناداه جبريل: أطلقها يا نبيّ الله. فألقاها موسى ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣٢] كأعظم ما يكون؛ ثم تمثّل مثال الجمل البُختيّ[١] وقام على رجليه حتى أشرف برأسه على حيطان القصر وتنفس نارًا ودخانًا، وعطف على قبّة فرعون فضربها فطحطحها[٢]، وجعلت لا تمرّ بشيء إلّا ابتلعته، وهاجت كالحمل المغتلم[٣] ولها صوت كالرعد؛ وأقبلتْ إلى قبّة فرعون وهو فيها، فوضعت لَحيها[٤] الأسفل تحت

(١) الجمل البختي: البخت: دخيل في العربية، أعجميّ معرّب والبخت: هي الإبل الخراسانيّة، تنتج من بين عربيّة وفالج وقيل: إنّ البُخت عربي «اللّسان مادة بخت».

(٢) طحطحها: دكّها وزعزعها. (٣) المغتلم: الذي انقاد للشهوة.

(٤) اللحي: عظم الحنك الذي عليه الأسنان.

القبة، ولحيها الأعلى فوقها، ورفعت القبّة ثمانين ذراعًا في الهواء، وقالت: يا فرعون، وعزّة ربّي لو أذن لي لابتلعتُك بقصورك وأموالك. فلمّا نظر فرعون إلى ذلك وثب عن سريره ـ وهو أعرج ـ وجعل يعدو ويقول: يا موسى بحقّ التربية والرضاع، وبحقّ آسية كفّها عنّا. فناداها، فأقبلت، فأدخل يده في فيها، وقبض على لسانها فإذا هي عصا كما كانت؛ فعاد فرعون إلى مكانه وقال: يا موسى، لقد تعلّمتَ بعدي سحرًا عظيمًا. قال: يا فرعون، ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يُونس: الآية ٧٧]. قال فرعون: هل عندك سحر غير هذا؟ قال: نعم؛ فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها وعليها نور وشعاع؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٣٢ - ٣٧].

ذكر خبر السّحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم

قال: فأمر فرعون بجمع السَّحَرة؛ فاجتمع إليه سبعون ألف ساحر؛ فاختار منهم سبعين ساحرًا ـ وهم أحذق الخَلْق ـ.

وحكى الثعلبيّ عن عطاء[١] قال: كان رئيسا السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين؛ فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمّهما: دلّينا على قبر أبينا. فدلّتهما عليه؛ فأتياه فصاحا باسمه، فأجابهما؛ فقالا له: إن الملك قد وجّه إلينا أن نَقدَم إليه، لأنّه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح، ولهما عزّ ومنعة، وقد ضاق الملك ذَرعًا بهما، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شيء حتى تبتلع الحديد والخشب والحجارة. فأجابهما أبوهما: انظرا إذا هما ناما، فإن قدرتما أن تسُلّا العصا فسُلّاها، فإنّ الساحر لا يعمل سحرُه وهو نائم، فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر ربّ العالمين فلا طاقة لكما به ولا للمَلِك ولا لجميع أهل الدنيا. فأتياهُما خِفية وهما نائمان ليأخذاها، فصدّتهما.

قال الكسائيّ: وبعث فرعون إلى موسى فأحضره وقال ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا

---

(١) عطاء: هو عطاء بن دينار الهذلي، من رجال الحديث له كتاب في التفسير يرويه عن سعيد بن جبير مات بمصر سنة ١٢٦ هـ «الأعلام ٤/ ٢٣٥».

وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: الآيات ٥٧ - ٥٩].

قال: ويوم الزينة هو أوّل يوم من السنة؛ فلمّا كان في ذلك اليوم اجتمع الناس من أطراف أرض مصر في صعيد واحد، فأخذ فرعون يقول للسحرة: اجتهدوا أن تغلبوا موسى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ١١٣]. قال فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١١٤].

وأقبل موسى وهارون وقد أحدقت بهما الملائكة، فرأى موسى الوادي وقد امتلأ من الحبال والعصيّ؛ فقال موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم(١) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: الآية ٦١].

قال: وكان في السحرة ساحران عظيمان ـ وهما رأس السحرة ـ فقالا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٥]، فهمّ موسى أن يُلقي، فمنعه جبريل، وأجرى الله على لسانه فقال: ﴿بَلْ أَلْقُواْ﴾ [طه: الآية ٦٦] ﴿أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: الآية ١١٦]. قال: الله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٦]. فامتلأ الوادي من الحيّات، وجعلت يركب بعضها بعضًا؛ ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٤٤]؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: الآيات ٦٧ - ٦٩] فعندها زال خوفه وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: الآية ٨١]. ثم ألقى عصاه في وسط الوادي، فانكشف سحر السحرة، وبطل ما أظهروه من التخييل، فإذا هي حبال وعصِيّ، وصارت عصا موسى ثعبانًا له سبعة أرؤس، وعلى ظهره مثل الأزِجّة(٢)، فابتلعت الحبالَ والعصِيَّ وجميعَ ما كان في الوادي من الزينة؛ فقام فرعون ووزراؤه فوقفوا على تل ينظرون فعل الحية وهم خائفون، ثم حَملتْ على السبعين رجلًا فولّوا هاربين على وجوههم؛ ثم اجتمعوا بأجمعهم وقالوا: ما هذا بسحر. وخرّوا

---

(١) يسحتكم الله: يستأصلكم.

(٢) الأزِجّة: مفردها «الزّج» وهو الحديدة في أسفل الرّمح. وقد زاد الكسائي بعد هذه العبارة «الأسنّة».

سجدًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشُّعَراء: الآيات ٤٦ - ٤٨].

قال: فاغتمّ فرعون لذلك وقال للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٤٩].

وأمر أن يفعل بهم ذلك؛ فقالوا ما أخبر الله به تعالى عنهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه: الآيتان ٧٢، ٧٣].

ثم صُلبوا على سبعين جذعًا بعد أن قطّع فرعون أيديَهم وأرجلهم.

ذكر خبر حزقيل مؤمن آل فرعون

قد قيل: إن خبر مؤمن آل فرعون كان قبل خبر السحرة، وسياق الآيات يدل على أن خطابه لفرعون كان بعد خبرهم، وذلك أنه لما كان من أمر السحرة ما ذكرناه، قال الملأ من قوم فرعون ما أخبر الله تعالى به عنهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝١٢٧﴾ [الأعراف: الآية ١٢٧]. وقال الله تعالى إخبارًا عن فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: الآية ٢٦].

قال: فلمّا عزم فرعون على قتل موسى، أقبل حزقيل على القوم ـ وكان خازنَ فرعون وزوجَ ماشطةِ بناته ـ فقال ما أخبر الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ﴾ [غافر: الآيتان ٢٨، ٢٩].

ففزع فرعون من قوله وقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: الآية ٢٩].

فخوّفهم المؤمن وقال ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [غافر: الآيات ٣٠ - ٣٣].

فلما سمع فرعون كلامه غضب وقال: كأنّك ممن اتبع موسى، فارجع عن ذلك وإلّا عاقبتك بأنواع العذاب. فقال له حزقيل: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: الآية ٣٨] الآيات.

ثم قال: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤﴾ [غافر: الآيات ٤١ - ٤٤]؛ ولحق بموسى وهارون، وفارق فرعونَ وقومه؛ قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر: الآية ٤٥].

وحكى الثعلبيّ أن فرعون قتله مع السحرة صَلبًا؛ ثم ذكر بعد ذلك أنه كان مع موسى عليه السلام لمّا فرق الله له البحر؛ والله تعالى أعلم.

ذكر خبر بناء الصرح(١) وما قيل فيه

قال: ولما انقضى أمر السحرة أقبل فرعون على هامان وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ [غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧].

قال: فجمع هامان خمسين ألف صانع وصنع القِرْمِيد ـ وهو الآجرّ، وهامان أوّل من صنعه ـ فكانوا يبنون فيه ليلًا ونهارًا لا يَفترُون(٢)؛ فلمّا تكامل الصرح وارتفع ارتفاعًا عظيمًا، أمر الله عزّ وجلّ جبريل فهدمه وجعل عاليَه سافلَه ومات كلُّ من كان فيه على دين فرعون، والمؤمنون يزيدون ويجتمعون إلى موسى عليه السلام.

(١) الصّرح: كلّ بناءٍ عالٍ.

(٢) يفترون: يضعفون ويكلّون.

وحكى أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله أن الصرح اجتمع فيه لبنائه خمسون ألف بنّاء سوى الأتباعِ والأجراء ممّن يطبخ الآجُرَّ والجِصَّ[١] وينجر الخشب والأبواب ويضرب المسامير؛ فلم يزل يبني ذلك الصرح؛ ويسّر الله تعالى له أمره استدراجًا منه، فأتى الأمر فيه على ما يريد، إلى أن فرغ في سبع سنين، فارتفع ارتفاعًا لم يبلغه بنيانُ أحد من الخلق منذ خلق الله السمٰوات والأرض؛ فشقّ ذلك على موسى، فأوحى الله تعالى إليه: أن دعه وما يريد فإنّي مستدرجه ومبطل كلّ ما عمله في ساعة واحدة.

قال: فلمّا تم بنيانه بعث الله عزّ وجلّ جبريل فضرب بجناحه الصرح، فقَذَف به على عسكر فرعون، فقتل منهم ألفي ألف رجل.

قالوا: ولم يبق أحد ممّن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة.

قال: وكان تدمير الله تعالى الصرحَ فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

قال: فلمّا رأى فرعون ذلك من أمر الله، وعلم أنّ حيلته لم تغن عنه شيئًا عزم على قتال موسى ومن معه، وأمر أصحابه فنصبوا[٢] له الحرب؛ فلما رأى الله تعالى ذلك من فعل فرعون وقومِه، وأنه حَقّت عليهم كلمة العذاب، ابتلاهم الله تعالى بالعذاب والآيات.

ذكر خبر الآيات التسع

قال الكسائيّ: ثم أخذ الله تعالى قوم فرعون بالآيات التسع، فكان أوّل ما جاءهم الطوفان، فدام عليهم ثمانية أيام لا يرون فيها شمسًا، حتى امتلأت الأسواق والدُّور، وأخذتْ في الخراب، فالتجأوا إلى فرعون، فقال: سأكشف ذلك عنكم. ودعا موسى وسأله أن يدعو برفع الطوفان ليؤمن به؛ فطمع موسى في ذلك، فسأل الله تعالى، فرفع ذلك عنهم، فازدادوا كفرًا، فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكل أشجارهم وزرعهم، ودام ثمانية أيّام، ففزعوا إلى فرعون، فوعدهم بصرفه عنهم وضمن لموسى إن صرفه عنهم آمن به؛ فدعا ربّه، فأرسل الله على الجراد ريحًا باردة فقتلته، فلم يؤمنوا؛ فبعث الله عليهم القُمَّل فأكل جميع ما في بيوتهم، وقرض ثيابهم وأبدانهم وشعورهم؛ فضجّوا إلى فرعون، فسأل موسى ووعده الإيمان؛ فسأل الله

---

(١) الجصّ: مادة ترابية تتخذ من حجر يحرق، وتتخذ لجبر الكسر في العظم.

(٢) نصبوا له الحرب: أعدّوا.

تعالى، فصرفه عنهم بعد ثمانية أيام وأماته، فازدادوا كفرًا؛ فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع، فكانت تدخل في طعامهم وشرابهم، وكانت لها رائحة منتنة فدامت ثمانية أيام؛ فسأل موسى؛ فلما كشفها الله عنهم لم يؤمنوا وازدادوا كفرًا؛ فأمر الله تعالى موسى: أن اضرب بعصاك النيل. فضربه فتحوّل دمًا عبيطًا[١]، فاشتدّ بهم العطش، فكان الإسرائيليّ والفرعونيّ يأتيان إلى موضع واحد، فإذا أخذه الإسرائيليّ يكون ماء، وإذا أخذه الفرعونيّ كان دمًا، فدام ذلك ثمانية أيّام حتى أجهدهم العطش وأشرفوا على الهلاك؛ فلمّا كشفه الله عنهم بدعوة موسى ازدادوا كفرًا.

ذكر خبر مسخ قوم فرعون

قال: ولما لم يؤمنوا بهذه الآيات، قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: الآية ٨٨] وكان الدعاء من موسى، والتأمين لهارون؛ فأوحى الله إليهما: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: الآية ٨٩] الآية.

قال: فطمس الله تعالى على كثير منهم، حتى أصبح الرجال والنساء والصبيان والأموال كلّها حجارة، فلم يؤمنوا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: الآية ١٠١].

قال عمر بن عبد العزيز في تفسيره: كان أوّل الآيات العصا، واليد البيضاء والطُّوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والطَّمْس[٢] والبحر حتى صار يَبَسًا.

هذا ملخّص ما حكاه الكسائيّ.

وحكى أبو إسحٰق الثعلبيُّ في قصصه عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وقتادة ومحمد بن إسحٰق[٣] وغيرهم من أصحاب الأخبار ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالوا: لما آمنت السحرة وصلبهم فرعون، وانصرف موسى وهارون إلى عسكر بني إسرائيل، أمر فرعون أن يكلِّفوا بني إسرائيل ما لا يطيقونه، فكان

(١) العبيط: الطّريّ.
(٢) الطّمس: التغيير، وطمس الله على أموالهم: غيّرها فصارت حجارة.
(٣) هو محمد بن إسحٰق بن يسار المطّلبي، المدني، من أقدم مؤرخي الإسلام له السيرة النبوية، وكان قدريًّا من حفّاظ الحديث مات سنة ١٥١ هـ «الأعلام ٦/ ٢٨».

الرجل من القبط يجيء إلى الرجل من بني إسرائيل فيقول له: انطلق معي فاكنسْ حُشي[١] واعلف دوابّي واستق لي. وتجيء القبطية إلى الكريمة من بني إسرائيل فتكلِّفها ما لا تُطيق، ولا يطعمونهم في ذلك كلّه خبزًا، وإذا انتصف النهار يقولون لهم: اذهبوا فاكسبوا لأنفسكم. فشكَوا ذلك إلى موسى، فقال لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]. قالوا يا موسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

قالوا: فلمّا أبى فرعون وقومُه إلّا الإقامة على الكفر، والتماديَ في الشر والظلم، دعا موسى ربّه وقال: ربّ إن عبدك فرعون طغى في الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك وأخلَفوا وعدك، ربّ فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة، ولمن بعدهم من الأمم عبرة. فتابع الله عليهم الآيات المفصَّلات بعضها في إثر بعض، فأخذهم بالسنين ونقصٍ من الثمرات، ثم بعث عليهم الطوفان (وهو الماء) أرسل عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوتُ بني إسرائيل وبيوتُ القبط مشبَّكة مختلطة بعضُها في بعض، فامتلأت بيوتُ القبط حتى قاموا في الماء إلى تَراقيهم[٢]، فمن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيل من الماء قطرة وفاض الماء على وجه أراضيهم كذلك، فلم يقدروا على أنْ يحرثوا ولا يعملوا شيئًا؛ ودام ذلك عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت؛ فقالوا لموسى: ادع لنا ربّك يكشف عنّا هذا البلاء ونؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربّه فرفع عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، وعادوا أشرّ مما كانوا عليه.

واختلف العلماء في الطوفان ما هو؛ فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو الماء أرسله الله تعالى عليهم.

وقال مقاتل[٣]: هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها.

وقال الضحّاك: هو الغرق.

---

(١) الحشّ: يكنّى به عن بيت الخلاء حيث تقضى الحاجة.

(٢) التراقي: جمع «تِرقوة» وهي العظمة بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر.

(٣) مقاتل: هو مقاتل بن سليمان البلخي المفسّر، أبو الحسن، من أعلام المفسّرين توفي بالبصرة سنة ١٥٠ هـ «الأعلام ٧/ ٢٨١».

وقال مجاهد وعطاء: هو الموت الذريع.

وقال وهب: هو الطاعون بلغة أهل اليمن، أرسل الله الطُّوفان على أبكار آل فرعون فقبضهنّ في ليلة واحدة، فلم يُبق منهنّ واحدة ولا دابة.

وقال أبو قِلابة[1]: الطُّوفان هو الجُدَريّ، والله تعالى أعلم.

قالوا: وأنبت الله تعالى لهم في تلك السنة من الكلأ[2] والزرع ما لم يَنبُت قبل ذلك، فأعشبت بلادهم وأخصبتْ، فقالوا: هذا ما كنّا نتمنّاه، وما كان هذا الماء إلّا نعمةً لنا وخِصبًا. فأقاموا شهرًا في عافية؛ ثم بُعث عليهم الجرادُ فأكل زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم والزهرَ، حتّى إن كان ليأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير حتى سقطتْ دورهم، والجراد لا يدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء؛ فعَجّوا وضَجّوا، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٣٤] فأعطوه عهد الله وميثاقه؛ فدعا موسى ربّه، فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت.

ويقال: إن موسى برز إلى الفضاء، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن قطّ.

قالوا: فأقاموا شهرًا في عافية؛ ثم بعث الله عليهم القُمَّل، وذلك أن موسى أُمر أن يمشي إلى كثيب أغبَر بقرية من قرى مصر تدعى: (عين شمس) فمشى موسى إلى ذلك الكثيب ـ وكان عظيمًا ـ فضربه بعصاه، فانثال عليهم القُمَّل فتتبّع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض كلّها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعَضّه، وكان يأكل أحدهم الطعامَ فيمتلىء قُمَّلًا، حتى إن أحدهم ليبني الأسطوانة بالجِصّ فيُزَلِّقُها حتى لا يَرتقِي فوقها شيء، ثم يرفع فوقها طعامه، فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملآن قُمَّلًا، فما أصيبوا ببلاء كان أشدّ عليهم من القُمَّل؛ وأخذ القمل شعورهم وأشفارَ عيونهم وحواجبهم، ولصق بجلودهم كالجُدَريّ، ومنعهم النوم والقرار، ولم يستطيعوا له حيلة.

---

(١) أبو قلابة: هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي، عالم بالقضاء والأحكام ومن رجال الحديث الثقاة «الكاشف ١/ ٧٩».

(٢) الكلأ: العشب.

وقد اختلفوا في القُمَّل ما هو؟ فروي عن أبي طلحة[١] أنّه الذباب لا أجنحة له.

وروى مَعمرٌ[٢] عن قَتادة قال: القمّل أولاد الجراد.

وعو عبد الرحمٰن[٣] بن أسلم قال: هو البراغيث.

وقال عطاء: هو القَمْل؛ دليله قراءة الحسن: «والقَمْل» بفتح القاف وسكون الميم.

وقال أبو عبيدة[٤]: هو الحَمْنان، وهو ضرب من القردان.

وقال سعيد بن جُبير[٥] عن ابن عبّاس رضي الله عنهم: القُمَّل، هو السوس الذي يخرج من الحنطة والحبوب، فكان الرجل يُخرج عشرة أقفزةٍ[٦] فلا يردّ منها إلّا ثلاثة أقفزة؛ فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا: يا أيها الساحر أي أيّها العالم إنا نتوب إلى الله ولا نعود، فادع لنا ربّك يكشف عنا هذا البلاء. فدعا موسى ربه، فرفع الله تعالى عنهم القُمَّلَ بعدما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت، ثم نكثوا العهد[٧]، وعادوا إلى خبث أعمالهم، وقالوا: ما كنا قطّ أحقّ أن نستيقن أن موسى ساحر إلّا اليوم، فيَجعل الرملَ والرماد دوابَّ، فعلى ماذا نؤمن به ونرسل معه بني إسرائيل؟ فقد أهلك زرعنا وحروثنا، وأذهب أموالنا، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل، وعزّة فرعون لا نصدّقه أبدًا ولا نتبعه. فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرًا في عافية ـ وقيل أربعين يومًا ـ فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفّة النيل فيَغرز عصاه فيه، ويشيرَ بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفلِه؛ ففعل موسى ذلك، فتداعت إليه الضفادع بالنَّقيق من كلّ جانب حتى أعلم بعضها بعضًا، وأسمع أدناها أقصاها؛ ثم خرجت من النيل مثل البحر تدبّ سِراعًا نحو باب المدينة، فدخلت عليهم في بيوتهم بغتة، وامتلأت منها أفنيتُهم وأبنيتُهم وأطعمتهم، وكان أحدهم لا

---

(١) لعلّه أبو طلحة الأسدي، محدّث صدوق، حدّث عن ابن عبّاس وأنس «الكاشف ٣/ ٣٠٩».

(٢) لعله معمر بن راشد أبو عروة الأزدي، عالم اليمن، كان من أطلب أهل زمانه للعلم توفي سنة ١٥٣ هـ «الكاشف ٣/ ١٤٥».

(٣) لعلّه عبد الرحمٰن بن سلم من رجال الحديث «الكاشف ٢/ ١٤٨».

(٤) لعله أبو عبيدة بن حذيفة بن اليمان، محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ٣١٥».

(٥) هو سعيد بن جبير الأسدي، أبو عبد الله، تابعي حبشي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس، وهو من أكابر العلماء الثقات، مات سنة ٩٥ هـ «الأعلام ٣/ ٩٣».

(٦) الأقفزة: مفردها «القفير»، مكيال.

(٧) نكثوا العهد: نقضوه ونبذوه.

يكشف ثوبًا ولا إناء ولا طعامًا ولا شرابًا إلّا وجد فيه ضفادع؛ وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهمّ أن يتكلّم فيثب الضفدع في فيه؛ وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعًا بعضها فوق بعض، وصارت عليه حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شِقّه الآخر؛ وكان أحدهم يفتح فاه لأكلتِه فتستبق الضفادع إلى فيه؛ وكانوا لا يعجنون إلّا انشدخت[1] فيه، ولا يطبخون إلا امتلأت القدر بالضفادع؛ وكانت تثب في نيرانهم فتطفئها، وفي طعامهم فتفسده؛ فلقُوا منها أذًى شديدًا.

ورُوِيَ عن عكرمة[2] عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: كانت الضفادع برّيّة، فلمّا أرسلها الله على فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تقذف أنفسهم في القدر وهي تفور، وفي التنانير وهي مسجورة، فأثابها الله بحسن طاعتها بَرْدَ الماء.

قال: فضجّوا إلى فرعون من أمر الضفادع، وضاق عليهم أمرُهم حتى كادوا يهلكون، وصارت المدينة وطرقها مملوءةً جِيَفًا من كثرة ما يطأونها بأقدامهم، فلما رأوا ذلك بكَوا وشكَوا ذلك إلى موسى، وقالوا: اكشف عنّا هذا البلاء فإنا نتوب هذه المرّة ولا نعود. فأخذ بذلك عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا الله تعالى فكشف عنهم الضفادع، فما كان منها حيًّا لحق بالنيل؛ وأرسل الله تعالى ريحًا على الميت منها فنحّته عن مدينتهم بعدما قامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فأقاموا شهرًا في عافية؛ وقيل: أربعين يومًا. ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم؛ فدعا عليهم موسى، فأرسل الله تعالى عليهم الدم، وذلك أنّ الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطىء النيل ويضربه بعصاه؛ ففعل ذلك، فسال النيل عليهم دمًا، وصارت مياههم كلّها دمًا عبيطًا[3]، فما يشربون من الأنهار والآبار إلّا وجدوا دمًا أحمَر عَبيطًا؛ فشكَوا ذلك إلى فرعون وقالوا: إنّا قد ابتُلينا بهذا الدم، وليس لنا شراب. فقال: إنّه قد سحركم. فكان يُجمَع بين الرجلين على الإناء: القبطيّ والإسرائيليّ فيُسقَيان من ماء واحد، فيخرج ماء القبطي دمًا، وماء الإسرائيليّ عذبًا؛ وكانا يقومان إلى الجرّة فيها الماء، فتُخرِج للإسرائيليّ ماء وللقبطيّ دمًا، حتى إنّ المرأة من آل فرعون كانت

(١) انشدخت فيه: انشجّت وتكسّرت.
(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري، المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي كان عالمًا بالتفسير والمغازي، كثير التطواف مات سنة ١٠٥ هـ «الأعلام ٤/ ٢٤٤».
(٣) الدم العبيط: الطري.

تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جَهَدهم العطش فتقول: اسقيني من مائِك. فتغرف لها من جرّتها، ونصبَ لها من قربتها، فيعود في الإناء دمًا، حتى إن كانت المرأة تقول لها: اجعليه في فيك ثم مُجّيه في فمي. فتأخذ في فيها ماء، فإذا مجّته في فيها صار دمًا، والنيل على ذلك يسقي الزرع والشجر؛ فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دمًا عبيطًا.

قالوا: وإنّ فرعون اعتراه العطش في تلك الأيام، حتى إنه اضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فكان إذا مضغها يصير ماؤها في فيه ملحًا أُجاجًا ومرًّا زُعاقًا[1]؛ فمكثوا في ذلك سبعة أيّام لا يأكلون ولا يشربون إلّا الدم؛ فقالوا لموسى: ادع لنا ربّك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربّه فكشف عنهم ذلك، وأمر أن يَضرِب بعصاه النيل ضربة أخرى؛ ففعل فتحوّل صافيًا كما كان، فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهَدوا عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٣].

وقال نَوْفٌ البِكَالِيّ[2] ـ وهو ابن امرأة كعب الأحبار ـ: مكث موسى في آل فرعون عشرين سنة بعدما غلب على السحرة يُريهم الآيات: الجراد والقُمّلَ والضّفادع والدم.

وقال الضحّاك: لمّا يئس موسى من إيمان فرعون وقومِه، ورأى أنهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادي، دعا عليهم موسى وأمّن هارون ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: الآية ٨٨] فأجاب الله دعاءه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: الآية ٨٩] الآية.

قال: وكان لفرعون وأصحابه من زهرة الدنيا وزينتها من الذهب والفضّة واليواقيت وأنواع الجواهر والحليّ ما لا يحصيه إلا الله تعالى؛ وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام في زمانه أيّام القحط، فبقي ذلك في أيدي القبط، فأوحى الله تعالى إلى موسى: أنّي مورث بني إسرائيل ما في أيدي آل فرعون من

---

(١) الزّعاق: الشديد المرارة.

(٢) نوف البكاليّ: هو نوف بن فضالة الحميري، إمام أهل دمشق في عصره من رجال الحديث، كان راويًا للقصص مات نحو سنة ٩٥ هـ «الأعلام ٨/ ٥٤».

العُروض[١] والحليّ، وجاعلُه لهم جَهازًا وعَتادًا إلى الأرض المقدّسة فاجعل لذلك عيدًا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونني وتذكرونني فيه وتعظّمونني ذلك اليوم، وتعبدونني فيه لما أريكم من الظَّفَر ونجاه الأولياء وهلاك الأعداء واستعير لعيدكم من آل فرعون الحليّ وأنواع الزينة، فإنّهم لا يمتنعون عليكم للبلاء الحالّ بهم في ذلك الوقت، ولما قذفت لكم في قلوبهم من الرعب. ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى، فأمر فرعونُ بزينة أهله وولده وما كان في خزائنه من أنواع الحليّ، فأُعيرت بني إسرائيل لما أراد الله تعالى بذلك أن يَفيء على موسى وقومِه أفضلَ أموال أعدائه بغير قتال ولا إيجافِ[٢] خيل ولا رَجل؛ فلمّا دعا موسى عليهم مسخ الله تعالى الأموالَ الّتي بقيتْ في أيديهم حجارة حتى النخل والرقيق.

وقال محمد بن كعب[٣]: سألني عمر بن عبد العزيز عن الآيات الّتي أراهن الله تعالى فرعونَ وقومه؛ فقلت: الطُّوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم والعصا واليد البيضاء والطَّمْس وفَلْق البحر.

قال عمر: كيف يكون الفقه إلّا هكذا. ثم دعا بخريطة فيها أشياء ممّا كان أصيب لعبد العزيز بن مروان لمّا كان على مصر من بقايا آل فرعون، فأخرج البيضة مقسومة نصفين كأنّها الحجر، والجوزة مشقوقة نصفين وكأنها الحجر، والحِمَّصةَ والعدسة.

وروى ابن إسحٰق[٤] عن رجل من أهل الشأم كان بمصر قال: ورأيتُ نخلةً مصروعة كأنها الحجر.

قال: ورأيتُ إنسانًا وما شككتُ أنه إنسان وإنّه لَحَجَر؛ وكان المسخ في أرقّائهم دون أحرارهم، إذ العبيد من جملة أموالهم؛ فلم يَبقَ لهم مال إلّا مسخه الله تعالى ما خلا الذي في أيدي بني إسرائيل من الحليّ والجواهر وأنواعِ الزينة.

---

(١) العُروض: جمع العَرْض، وهو الجيش، ولعلّه يريد السّلاح الذي في أيدي جيش فرعون، «اللسان مادة عرض».

(٢) الإيجاف: العدو والسّير، يريد: دون قتال ودون تحريك الجيوش الراكبة والرّاجلة.

(٣) هو محمد بن كعب القرظي، محدّث ثقة حجّة مات سنة ١٠٨ هـ وقيل: ١١٦ هـ «الكاشف ٣/ ٨١».

(٤) هو محمد بن إسحٰق بن يسار المطلبي المدني، من أقدم مؤرّخي العرب، من حفّاظ الحديث مات في بغداد سنة ١٥١ هـ «الأعلام ٦/ ٢٨».

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أوّل الآيات العصا، وآخرها الطمس؛ وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا، وجُعِل سكّرهم حجارة، وبعض المسخ من الآدميين باقٍ مشاهَد إلى وقتنا هذا، وقد شاهدتُ أنا منه شخصًا شكل خادم وهو جالس على كرسيّ بقرب البيت الأخضر ببلاد الجيزية، وذلك في شهور سنة سبع عشرة وسبعِمائة، ولعلّه من ذلك المسخ؛ والله أعلم.

ذكر خبر قتل الماشطة

قال: وكانت لبنات فرعون ماشطة - وهي امرأة حِزْقيل المؤمن - فبينما هي تَمشُط إحدى بناته إذ سقط المُشْط من يدها، فقالت: تَعِس من كفر بالله. فقالت لها ابنة فرعون: إنما تريدين من كفر بأبي. فقالت: إنّما عَنيتُ من كفر بإلٰه موسى. فقامت إلى أبيها وأخبرته؛ فغضب وأحضرها وقال: ما الّذي بلغني عنك؟ قالت: صدقوا، أنا مؤمنة بإلٰه موسى، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ. فشدّها إلى أوتاد من حديد، وأحضر أولادها الثلاثة، وعرض عليها أن تؤمن به؛ فأبت، فذبحهم على صدرها وهي تَحمَد الله تعالى؛ ثم طرحها في تنور من نحاس وأحرقها فيه وأحرق أولادها.

ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأةِ فرعون

قال: لما قتل فرعون الماشطة، سمعت آسيةُ الملائكة تعدها بالجنة، فقامت من مجلسها وهي تقول: يا إلٰه موسى ألبسني الصبر وارزقني الشهادة و﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التّحْريم: الآية ١١] وخرجت على فرعون وهي حاسرة[١] عن وجهها، وقالت له: يا ملعون، إلى كم تقتل أولياء الله وتأكل رزق الله وتكفر نعمته ولا تشكره، وترى آياته ولا تعتبر بها؟ فقال لوزرائه: قد أفسد عليّ موسى حتّى آسية؛ واستشارهم في أمرها؛ فأشاروا عليه بقتلها، فأمر بنزع ما عليها؛ وشدّها إلى أوتاد في الأرض، وضرب وتدين في صدرها فماتت رضي الله عنها.

ذكر خبر انقطاع النيل وكيف أجراه الله عزّ وجلّ لفرعون

قال الكسائي: ثم بعث الله تعالى الظُّلمة على أهل مصر ثلاثة أيام، فلم يعرفوا الليل من النهار، وانقطع عنهم النيل حتى أضرّ بهم العطش؛ فشكوا ذلك إلى فرعون

---

(١) الحاسرة: المسفرة عن وجهها.

فأمر بجمع الجنود وخرج ليُجْرِيه، فلمّا قرب من مكانه انفرد عن القوم ونزل عن فرسه وقال: إلـٰهي إنك إلـٰه السماء والأرض لا إلـٰه إلا أنت، وحلمك الذي يحملني أن أسألك ما ليس لي بحق، والخَلق خَلقُك، وقد علمتَ ما هم فيه من العطش وأنت المتكفّل بأرزاقهم؛ اللهم أجر لهم النيل. فما فرغ من كلامه حتى انصبّ النيل، وركب فرسه والنيلُ يجري معه إن سار سار وإن وقف وقف، حتى دخل مصر، فسجد القوم له، وازدادوا كفرًا؛ وعجب موسى وهارون لذلك.

ذكر خبر غرق فرعون وقومه

قال الكسائيّ: ولما رجع فرعون بجنوده وقد أجرى لهم النيلَ بزعمهم، دخل عليه جبريل في صورة آدميّ حسن الهيئة، فقال له: مَن أنت؟ قال: عبدٌ من عبيد الملك جئتُك مستعديًا على عبد من عبيدي مكّنتُه من نعمتي، وأحسنتُ إليه كثيرًا، فاستكبر وبغى وجحدني حقّي وتسمّى باسمي، وادّعى في جميع ما أنعمتُ عليه به أنّه له، وأنّه لا منعم عليه به. قال فرعون: بئس ذلك من العبيد. قال جبريل: فما جزاؤه عندك؟ قال: يُغرَق في هذا البحر. فقال له جبريل: أسألك أن تكتب لي خطّك بذلك. فكتب له فرعون خطًّا، وأخذه جبريل وجاء به إلى موسى، وأَمَرَه عن الله عزّ وجلّ أن يرتحل بقومه عن مصر؛ فنادى موسى في بني إسرائيل وأمرهم بالرحيل؛ فارتحلوا وهم يومئذٍ سِتُّمائة ألف.

قال الثعلبيّ: سِتُّمائة ألف وعشرون ألفًا لا يُعَدّ فيهم ابن سبعين سنة ولا ابن عشرين سنة؛ ولكنّ هؤلاء المُقاتِلةُ سوى الذريّة. وأهل التوراة يقولون: إنه لا يُعَدّ فيهم ابن خمسين سنة ولا ابن عشرين سنة، لا خلاف عندهم في هذا ويزعمون أنه نصّ التوراة.

قال الكسائي: فلما سمع فرعون بارتحالهم أمر باجتماع جنوده؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٥٣ - ٥٦]. فاجتمعوا وهم لا يُحصَون كثرة.

قيل: إنّ هامان كان على مقدِّمة فرعون بألف ألف وسِتّمائة ألف.

وقال الثعلبيّ: ألف ألفٍ وسبعمائة ألف رجل على ألف ألفٍ وسبعِمائة ألفِ حصان.

قال: وقال ابن جريج[١]: أرسل فرعون في أثر موسى وقومِه ألفَ ألفٍ وخمسَمائة ألف مَلِك مسوَّر، مع كل ملك ألفُ رجل؛ ثم خرج فرعون خَلْفَهم في الدُّهم، وكان في عسكره مائة ألف حصان أدهمَ سوى سائر الشِّيات[٢]، وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٠].

قال الكسائيّ: وساروا حتى قربوا من موسى ومن معه، فقالوا: يا موسى، قد لحقَنا فرعونُ بجنوده، والبحر أمامنا والسيف وراءنا، ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٢].

فأوحى الله تعالى إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٣] فضربه، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٣]. وصار فيه اثنا عشر طريقًا للأسباط الاثني عشر فجعلوا يسيرون وموسى أمامهم وهارون وراءهم، وجعل الله بينهم فتحًا ليرى بعضهم بعضًا، وجاء فرعون ومن معه إلى البحر ورأى تلك الطرق فيه، فقال لهامان: هذه تفرّقت من هيبتي. وقصد الاقتحام فلم يطاوعه فرسه ـ وكان حصانًا ـ ونفر من العُبور؛ فأتاه جبريل على رَمَكة[٣] في صورةِ آدميّ، فدنا من فرعون وقال: ما يمنعك من العُبور؟ وتقدّم إلى جنبه، فاشتمّ فرسُ فرعون رائحة الرَّمَكة فتبِعها ودخل فرعونُ وجنوده وجبريل أمامهم وميكائيل يسوق الناس، حتى لم يبق من جنود فرعون أحد على الساحل، فجاءه جبريل بخطّه؛ فلما رآه فرعون علم أنه هالك وانضمّت الطرق، وأُغرِق الناس، وفرعونُ ينظر إليهم؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: الآية ٩٠]. فقال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يُونس: الآية ٩١].

ثم غرق فرعون وجميع من معه وبنو إسرائيل ينظرون إليهم؛ ثم قال بنو إسرائيل: إنّ فرعون لم يَغرَق. فأمر الله تعالى البحر فألقاه على الساحل. قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يُونس: الآية ٩٢].

---

(١) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز، أحد المحدّثين الأعلام الفقهاء توفي سنة ١٥٠ هـ «الأعلام ٤/ ١٦٠».

(٢) الشّيات: جمع «شية» وهل كلُّ لون يخالف سائر لون الشيء، أو العلامة.

(٣) الرمكة: الفرس تتخذ للنّسل.

قال: فلمّا عبر موسى البحر ببني إسرائيل إلى الطُّور، إذا هم في طريقهم بقوم يعبدون الأصنام، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ[(١)] مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٨، ١٣٩].

ثم قال: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [الأعراف: الآية ١٤٠] وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، وأمرهم بالتوبة والاستغفار؛ ثم ساروا وفي قلوبهم حبّ الأصنام حتى قربوا من الطُّور.

ذكر خبر ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه وطلبه الرؤية وخبر الصاعقة والإفاقة

حكى أبو إسحٰق الثعلبيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢].

قال: كان ذلك في شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجّة.

قال: وذلك أنّ موسى عليه السلام كان قد وعد بني إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوّهم أن يأتيَهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذَرون؛ فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومَه واستنقذ بني إسرائيل من أيديهم، وأمّنهم من عدوّهم، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها، قالوا: يا موسى ائتنا بالكتاب الذي وعدتنا به. فسأل موسى ربَّه تعالى ذلك؛ فأمره أن يصوم ثلاثين ليلةٍ ثم يتطهر ويطهّرَ ثيابه ويأتيَ طورَ سيناءَ[(٢)] ليكلّمه ويعطيَه الكتاب؛ فصام ثلاثين يومًا؛ فلمّا صعد الجبل أنكر خلوفَ[(٣)] فمه، فاستاك بعودِ خرنوب.

وقال أبو العالية[(٤)]: أخذ من لِحاء الشجر فمَصّه؛ فقالت له الملائكة: كنا نَشَمّ من فمك رائحةَ المسك فأفسدتَه بالسواك، فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيّام

---

(١) المتبّر: المهلك والمخسّر.

(٢) طور سيناء: قال الليث: طور سيناء: جبل، وقال أبو إسحٰق: قيل: إن سيناء حجارة، وهو اسم جبل بقرب أيلة، وعنده بُليد فتح في زمن النبيّ ﷺ سنة تسع صلحًا، وما أظنه إلّا الذي تقدّم ذكره بأنه كورة بمصر «معجم البلدان ٤/٤٨».

(٣) الخلوف: تغيّر رائحة الفم.

(٤) أبو العالية: البراء البصري، زياد، وقيل: كلثوم محدّث ثقة، روى عن ابن عبّاس وغيره... «الكاشف ٣/ ٣١١».

أُخر، وقال له: أما علمتَ يا موسى أنّ خلوف فم الصائم أطيب عِندي من ريح المسك؟.

قال: وكانت فتنة بني إسرائيل في العشر ليالي التي زادها الله تعالى؛ فلما مضت أربعون ليلة تطهّر موسى وطهّر ثيابه لميقات ربّه؛ فلمّا أتى طور سيناء كلّمه ربّه وناجاه، وقرّبه وأدناه، كما قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٥٢].

قال وهب: كان بين الله تعالى وبين موسى سبعون حجابًا، فرفعها كلها إلّا حجابًا واحدًا، فسمع موسى كلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها، فقال ما أخبر الله عزّ وجلّ به عنه في كتابه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣]. فقال الله تعالى له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] وليس يطيق البشر النظرَ إليّ في الدنيا، من نظر إليّ مات. قال: إلٰهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموتَ أحبُّ إليّ من أن أعيش ولا أراك. فقال له تعالى: ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] وهو أعظم جبل يقال له: (الزَّبير).

قال: وذلك أنّ الجبال لَمّا علمت أن الله تعالى يريد أن يتجلّى لجبل منها تَعاظمتْ وتشامخت رجاء أن يتجلّى الله تعالى لها، وجعل الزَّبيرُ يتواضع من بينها فلما رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينها، وخصّه بالتجلّي، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣]، فتجلّى الله تعالى للجبل.

قال: واختلف العلماء في معنى التجلّي.

قال ابن عباس: ظهر نورُه للجبل.

وقال الضحّاك: أظهر الله تعالى من نور الحُجُب مثلَ منخر الثور.

وقال عبد الله بن سلام[1] وكعب: ما تجلّى من عظمة الله تعالى للجبل إلّا مثل سَمّ الخياط حتى صار دكًّا.

---

(١) هو عبد الله بن سلّام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابي، قيل: إنّه من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام، أسلم عند قدوم النبيّ ﷺ إلى المدينة، وكان اسمه الحُصين فسمّاه النبيُّ عليه الصلاة والسلّام عبد الله مات سنة ٤٣ هـ «الأعلام ٤/ ٩٠».

وقال السدّيّ[١]: ما تجلّى منه إلّا قدر الخنصر.

وقال الحسن: أوحى الله تعالى إلى الجبل فقال: هل تطيق رؤيتي؟ فغار الجبل وساخ[٢] في الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع.

قال أبو إسحاق: قال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق: حُكِي لي عن سهل بن سعد[٣] الساعديّ أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورًا قدر درهم، فجعل الجبل دكًا.

قال أبو بكر: فعذُب إذ ذاك كلُّ ماء، وأفاق كلُّ مجنون، وبرأ كلّ مريض وزال الشوك عن الأشجار، واخضرّت الأرض واهتزّت، وخمدت نيران المجوس وخرّت الأصنام لوجوهها.

وقال السّدّيّ: ما تجلّى للجبل إلّا مقدار جناح بعوضة، فصار الجبل دكًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ترابًا.

وقال سفيان: ساخ حتى وقع في البحر.

وقال عطية العوفيّ[٤]: صار رملًا هائلًا.

وقال الكلبيّ[٥]: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]، أي كُسِّر جبالًا صغارًا.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] قال: صار بعظمة الله ستّة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة: أُحد، ووَرِقان، ورَضْوَى. ووقعت ثلاثة بمكّة: ثَوْر، وثَبِير وحِراء.

---

(١) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن، تابعي حجازيّ الأصل، سكن الكوفة، كان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيام النّاس، قال ابن تغري بردي: هو صاحب التفسير والمغازي والسّير مات سنة ١٢٨ هـ «الأعلام ١/٣١٧».

(٢) ساخ في الأرض: غاص.

(٣) هو سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري، صحابي، من أهل المدينة، عاش نحو مئة سنة، وله في كتب الحديث ١٨٨ حديثًا مات سنة ٩١ هـ «الأعلام ٣/١٤٣».

(٤) هو عطية بن سعد العوفي، أبو الحسن، أحد رواة الحديث، مات سنة ١١١ هـ «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

(٥) الكلبي: هو محمد بن السّائب، أبو النضر الكوفي، محدّث رؤية مات سنة ١٤٦ هـ «الكاشف ٣/ ٤٠».

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: مغشيًا عليه.

وقال قتادة: ميّتًا.

وقال الكلبيّ: خرّ موسى صعقًا: يوم الخميس يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر.

قال الواقديّ[١]: لمّا خرّ موسى صعقًا قالت الملائكة: ما لابن عمران وسؤال الرؤية.

قال وهب: لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضَّباب والصواعق والظُّلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الّذي عليه موسى، وأمر الله تعالى ملائكة السمٰوات أن يُعرَضوا على موسى أربعةَ فراسخ من كلّ ناحية؛ فمرّت ملائكة سماء الدنيا كثِيران البقر، تُتابع أفواهُهم التقديسَ والتسبيح بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية: أن اهبطوا على موسى. فهبطوا عليه مثل أسد لهم نَحِيتٌ[٢] بالتسبيح والتقديس؛ ففزع موسى مما رأى وسمع واقشعرّ جلده، ثم قال: ندمتُ على مسألتي، فهل ينجيني من مكاني الّذي أنا فيه شيء؟ فقال له حَبْر الملائكة ورأسُهم: يا موسى اصبر لما رأيت، فقليل من كثير رأيتَ. ثم هبطتْ ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور، لهم قَصْف ورَجْف باالتسبيح والتهليل والتقديس كجلَب[٣] الجيش العظيم وكلَهَب النار؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الّذين مرّوا به قبلَهم، ألوانهم كلهب النار، وسائر خَلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الّذين مرّوا به قبلهم؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الخامسة في سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يُتبِعهم[٤] الطَّرْف، لم يَرَ مثلهم ولا سمع مثل أصواتهم، وامتلأ جوف موسى فزعًا، واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه؛ ثم قال له حبر الملائكة ورأسُهم: يا ابن عمران، مكانك حتّى ترى ما لا تصبر عليه؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي الّذي أراد أن يراني؛ فعُرِضوا عليه وفي يد كلّ منهم

---

(١) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد السهلي، أبو عبد الله، من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن حفّاظ الحديث، له تصانيف عديدة مات سنة ٢٠٧ هـ «الأعلام ٦/ ٣١١».

(٢) نحيت: هو اللهث وشدة تتابع النفس. (٣) الجلب: اختلاط الأصواب.

(٤) يتبعهم الطّرف: أي أن يديم النظر إليهم.

حربة مِثلُ النخلة الطويلة، نارُها أشدّ ضوءًا من الشمس، ولباسهم كلهب النِّيران، إذا سبّحوا وقدّسوا جاوَبَهم من كان قِبلهم من ملائكة السمٰوات، كلّهم يقولون بشدّة أصواتهم: سبّوح قدّوس ربّ العزّة أبدًا لا يموت. وفي رأس كل ملَك منهم أربعة أوجه؛ فلمّا رآهم رفع صوته يسبّح معهم ويبكي ويقول: ربّ اذكرني ولا تنس عبدك، لا أدري هل أتخلّص مما أنا فيه أم لا، إن خرجتُ احترقت وإن مكثتُ مِت. فقال له كبير الملائكة ورئيسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتدّ خوفك وينخلع قلبك، فاصبر للذي سألت.

ثم أمر الله تعالى أن يُحمل عرشُه في ملائكة السماء السابعة، فقال: أرُوه إيّاه. فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة ربّ العزّة، وردّدت ملائكة السمٰوات أصواتهم جميعًا؛ فارتج الجبل، واندكت كلّ شجرة كانت فيه، وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ليس معه رُوحه؛ فقلب الله تعالى الحجر الذي كان موسى عليه وجعله كهيئة القبّة لئلا يحترق موسى؛ وأرسل الله عليه روحَ الحياة برحمته؛ فقام موسى يسبّح الله تعالى ويقول: آمنتُ أنّك ربّي وصدّقتُ أنه لا يراك أحد، فنجّني، ومَن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه، فما أعظمك وأعظم ملائكتك! أنت ربّ الأرباب وإلٰه الآلٰهة وملك الملوك، لا يَعدِلك شيء، ولا يقوم لك شيء، تبت إليك، الحمد لك لا شريك لك ربّ العالمين.

ذكر خبر الألواح ونزول التوراة والعشر كلمات

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: الآيات ١٤٣ - ١٤٥].

قال الثعلبيّ: ثم بعث الله جبريل عليه السلام إلى جنّة عدن فقطع منها شجرة، فاتخذ منها تسعة ألواح، طول كلّ لوح عشر أذرع بذراع موسى، وكذلك عرضه، وكانت الشجرة من زمرّد أخضر؛ ثم أمر الله تعالى جبريل أن يأتيه بسبعة أغصان من سدرة المنتهَى؛ فجاء بها، فصارت جميعها نورًا، وصار النور قلمًا طاف فيما بين السماء والأرض فكَتَب التوراة، وموسى يسمع صرير القلم؛ فكتب الله تعالى له: ﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥] وذلك يوم الجمعة، فأشرقت الأرض بالنور؛ ثم أمر الله تعالى موسى أن يأخذها بقوّة ويقرئها

قومه؛ فوضعت الألواح على السماء فلم تطِق حملها لثقل العهود والمواثيق؛ فقالت: يا ربّ كيف أطيق حمل كتابك الكريم الثقيل المبارك؟ وهل خلقت خلقًا يطيق حمل ذلك؟ فبعث الله تعالى جبريل وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى، فلم يطِق حملها، فقال: يا ربّ من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود؟ وهل خلقتَ خلقًا يطيق حملها؟ فأمدّه الله تعالى بملائكة يحملونها بعدد كلّ حرف من التوراة؛ فحملوها حتى بلّغوها موسى؛ فعرضوا له الألواح على الجبل، فانصدع الجبلُ وخشع، وقال: يا ربّ من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها؟ فلمّا وضعتها الملائكة على الجبل بين يدي موسى ـ وذلك عند صلاة العصر ـ قبض موسى عليها فلم يُطِق حملَها، فلم يزل يدعو حتّى هيأ الله تعالى له حملها؛ فحمَلَها، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٤].

قال: وأمّا العشر كلمات الّتي كتبها الله تعالى لنبيّه موسى في الألواح ـ وهي معظم التوراة، وعليها مدار كلّ شريعة[(١)] ـ فهي: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ١]، هذا كتاب من الله الملكِ الجبّارِ العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران، سَبِّحني وقدِّسني، لا إلـٰه إلا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئًا و﴿ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمَان: الآية ١٤] أحيِك حياة طيّبة؛ ولا تقتل النفس الّتي حرّم الله عليك فتضيق عليك السماءُ بأقطارها والأرضُ برُحبها؛ ولا تحلف باسمي كاذبًا فإنّي لا أطهّر ولا أزكّي من لم يعظِّم اسمي؛ ولا تشهد بما لا يعي سمعُك ولا تنظر عينُك ولم يقف قلبُك عليه فإني أقف أهلَ الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة، وأسائلهم عنها؛ ولا تحسد الناس على ما آتيتُهم من فضلي ورزقي، فإنّ الحاسد عدوّ لنعمتي، ساخط لقِسمتي؛ ولا تزنِ ولا تسرق فأحجبَ عنك وجهي، وأُغلِقَ دون دعوتِك أبواب السمٰوات؛ ولا تذبح لغيري، فإنه لا يصعد إليّ من قُربان الأرض إلّا ما ذُكِر عليه اسمي؛ ولا تغدرنّ بخليلة جارك فإنّه أكبر مقتًا عندي؛ وأَحِبَّ للناس ما تحبّ لنفسك. فهذه العشر كلمات؛ وقد أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّنا محمد ﷺ مثلها في ثماني عشرة آية، وهي قوله تعالى في سورة بني إسرائيل[(٢)]:

---

(١) مدار كلّ شريعة: أي قوام كلّ شريعة وأساسها وركائزها.

(٢) سورة بني إسرائيل: هي سورة الإسراء، سمّيت بذلك لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾ [الإسرَاء: الآية ٤].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسـراء: الآيـات ٢٣ - ٣٩] ثـم جمعها في آيتين من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٥١، ١٥٢].

وقد روى أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: لمّا أعطى الله موسى الألواح نظر فيها وقال: يا ربّ لقد أكرمتني بكرامة لم تُكرم بها أحدًا قبلي. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤].

وأخرج الحافظ[(١)]: تموت على حبّ محمد عليه السلام. قال موسى: يا ربّ وما محمد؟ قال: أحمد الذي أثبتّ اسمه على عرشي من قبل أن أخلق السمٰوات والأرض بألفي عام، وإنه لنبيّ وحبيبي وخِيرتي من خلقي، هو أحبّ إليّ من جميع خلقي ومن جميع ملائكتي. قال: يا ربّ إن كان محمد أحبَّ إليك من جميع خلقك فهل خلقتَ أمّة أكرم عليك من أمّتي؟ قال الله تعالى: إنّ فضل أمّة محمد عليه السلام على سائر الأمم كفضله على سائر الخَلْق. قال: يا ربّ ليتني رأيتهم. قال: إنّك لن تراهم، ولو أردتَ أن تسمع كلامهم لسمعتَ. قال: يا ربّ فإنّي أريد أن أسمع كلامهم. قال: يا أمّة محمد. فأجبنا كلُّنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمّهاتنا: لَبَّيْكَ اللّهمّ لبّيك لا شريك لك. قال الله تعالى: يا أمّة محمد. إنّ رحمتي سبقت غضبي، وعفوي عقابي، قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني، وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصوني، من جاء يوم القيامة يشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمدًا عبدي ورسولي دخل الجنة ولو كانت ذنوبه أكثرَ من زَبَد البحر. وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القَصَص: الآية ٤٤].

وروى الثعلبيّ أيضًا بسند رفعه إلى (كعب الأحبار) أنّه رأى حَبرًا من أحبار اليهود يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ فقال له: ذكرتُ بعض الأمر. فقال كعب: أنشدك الله إن أخبرتُك بما أبكاك أتصدّقني؟ قال: نعم. قال: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: إني أجد أمّة هي خير أمّة أُخرجتْ للناس يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، يؤمنون بالكتاب الأوّل وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهلَ الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال. فقال موسى: يا ربّ اجعلهم أمّتي. قال: هي أمّة أحمدَ يا موسى. فقال له الحبر: نعم. قال كعب: أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: إني أجد أمّة هم الحامدون، الرُّعاة الشُّمُسُ[(٢)] المحكّمون، إذا أرادوا أمرًا قالوا: «نفعله إن شاء الله تعالى» فاجعلهم أمّتي. قال: هي أمّة أحمد يا موسى. قال له الحَبر: نعم. قال:

---

(١) الحافظ: هو الحسن بن سفيان بن عامر الشيباني النسوي، أبو العباس، مصنّف المسند في الحديث، كان محدّث خراسان في عصره، مقدّمًا في الفقه والأدب مات سنة ٣٠٣ هـ «الأعلام ٢/١٩٢».

(٢) الشُّمُس: بضمّ الشين: الأعزاء الذين لا ينقادون للمذلة ويشمسون: أي يمتنعون ويأبون.

أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: ربّ إنّي أجد أمّة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم.

قال: «وكان الأوّلون يُحرِقون صدقاتهم بالنار، غير أنّ موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل فلا يجد عبدًا مملوكًا ولا أمة ألّا اشتراه ثم أعتقه من تلك الصدقة وما فضل حفر له حفيرة عميقة وألقاه فيها، ثم دفنه كيلا يرجعوا فيه» وهم المسبِّحون والمسبَّح لهم، وهم الشافعون والمشفَّع لهم. قال موسى: يا ربّ اجعلهم أمّتي. قال: هم أمّة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله أتجد في التوراة أنّ موسى نظر في التوراة فقال: إنّي أجد أمّة إذا أشرف أحدهم على شَرَف[1] كبّر الله تعالى، وإذا هبط واديًا حَمِد الله تعالى؛ الصعيد لهم طَهور والأرضُ لهم مسجد حيثما كانوا، يتطهّرون من الجنابة، طُهُورهم بالصعيد كطُهورهم بالماء حين لا يجدون الماء؛ غُرٌّ[2] محجَّلون[3] من آثار الوضوء، فاجعلهم أمّتي. قال: هي أمّة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: يا ربّ إنّي أجد أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها تُكتَبُ له، فإنْ عملها ضوعفتْ عشرَ أمثالها إلى سبعِمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه، وإن عملها تُكتَب عليه سيّئة مِثلَها. فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة أحمد يا موسى. قال الحبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله أتجد في كتاب الله المنزَّل أن موسى نظر في التوراة فقال: ربّ إنّي أجد أمّة مرحومة ضعفاء «يرثون[4] الكتاب الّذين اصطفينا» ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] فلا أجد أحدًا منهم إلّا مرحومًا فاجعلهم أمتي. قال: هي أمّة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: يا ربّ إنّي أجد أمّة مرحومة، مصاحفُهم في صدورهم، يلبسون ألوان ثيابِ أهل الجنّة يَصُفّون في صلاتهم صفوفًا كصفوف الملائكة، أصولتهم في مساجدهم كدَوِيِّ النحل، لا يدخل

(١) الشّرف: المكان العالي، فالسّياق يقتضي هذا المعنى لأنه يقول: إذا أشرف وإذا هبط.

(٢) الغرُّ: البيض الوجوه.

(٣) المحجّل: المشهور، والمحجّل من الخيل: ما كان في قوائمه بياض، لعلّه يريد: أن أيديهم ووجوههم بيضًا، يسطع نورها من أثر الوضوء والصلاة...

(٤) كذا وردت هذه العبارة التي بين قوسين، ويلاحظ أنه يقصد الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطِر: الآية ٣٢].

النار منهم أحد إلّا مَرّ الحسبان[١] مثل ما يُرمَى الحجر من وراء الشجر. فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال: فعجب موسى من الخير الذي أعطاه الله محمدًا وأمّته. وقال: يا ليتني من أصحاب محمد. فأوحى الله تعالى إليه ثلاثَ آيات يرضيه بهنّ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ إلى قوله: ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٤٤، ١٤٥]، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩].

قال: فرضيَ موسى كلَّ الرضا.

ولنصل هذا الفصل بما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥]، وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩].

قال الثعلبيّ: قال أهل المعاني: هذا كقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدًا إلى ما تصير إليه حالُ من يخالف أمري» على وجه الوعيد والتهديد.

وقال مجاهد: سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ، يعني مَصيرَهم في الآخرة.

وقال الحسن[٢]: جهنّم.

وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشأمَ فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكّانها من الجبابرة والعمالقة.

وقال عطيّة العوفيّ: معناه سأريكم دار فرعون وقومه، وهي مصر.

قال أبو العالية: رُفعت مصر لموسى حتّى نظر إليها.

وقال السدّيّ: دار الفاسقين: مصارع الفاسقين، ما يمرّون عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرونِ الذين أُهلِكوا.

وقال ابن كيسان[٣]: دار الفاسقين، يعني إلى ما يصير قرارهم في الأرض.

---

(١) والحسبان جمع حسبانة ضرب من السهام صغار قصار كالمسالّ. يعني أن أُمة محمد لا يدخلون النار إلا مرورًا كمرور السهام. ومرور السهم ومروقه يُضرَب مثلًا لسرعة النفاذ. ومنه قوله ﷺ في صفة الخوارج: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

(٢) هو الحسن البصري، تقدّم ذكره.

(٣) ابن كيسان: هو محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن، من أهل بغداد، عالمٌ بالعربية نحوًا ولغة، له تصانيف كثير: منها «غريب الحديث» «ومعاني القرآن» مات سنة ٢٩٩ هـ «الأعلام ٥/٣٠٨».

وقيل: الدار الهلاك، وجمعه أدوار؛ وذلك أن الله تعالى لمّا أغرق فرعون وقومَه أمر البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل؛ ففعل، فنظر إليهم بنو إسرائيل، فأراهم هلاكَ الفاسقين.

وقال يمان[١]: يعني مسكن فرعون.

وأما ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] يعني بني إسرائيل، ﴿أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] جماعة، ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] أي يرشدون إلى الحق.

وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] أي ينصِفون من أنفسهم لا يجورون.

قال السدّيّ: هم قوم بينكم وبينهم نهر من شُهْد[٢].

وقال ابن جريج: بلغني أن بني إسرائيل لمّا قتلوا أنبياءهم وكفروا - وكانوا اثني عشر سِبطًا - تبرّأ سبط منهم؛ واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم وبينهم، ففتح الله تعالى لهم نَفَقًا في الأرض، فساروا فيه سنةً ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصّين؛ فهم هناك حنفاءُ مسلمون مستقبلون قبلتَنا.

قال الكلبيّ وربيع[٣] والضحّاك وعطاء: هم قوم من المغرب خلف الصين على نهر يحوي الرمل يسمى نهر أوران، وليس لأحدهم مال دون صاحبه؛ يُمطَرون بالليل، ويصحَون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منّا أحد ولا منهم إلينا وهم على الحقّ.

قال: وذكر عن النبيّ ﷺ أن جبريل ذهب به ليلة أُسرِيَ به إليهم؛ فكلّمهم؛ فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلّمون؟ قالوا: لا. قال: هذا محمّد النبيّ الأمّيّ. فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله، إن موسى أوصانا وقال: من أدرك منكم أحمدَ فليقرأ

---

(١) يمان: لعلّه يمان بن عديّ الحمصي، محدّث، شيخ «الكاشف ٣/ ٢٥٩».

(٢) الشُّهد: والشَّهْد: العسل.

(٣) ربيع: لعلّه الرّبيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي، عالم بالحديث، من أعيان المئة الثانية للهجرة له كتاب في الحديث سُمِّي «الجامع الصحيح» «الأعلام ٣/ ١٤».

منّي عليه السلام. فردّ رسول الله ﷺ على موسى وعليهم السلام؛ ثم أقرأهم عشرَ سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضةٌ سوى الصلاة والزكاة، فأمرهم بالصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يَسبِتون، فأمرهم أن يُجمّعوا ويتركوا السبت.

حكاه أبو إسحٰق الثعلبيُّ في تفسيره.

نرجع إلى تتمّة أخبار موسى عليه السلام.

ذكر خبر السامري واتخاذه العجل وافتتان بني إسرائيل به

قال الكسائيّ والثعلبيّ وغيرُهما من أهلِ السير ما مختصره ومعناه: إن موسى عليه السلام لمّا توجّه إلى البقعة المباركة الّتي كلّمه الله تعالى فيها لميقات ربّه، استَخلَف أخاه هارونَ على بني إسرائيل، وكان السامريّ فيهم.

واختُلِف فيه، فقال قتادة والسدّيّ: كان السامريّ من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها: (سامِرة)[١] ولكنه عدوّ لله منافق.

وقال سعيد[٢]: كان السامريّ من (كرمان).

وقال غيرهم: كان رجلًا صائغًا من أهل باجَرْما، واسمه مِيخَا.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: اسمه موسى بن ظَفَر، وكان رجلًا منافقًا وقد أظهر الإسلام؛ وكان من قومٍ يعبدون البقر، فدخل قلبَه حبُّ البقر، فلما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربّه ـ وكان قد واعد قومَه ثلاثين ليلةً فأتمّها الله بعشر، كما أخبر الله عزّ وجلّ ـ فعَدّ بنو إسرائيل ثلاثين، فلمّا لم يرجع إليهم موسى افتَتنوا وقالوا: إنّ موسى أخلفنا الوعد؛ فاغتنمها السامريُّ ففعل ما فعل.

وقال قوم: إنهم عَدّوا الليلة يومًا واليومَ يومًا، وكان موسى قد واعدهم أربعين، فلمّا مضت عشرين يومًا افتتنوا، فأتاهم السامريُّ وقال: إنّ موسى قد احتبس عنكم، فينبغي لكم أن تتخذوا إلـٰهًا، فإنّ موسى ليس يرجع إليكم، وقد تمّ الميقات. وإنما طمع فيهم السامريُّ لأنّهم في اليوم الذي أنجاهم الله من فرعون وطلعوا من البحر،

---

(١) سامرة: في شرح القاموس: أن اسم هذه القبيلة «سامر» بدون هاء.

(٢) هو سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، تابعي جمع بين الفقه والحديث والزهد «الكاشف ١/ ٢٩٦».

كان من أمرهم ما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] فطمع السامريُّ فيهم واغتنمها، فلمّا تأخر موسى عن الميقات ـ وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليّ آل فرعون كما قدّمنا؛ فلمّا فصل موسى قال هارون لبني إسرائيل: إنّ حليّ القبط الّذي استعرتموه غنيمة، وإنّه لا يحلّ لكم؛ فاجمعوه فاحفروا له حفيرة وادفنوه حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه. ففعلوا ذلك، وجاءهم السامريّ ومعه القبضة التي قبضها من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام.

قالوا: وكان لجبريل عليه السلام فرس أنثى بلقاء[1] يقال لها: «فرس الحياة» لا تصيب شيئًا إلّا حيي؛ فلما رأى السامريّ جبريلَ على تلكَ الفرس عرفه وقال: إن لهذا الفرس لشأنًا. وأخذ قبضة من تراب حافرها حين عبر جبريلُ البحر.

قالوا: وإنّما عرف السامريُّ خبر الفرس دون غيره من بني إسرائيل، لأنّ فرعون لمّا أمر بذبح أولاد بني إسرائيل جَعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقتْ به سرًّا في جوف الليل إلى صحراءَ أو وادٍ أو غارٍ في جبل فأخفته، فقيّض الله تعالى له ملَكًا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى لا يختلط بالناس، وكان الذي وَلِيَ كفالة السامريِّ جبريل عليه السلام، فجعل يمصّ من إحدى إبهاميه سمنًا، ومن الأخرى عسلًا، فمِن ثَمّ عرفه، ومن ثَمّ الصبيّ إذا جاع يمصّ إبهامَه فيروَى من المصّ.

نرجع إلى خبر بني إسرائيل مع السامريّ.

قال: فلمّا أمرهم هارون بجمع الحليّ وجمعوه، جاء السامريّ بالقبضة فقال لهارون: يا نبيّ الله، أأقذفها فيه؟ فظنّ هارون أنها من الحليّ، وأنّه يريد بها ما يريد أصحابه، فقال له: اقذف. فقذفها في الحفرة على الحليّ، فصارَ عجلًا جسدًا له خُوار.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أوقد هارون نارًا وأمرهم أن يقذفوا الحليّ فيها؛ فقذف السامريّ تلك القبضة فيها وقال: «كن عجلًا جسدًا له خوار». فكان كذلك للبلاء والفتنة.

---

(١) البلقاء: التي لونها سوادٌ وبياض.

ويقال: إنّ الّذي قال لبني إسرائيل: «إنّ الغنيمة لا تحل لكم» هو السامريّ، فصدّقوه وجمعوها، فدفعوها إليه فصاغ منها عجلًا في ثلاثة أيام ثم قذف فيه القبضة، فجثا وخار خَوْرةً ثم لم يعد.

وقال السدّيّ: كان يخور ويمشي؛ فلمّا أخرج السامريُّ العجلَ وكان من ذهب مرصّع بالحجارة كأحسن ما يكون، قال هذا إلـٰهكم وإلـٰه موسى. فشبّه السامريّ على أوغاد بني إسرائيل وجُهّالِهم حتى أضلّهم وقال لهم: إنّ موسى قد أخطأ ربّه فأتاكم ربُّه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه، وأنه قد أظهر لكم العجلَ ليكلّمكم من وسطه كما كلّم موسى من الشجرة.

قالوا: فلمّا رأوا العجل وسمعوا قول السامريّ، افتَتَنوا غير اثني عشر ألفًا وكان مع هارون سِتُّمائة ألف، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله تعالى، وأحبّوه حبًّا ما أحبّوا مِثلَه شيئًا قطّ؛ فقال لهم هارون يا بني إسرائيل: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: الآيتان ٩٠، ٩١].

فأقام هارون بمن معه من المسلمين، وأقام من يعبد العجل على عبادته؛ وخشي هارون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتتنين الضالّين أن يقول له موسى: فرقت بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قال راشد بن سعد[١]: لما واعد الله تعالى موسى أربعين يومًا قال الله تعالى: يا موسى، إنّ قومك قد افتتنوا من بعدك. قال: يا ربّ كيف يفتتنون وقد نجّيتَهم من فرعون ومن البحر، وأنعمت عليهم؟ قال: إنهم اتخذوا العجل إلـٰهًا من دوني وهو عجل جسد له خُوار. قال: يا ربّ مَن نفخ فيه الرُّوح؟ قال: أنا. قال: أنت ـ وعزّتك ـ فتنتهم، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥].

قال: فلمّا رجع موسى من الميقات إلى قومه وقرب منهم، سمع اللغط[٢] حول العجل وكانوا يرقصون حوله، ولم يخبر موسى أصحابَه السبعين بما أخبره به ربّه

---

(١) هو راشد بن سعد الحمصي، محدّث ثقة، شهد صفّين توفي سنة ١٦٣ هـ «الكاشف ١/ ٢٣١».

(٢) اللغط: الصّوف والضجّة والجلبة.

تعالى من حديث العجل، فقالوا: هذا قتالٌ في المحَلّة. قال موسى لهم: لا ولكنّها أصوات الفتنة، افتتن القومُ بعدنا بعبادة غير الله تعالى.

ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠] وذلك أنّه لما رآهم حول العجل وما يصنعون فيه ألقى الألواح من يده فتكسّرت، فصعد عامّة الكلام الذي فيها، ولم يبقَ إلّا سُدسها، ثم أعيدت له في لوحين.

رُوِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: ليس المُعاين كالمخبَر، قال الله تعالى لموسى: إن القوم قد افتتَنوا فلم يُلقِ الألواح، فلمّا عاين ألقى الألواح فكسرها.

قالوا: فلما رأى موسى ما صنع قومُه بعده من عبادة العجل، أخذ شعر رأس أخيه هارون بيمينه، ولحيتَه بشماله وقال له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: الآيتان ٩٢، ٩٣]، هلّا قاتلتَهم إذ علمتَ أنّي لو كنت فيما بينهم لقاتلتُهم على كفرهم؟ فقال هارون: يا ابن أمَّ؛ قال المفسّرون: كان هارون أخا موسى لأبيه وأمّه، ولكنّه أراد بقوله: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ [طه: الآية ٩٤] تقريبه واستعطافه عليه، ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ﴾ [طه: الآية ٩٤] إنْ أُقاتلهمْ أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضًا، فتقول: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: الآية ٩٤]، ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠]، فقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

قال: ثم أقبل موسى على السامريّ فقال له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ [طه: الآية ٩٥] أي ما أمرُك وشأنُك؟ فقال السامريّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: الآية ٩٦] أي أخذتُ ترابًا من أثر فرس جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: الآية ٩٦] وطرحتها في العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: الآية ٩٦] أي زَيّنت.

قال: فلمّا علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطأوا وضلّوا في عبادتهم العجل، ندموا على ذلك واستغفروا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٤٩]، فقال لهم موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]. قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]، أي بقتل البريءُ المجرمَ، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٩] يعني القتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أبى الله أن يقبل توبة بني إسرائيل إلّا بالحال الّتي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل.

وقال قتادة: جعل الله توبة عبدةِ العجل القتلَ لأنّهم ارتدّوا، والكفر مبيح للدّم.

وقال الكسائيّ: لمّا قال موسى لبني إسرائيل: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]، سألوه أن يتوب الله تعالى عليهم؛ فسأل الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه أنّه لا توبة لهم، لأنّ في قلوبهم حبَّ العجل، فاجمع رماد العجل وألقه في الماء، وامرهم أن يشربوا منه فإنه يظهر ما في قلوبهم على وجوههم. ففعل ذلك؛ فلمّا شربوا لم يبق أحد ممّا في قلبه مرض إلا اصفرّ وجهه ولونُه وورِم بطنُه، ودام ذلك بهم، فقالوا: يا موسى، هل شيء غير التوبة الخالصة وقد أخلصنا في توبتنا حتى لو أمرتنا بقتل أنفسنا فعلنا؟ فأوحى الله إليه: يا موسى قد رضيتُ بحكمهم على أنفسهم، فقل له: يقتلوا أنفسهم إن كانوا صادقين في توبتهم. فقال لهم موسى ما أمرهم الله به: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]. فقالوا: كيف نقتل أنفسنا؟ قال: يا قوم من لم يعبد العجلَ إلى من عبده فيقتله. فقاموا بالسيوف والخناجر إلى الّذين عبدوه وأرسل الله عليهم ظُلمةً فلم يُبصِر بعضهم بعضًا، حتى كان الرجل يأتي إلى أخيه وأبيه وابن عمه وقرابته فيقتله وهو لا يعرفه، ولم يعمل السلاح فيمن لم يعبد العجل حتى خاضوا في الدماء، وصاح النساء والصبيانُ إلى موسى: «العفوَ يا نبيّ الله» فدعا موسى اللهَ بالعفوَ عنهم؛ فلم يعمل السلاحُ فيهم بعد ذلك، وقبل الله تعالى توبتهم، وارتفعت الظُّلمة عنهم.

قالوا: ثم همّ موسى بقتل السامريّ، فأوحى الله تعالى إليه: لا تقتله فإنّه سخيّ، ولكن أخرجه عن قومك. فلعنه موسى وقال له ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ[1] وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾

---

(١) لا مساس: لا أمسّ، ولا أمسّ.

[طه: الآية ٩٧] أي لعذابك في القيامة. ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: الآية ٩٧].

قال: وأمر موسى بني إسرائيل ألّا يخالطوا السامريّ ولا يقاربوه؛ فصار السامريّ وحشيًّا لا يألَف ولا يؤلَف ولا يدنو من الناس ولا يمسّ أحدًا منهم فمَن مسّه قُرض ذلك الموضع بالمقراض، فكان ذلك دأبه حتى هلك.

ذكر خبر امتناع بني إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفعِ الجبل عليهم وإيمانهم

قال الكسائيّ: ثم أقبل موسى على بني إسرائيل بالتوراة وقال: هذا كتاب ربّكم فيه الحلال والحرام والأحكام والسنن والفرائض ورجمُ الزاني والزانية المحصَنَين وقطع يد السارق، والقصاص في كل ذنب يكون منكم. فضجّوا من ذلك وقالوا: لا حاجة لنا في هذه الأحكام، وما كنا فيه من عبادة العجل كان أرفق بنا من هذا.

قال: فلما امتنعوا من قبول أحكام الله عزّ وجلّ قال موسى: يا رب قد علمت أنهم ردّوا كتابك وكذّبوا بآياتك. فأمر الله تعالى جبريل أن يرفع عليهم جبل طور سيناء في الهواء؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٧١]، ﴿وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: الآية ٩٣] فجعل الجبل يدنو منهم حتى ظنوا أنه يسقط عليهم؛ فآمنوا وخرّوا سجّدًا على أنصاف وجوههم وهم ينظرون إلى الجبل بالنصف الآخر؛ فلأجل ذلك سجود اليهود كذلك. وردّ الجبل عنهم.

ذكر خبر الحجر الذي وضع موسى عليه السلام ثيابه عليه

قال: وكانوا إذا اغتسلوا لا يسترون عوراتهم، وإذا اغتسل موسى يستتر فظنوا أن في بدنه عيبًا، فتكلموا بذلك، وكان موسى عليه السلام إذا اغتسل وضع ثوبه على حجر وقرعه بعصاه فيتفجر الماء منه، فيغتسل ثم يلبس ثوبه؛ ففعل ذلك في بعض الأيام، فلما أراد أن يلبس ثوبه انقلع الحجر من موضعه ومرّ على وجه الأرض وعليه ثوب موسى؛ فعدا موسى خلفه وهو يقول: «ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر» ولم يزل يعدو حتى وقف على بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى ولا عيب فيه، فندموا على ما كان منهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٩].

ذكر خبر طلب بني إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم بالصاعقة، وكيف أحياهم الله ـ عزّ وجلّ ـ وبعثهم من بعد موتهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآيتان ٥٥، ٥٦].

وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل؛ فاختار موسى عليه السلام سبعين رجلًا من قومه من خيارهم، وكان قد اختار من كلّ سِبط ستّة نفر، فصاروا اثنين وسبعين، فقال: إنما أمرت بسبعين، فليتخلّف منكم رجلان. فتشاحنوا[1] على ذلك، فقال موسى: إن لمن قعد مِثل أجر من خرج. فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، فقال موسى للسبعين: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. ففعلوا ذلك فخرج بهم موسى عليه السلام إلى طور سيناء لميقات ربه؛ فلما بلغوا ذلك الموضع قالوا لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عمود الغمام عليه وتَغشَّى الجبلَ كلَّه، فدخل في الغمام وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه عزّ وجلّ - وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه؛ فضرب دونه الحجاب، ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وخرّوا سجّدًا، وسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه؛ فأسمعهم الله تعالى: إني أنا الله لا إلـٰه إلا أنا ذو المُلك، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدوني ولا تعبدوا غيري. فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٥] أي لن نصدّقك، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٥] وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعًا.

وقال وهب بن منبّه: أرسل الله عليهم جندًا من السماء، فلما سمعوا حسّها ماتوا في يوم وليلة.

فلما هلكوا جعل موسى عليه السلام يبكي ويتضرّع ويقول: يا ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم، ولو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٥]، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله عزّ وجلّ رجلًا بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون. حكاه الثعلبيّ في تفسيره.

---

(١) الشحناء: العداوة والبغضاء.

وقال الكسائيّ في هذه القصة: أقبل بنو إسرائيل على موسى وقالوا: أرنا الله جهرة. فأوحى الله تعالى إليه: أكلّهم يريد ذلك؟ ـ وهو أعلم ـ فقال الصالحون منهم: إن الله أجل من أن نراه في الدنيا.

وقال الباقون: إنما امتنع هؤلاء لضعف قلوبهم. فأوحى الله تعالى إليه: أن اختر منهم سبعين رجلًا وسر بهم إلى جبل الطور؛ فسار بهم، ووقع الغمام على الجبل حتى أظله، وأتاه موسى وهم معه؛ فأمر الله تعالى الملائكة أن تهبط إلى الجبل بزيّها وصوَرِها؛ فلما نظر بنو إسرائيل إليهم أخذتهم الرِّعدة والخوف، وندموا على ما كان منهم، ونودوا من قبل السماء: يا بني إسرائيل. فصعقوا كلّهم وماتوا. وساق نحو ما تقدّم.

قال: ورجعوا إلى قومهم وخبّروهم بما رأوا.

ذكر خبر قارون

قال المفسرون: إنّ قارون كان ابن عم موسى، لأنه قارون بن يصهر بن قاهث.

وقال ابن إسحٰق: هو عم موسى، لأن يصهر بن قاهث تزوّج شميش[1] بنت ماويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم، فولدت له عمران بن يصهر وقارون بن يصهر.

فعلى هذا القول يكون عم موسى؛ وعلى قول الآخرين يكون ابن عمه، وعليه عامّة أصحاب التواريخ؛ وعليه أهل الكتاب، لا خلاف عندهم في ذلك.

قالوا: وكان قارون أعلمَ بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأفضلَهم وأجملَهم.

قال قتادة: وكان يسمى المبشور[2] لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه، ولكنّ عدوّ الله نافق كما نافق السامريّ، فبغى على قومه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦].

قال الثعلبيّ: واختلفوا في معنى هذا البغي ما هو، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فرعون قد ملّك قارون على بني إسرائيل، وكان يبغي عليهم ويظلمهم.

(١) كذا في تاريخ العيني الورقة ٣٠٠ من الجزء الثاني، قسم ثان، والذي في الأصول: «سميث» بنت ماديب بن نوكيا بن يعشان.

(٢) في الأصل «المبسور» وهو تحريف.

وقال عطاء الخراسانيّ وشهر بن حوشب[١]: زاد عليهم في الثياب شبرًا.

وقال شيبان[٢] عن قتادة: بغى عليهم بالكبر والبَذَخ.

وقال سعيد عنه: بكثرة المال. وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦] أي تثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها.

واختلف المفسرون في عدد العصبة، فقال مجاهد: ما بين العشرة إلى الخمسة.

وقال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين.

وقال عكرمة: منهم من يقول: سبعين.

وقال الضحّاك: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

وقيل: هم ستون.

وروى جرير[٣] عن منصور[٤] عن خيثمة[٥] قال: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون كانت وِقر ستين بغلًا غُرًّا محجَّلة ما يزيد منها مفتاح على إصبع لكل مفتاح منها كنز.

ويقال: إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه ـ وكانت من حديد ـ فلما ثقلت عليه جعلها من الخشب، فثقلت عليه، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، تُحمل معه على أربعين بغلًا.

وقال بعضهم: أراد بالمفاتيح الخزائن. وإليه ذهب أبو صالح.

وقال أبو رزين[٦]: لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيًا.

---

(١) هو شهر بن حوشب الشامي، محدّث ثقة، حدّث عن مولاته أسماء بنت يزيد وأبي هريرة وابن عبّاس «الكاشف ٢/ ١٤».

(٢) هو شيبان بن عبد الرحمٰن النحوي المؤدّب، البصري، صاحب حروف وقراءات حجّة توفي سنة ١٦٤ هـ «الكاشف ٢/ ١٥».

(٣) هو جرير بن حازم الأزدي، محدّث ثقة مات سنة ١٧٠ هـ «الكاشف ١/ ٥١».

(٤) منصور: لعلّه منصور بن زاذان الواسطي، العابد، أبو المغيرة، مولى ثقيف، كبير الشأن، مات سنة ١٢٨ هـ «الكاشف ١/ ١٥٥».

(٥) هو خيثمة بن عبد الرحمٰن الجعفي، إمامٌ ثقة، ورث مائتي ألف حديث، فأنفقها على العلماء «الكاشف ١/ ٢١٩».

(٦) أبو رزين: لعلّه مسعود بن مالك، أبو رزين الأسدي، محدّث ثقة مات في العام ٨٥ هـ «الكاشف ٣/ ١٢٢».

واختلفوا في سبب اجتماع تلك الأموال لقارون؛ فقيل: كان عنده علم الكيمياء.

قال سعيد بن المسيّب: كان موسى يَعلَم الكيمياء، فعلّم يوشعَ ثلث العلم، وعلّم كالب ثلثه، وعلّم قارون ثلثه، فخدعهما قارونُ حتى أضافا علمهما إلى علمه.

وحكى الكسائيّ: كان قارون من فقراء بني إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى أن يحلّيَ تابوت التوراة بالذهب؛ وعلّمه صنعة الكيمياء؛ فجاء قارون إلى أم كلثم أخت موسى ـ وقد قيل: إنها كانت زوجته ـ فسألها: من أين لموسى هذا الذهب؟ فقالت: إن الله تعالى قد علّمه صنعة الكيمياء. وكان موسى قد علّمها الصنعة، فتعلّمها قارون منها.

قالوا: فكان ذلك سبب أمواله، فذلك قوله كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القَصَص: الآية ٧٨].

وقيل: معناه على علم عندي بالتصرّف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب.

وقيل في سبب جمعِه تلك الأموال ما رواه الثعلبيّ بسنده عن أبي سليمان الداراني أنه قال: تَبدَّى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام في جبلٍ أربعين سنة حتى غلب بني إسرائيل في العبادة، فبعث إبليس إليه شياطينه فلم يقدروا عليه؛ فأتاه وجعل يتعبد معه، وجعل قارون يتعبّد وإبليس يقهره في العبادة ويفوقه؛ فخضع له قارون؛ فقال له إبليس: يا قارون، قد رضينا بهذا الذي نحن فيه، لا نشهد لبني إسرائيل جماعة، ولا نعود مريضًا، ولا نشهد جنازة.

قال: فأحدره من الجبل إلى البيعة، فكانا يؤتَيان بالطعام، فقال له إبليس: يا قارون، قد رضينا أن نكون هكذا كَلًّا على بني إسرائيل؟ فقال له قارون: فأيّ رأي عندك؟ قال: نكسب يوم الجمعة، ونتعبد بقية الجمعة.

قال: فكسبوا يَوم الجمعة وتعبدوا بقيتها؛ فقال إبليس: قد رضينا أن نكون هكذا؟ قال قارون: فأيّ رأي عندك؟ قال: نكسب يومًا ونتعبّد يومًا فنتصدّق ونُعطِي.

قال: فلما كسبوا يومًا وتعبّدوا يومًا خَنَس[1] إبليس وتركه، ففُتحت على قارون أبوابُ الدنيا، فبلغ مالُه ـ على ما رواه الثعلبيّ بسنده إلى المسيِّب بن شريك قال: ﴿مَآ

(١) خنس: رجع وتنحّى.

﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦] وكانت أربعمائة ألفِ ألفِ في أربعين جرابًا.

قال: فبغى وطغى حين استغنى، فكان أوّل طغيانه وعصيانه أنه تكبّر واستطال على الناس بكثرة الأموال، وكان يخرج في زينته.

قال مجاهد: خرج عليّ براذينَ[1] بِيض عليها سروج الأرجوان وعليه المعصفَرات.

وقال ابن أسلم: خرج في سبعين ألفًا عليهم المعصفَرات.

قال: وذلك أوّل يوم ظهرت فيه المعصفَرات في الأرض.

وقال مقاتل[2]: خرج على بغلة شهباءَ على سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم الديباج وعلى دوابّهم الأرجوان؛ ومعه ستُّمائة جارية بِيض عليهنّ الحليّ والثياب الحمر، وهن على البغال الشهبَ[3].

وحكى الكسائيّ أن قارون اتخذ سريرًا من الذهب يصعد إليه بمراقٍ، وعليه أنواع من فُرُش الديباج، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصّع بالجوهر.

قالوا: فلما خرج في بعض الأيام في زينة عظيمة، تمنّى أهلُ الجهالة والخسارة مثلَ الّذي أُوتيَه، وقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القَصَص: الآية ٧٩] فأنكر عليهم أهل العلم بالله تعالى، وقالوا لهم: اتقوا الله واعملوا ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه، فإن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا من لذّات الدنيا وشهواتها؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [القَصَص: الآية ٨٠]، أي لا يوفَّق لهذه الكلمة ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٨٠]، أي على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا.

قالوا: ثم أوحى الله تعالى إلى نبيّه موسى عليه السلام أن يأمر قومه أن يعلّقوا في آذانهم خيوطًا أربعة، في كل طَرَفٍ خيط أخضر كلون السماء فقال موسى: يا رب لم أمرتَ بني إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر في آذانهم؟ فقال تعالى: إن بني

---

(١) البرذون: دابة دون الفرس غليظة الأعضاء، ضخمة تتخذ للحمل خصوصًا.

(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، من أعلام المفسّرين دخل بغداد وحدّث فيها. توفي بالبصرة سنة ١٥٠ هـ له عدّة مؤلّفات منها: التفسير الكبير «الأعلام ٧/ ٢٨١».

(٣) الأشهب: ما كان لونه لون الشهبة، وهي بياض غلب على السّواد، أو بياض خالطه سواد.

إسرائيل في غفلة، وقد أردتُ أن أجعل لهم عَلَمًا في ثيابهم ليذكروني به إذا نظروا إلى السماء، ويعلموا أني منزِل منها كلامي. فقال موسى: يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرًا، فإن بني إسرائيل تحقِر هذه الخيوط؟ فقال له: يا موسى، إن الصغير من أمري ليس بصغير، وإن لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير.

قال فدعا موسى بني إسرائيل وأعلمهم بأمر الله تعالى؛ ففعلوا ذلك واستكبر قارون فلم يطعه، وقال: إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا من غيرهم. فكان هذا أيضًا من بغيه وعصيانه.

قالوا: ولما قطع موسى البحر ببني إسرائيل جُعلت الحُبورة - وهي رآسة المذبح وبيتِ القربان - لهارون عليه السلام؛ وكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون، فيضعه على المذبح، فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجَد قارونُ في نفسه من ذلك، وأتى موسى وقال له: يا موسى، لك الرسالة، ولهارون الحُبورة، وليس لي من ذلك شيء، وأنا أقرأُ للتوراة منكما، لا صبر لي على هذا. فقال موسى: والله ما أنا جعلتها في هارون، بل الله جعلها له. فقال قارون: والله لا أصدّقك في ذلك حتى تريني بيّنة.

قال: فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل وقال: هاتوا عصيَّكم. فجاؤوا بها فحزمها وألقاها في قبّته التي كان يعبد الله تعالى فيها؛ وجعلوا يحرسون عصيّهم حتى أصبحوا، فأصبحت عصا هارون قد اهتزّ لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز فقال موسى: يا قارون، أترى هذا من فعلي؟ قال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر. وذهب قارون مغاضِبًا، واعتزل موسى بأتباعه؛ وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت، ولا يزداد كلَّ يوم إلا عتوًّا وتجبّرًا ومخالفَة.

ويقال: إنّه بنى دارًا وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون[١] عليه ويروحون[٢] فيطعمهم الطعام ويحدّثونه ويضاحكونه.

---

(١) الغدو: ما بين الفجر وطلوع الشمس، أوّل النهار.
(٢) الرّواح: العشي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم أنزل الله تعالى الزكاة على موسى؛ فلما وجبت الزكاة على بني إسرائيل أتى قارون موسى فصالحه عن كلّ ألف دينار على دينار، وعن كلّ ألفِ درهم على درهم، وعن كلّ ألف شاة على شاة، وعن كلّ ألفِ شيء شيئًا، ثم رجع إلى بيته فحسَبه فوجده كثيرًا، فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: يا قوم، إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئتَ. فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغيّ فنجعل لها جُعلًا[1] على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه. فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم. وقيل: ألف دينار. وقيل: طَسْتًا من ذهب. وقيل: حُكمَها؛ وقال لها: إني أموّلكِ وأخلطكِ بنسائي على أن تقذفي موسى غدًا إذا كان بنو إسرائيل متجمّعين. فلما كان الغد جمع قارونُ بني إسرائيل. ثم أتى موسى فقال: إنّ بني إسرائيل قد اجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبيّن لهم أعلام دينهم وأحكامَهم وأحكام شرعهم. فخرج إليهم موسى وهم في بَراح[2] من الأرض، فقام فيهم خطيبًا ووعظهم، وقال فيما قال: يا بني إسرائيل، من سرق قُطعتْ يده، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنك فجرتَ بفلانة. قال موسى: أنا؟ قال: نعم. قال: ادعها فإن قالت فهو كما قالت. فدُعيتْ؛ فلما جاءت قال لها موسى: يا فلانة، أنا فعلت بكِ ما يقول هؤلاء؟ وعظّم عليها وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلّا صدقت. فلما ناشدها موسى تداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت: لأن أحدِث اليوم توبة أفضل من أوذيَ رسول الله. وقالت: لا والله بل كذبوا، ولكن جعل لي قارون جُعلًا على أن أقذفك بنفسي. فلما تكلّمتْ بهذا الكلام سُقط[3] في يد قارون ونكّس رأسه، وسكت الملأ وعرف قارونُ أنه قد وقع في مهلكة، وخرّ موسى ساجدًا لله تعالى.

وقال الكسائيّ في قصّة هذه المرأة: إن قارون بعث إلى امرأة فاسقة كان موسى قد نفاها من عسكره، فقال لها: إني أريد أن أتزوّج بك وأنقذَك من هذا الفقر إن

---

(١) الجعل: المكافأة.
(٢) البراح: المتسع من الأرض.
(٣) سقط في يده أو أسقط: تحيّر.

عملتِ ما أقول. قالت: وما هو؟ قال: إذا اجتمع بنو إسرائيل عندي فاحضري وقولي: إن موسى دعاني إلى نفسه فلم أطاوعه، فأخرجني من عسكره فانصرفت ودخلت على قارون من الغد ـ وقد اجتمع بنو إسرائيل عنده ـ فقالت: يا بني إسرائيل، هذا ما لقي الأخيار من الأشرار؛ اعلموا أن قارون دعاني بالأمس وقال لي كذا وكذا، وأمرني أن أكذب على نبيّ الله موسى؛ وكَذَب قارون إنما أخرجني موسى من عسكره لفسادي، وقد تبت إلى الله تعالى من ذلك. فلما سمع قارون ذلك ندم، ولامه بنو إسرائيل، وبلغ موسى الخبر فغضب ودعا على قارون.

قالوا: وجعل موسى يبكي ويقول: يا رب إن عدوّك هذا قد آذاني وأراد فضيحتي، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي وسلّطني عليه. فأوحى الله تعالى إليه: ارفع رأسك وامر الأرض بما شئت تطعك. فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليَثْبُت مكانه ومن كان معي فليعتزل[١] عنه. فاعتزل بنو إسرائيل قارونَ ولم يبق منهم إلا رجلان ثم قال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى كعابهم. ثم قال: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى ركبهم. ثم قال: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى حُقِيِّهِم[٢]. ثم قال: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى أعناقهم؛ وقارون وصاحباه في كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشدونه؛ حتى رُوِيَ في بعض الأخبار: أنه ناشده سبعين مرة وموسى في جميع ذلك لا يلتفت إليه، لشدّة غضبه عليه. ثم قال: يا أرض خذيهم. فانطبقت عليهم الأرض؛ فأوحى الله إلى موسى: استغاثوا بك سبعين مرّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزّتي وجلالي لو إياي دعَوا لوجدوني قريبًا مجيبًا. قال قتادة: ذُكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم في كل يومٍ قامة، وأنه يتخلخل[٣] فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة.

قالوا: فلما خسف الله تعالى بقارون وصاحبيه أصبحت بنو إسرائيل يتناجون[٤] فيما بينهم: إن موسى دعا على قارون ليستبدّ بداره وكنوزه وأمواله. فدعا موسى حتى خسف الله تعالى بدار قارون وأمواله الأرض؛ وأوحى الله تعالى إلى موسى: أني لا أعبد الأرض لأحد بعدك أبدًا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا

(١) اعتزل: تجنّب.
(٢) الحقيّ: جمع حقّ، وهو أصل رأس الورك الذي فيه عظم الفخذ.
(٣) يتخلخل: يتقلقل ويضطرب.
(٤) يتناجون: يتهامسون ويتسارّون.

كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ [القصص: الآية ٨١].

قال: فلما حلّت نِقمة الله تعالى بقارون حمد المؤمنون الله تعالى، وندم الذين كانوا يتمنّون ماله وحاله، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ[1] ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القَصَص: الآية ٨٢]. والله الفعّال.

ذكر خبر موسى والخَضِر ـ عليهما السلام ـ

وهذا الخبر إنما رجعتُ فيه واعتمدت على ما ورد في الحديث الصحيح النبويّ مما خرّجه البخاريّ رحمه الله تعالى في صحيحه، ورويناه بسندنا عنه بسنده عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب رضي الله عنهم عن النبيّ ﷺ: أن موسى[2] عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ العلم إليه؛ فقال: بلى، عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك.

وورد في الحديث الآخر من رواية البخاريّ[3]: بلى عبدنا خَضِر. قال: أي ربِّ ومن لي به؟ قال سفيان[4] من روايته: أيْ ربِّ وكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا فتجعله في مِكتَل[5] فيحثما فقدتَ الحوت فهو ثَمّ. وربما قال: فهو ثمّة. فأخذ حوتًا فجعله في مِكتَل، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما؛ فرقد موسى عليه السلام، واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦١] فأمسك الله عن الحوت جِريةَ الماء فصار مثل الطاق؛ فانطلقا يمشيان بقيّة يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٢]؛ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز

(١) ويكأنّه: ألم تر أنّه، وهي كلمة مؤلّفة من «وي» وكاف المخاطبة.
(٢) يلاحظ أنّ في رواية هذا الحديث هنا اختلافًا يسيرًا عمّا ورد في البخاري في كتاب «تفسير القرآن» انظر الجزء الخامس ص ٢١٤ ط بولاق سنة ١٢٩٦ هـ.
(٣) البُخاري: هو محمد بن محمد شمس الدين الجعفري البخاري، فقيه حنفي عالمٌ بالتفسير، له تفسير القرآن العظيم في مئة مجلد مات سنة ٨٢٢ هـ وهو غير البخاري الجامع لحديث رسول الله ﷺ «صاحب الصحيح» الأعلام ٧/ ٤٦.
(٤) هو سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي، أبو محمد، كان حافظًا ثقة واسع العلم له الجامع في الحديث وكتاب في التفسير مات سنة ١٩٨ هـ «الأعلام ٣/ ١٠٥».
(٥) المكتل: قفّة من ورق النخل.

حيث أمره الله تعالى؛ قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٣]. فكان للحوت سَرَبًا ولهما عَجَبًا.

قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: الآية ٦٤].

فرجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسلّم موسى، فردّ عليه فقال: وأنّى بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلّمني ممّا عُلّمتَ رُشدًا. قال: يا موسى إني على علم من علم اللهِ علّمنيه اللهُ لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمكه اللهُ لا أعلمه. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: الآية ٦٦]؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَمْرًا﴾ [الكهف: الآيات ٦٧ ـ ٦٩]؛ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت بهما سفينة فكلّموهم أن يحملوهم؛ فعرفوا الخَضِر فحملوهما بغير نَول؛ فلما ركبا في السفينة جاء عصفور[1] فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين[2] فقال له الخَضِر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمُك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. «فأخذ الفأس فنزع لوحًا»[3].

قال: فلم يَفجَأ[4] موسى إلّا وقد قلع لوحًا بالقدوم؛ فقال له موسى: ما صنعتَ؟ قومٌ حملونا بغير نَول عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتَها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف: الآيات ٧١ - ٧٣]. وكانت الأولى من موسى نسيانًا. فلمّا خرجا من البحر مرّا بغلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخَضِر برأسه يقلعه بيده هكذا ـ وأومأ سفيانُ بأطراف أصابعه كأنّه يقطف شيئًا ـ قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾

(١) وردت قصة العصفور هذه في البخاري مؤخّرة عن هذا الموضع بقليل، أي بعد خرق السفينة.
(٢) لم يرد في البخاري قوله: «أو نقرتين» انظر القسطلاني ٧/ ٢٦١.
(٣) هذه العبارة التي بين قوسين لم ترد في تفسير البخاري أثناء هذا الحديث.
(٤) عبارة البخاري: لم يفجأ إلّا والخضر قد قلع لوحًا. الخ. . .

[الكهف: الآيات ٧٤ - ٧٧] مائلاً، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٧٧] ـ أومأ بيده هكذا وأشار سفيان كأنّه يمسح شيئًا إلى فوق ـ قال: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا عمدتَ إلى حائطهم، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٧٧، ٧٨]. قال النبيّ ﷺ: «ودِدنا أنّ موسى كان صبر فقصّ علينا من خبرهما».

قال سفيان: قال النبيّ ﷺ: «يرحم الله موسَى لو كان صبر لقصّ علينا من أمرهما».

وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿أَمامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: الآيتان ٧٩، ٨٠].

ثم قال لي سفيان: سمعتُه منه مرّتين وحفظتُه منه.

هذا حديث البخاريّ عن عليّ بن عبد الله عن سفيان عن عمرو بن دينار(١) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب(٢)؛ وقصّتهما في كتاب الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآيات ٧٩ ـ ٨٢].

وحكى أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله في قصصه أنّ الخَضِر عليه السلام اسمُه بَلْيَا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالحَ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وروى حديثًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنما سمّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، وإذا هي تهتزّ تحته خضراء.

---

(١) هو عمرو بن دينار، أبو محمد، مكّي إمام، محدّث صدوق ثقة، قال الزهري: ما رأيت شيخًا أنصّ للحديث الجيد من هذا الشيخ، مات سنة ١٢٦ هـ عن ثمانين سنة «الكاشف ٢/ ٢٨٤».

(٢) هو أُبيّ بن كعب، بدري، سيّد القرّاء، وكاتب للوحي، وكان ممّن جمع القرآن مات بين ٢٠ و٣٣ هـ «الكاشف ١/ ٥٢».

ورُوِيَ عن مجاهد[١] قال: إنما سمّي الخضر لأنه حيثما صَلّى اخضرّ ما حوله.

قال الثعلبيّ: وكان الخضر في أيام أفريدون الملِك[٢] على قول عامّة أهل الكتب الأُوَل.

قال: وقيل إنه كان على مقدِّمة ذي القرنين[٣] الأكبر الذي كان في أيام إبراهيم عليه السلام وذلك في أيام مسِيره في البلاد، وأنه بلغ مع ذي القرنين نهرَ الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم ولا يعلم ذو القرنين، فخُلِّد، وهو حيّ إلى الآن؛ والله أعلم.

وسنذكر إن شاء الله تعالى في السِّفر الذي يلي هذا السفرَ خبرَه في ظفره بماء الحياة في أخبار ذي القرنين.

ذكر خبر البقرة وقتلِ عاميل

قال أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في تفسيره عن السّديّ وغيره: إن رجلًا كان في بني إسرائيل كان بارًّا بأبيه، وبلغ من برّه به أن رجلًا أتاه بلؤلؤة فابتاعها منه بخمسين ألفًا، وكان فيها فضل وربح؛ فقال له البائع: أعطني الثمن. فقال: إن أبي نائم، ومفتاح الصندوق تحت رأسه، فأمهلني حتى يستيقظ فأعطيك الثمن. فقال له البائع: أيقِظ أباك وأعطني المال. قال: ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرةَ آلاف وأنظِرني حتى ينتبه. فقال الرجل: أنا أعطيك عشرة آلاف إن أيقظتَ أباك وعجّلت النقد. فقال: أنا أزيدك عشرين ألفًا إن انتظرتَ انتباهه. ففعل ولم يوقظ أباه؛ فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك، فدعا له وجزاه خيرًا، وقال له: أحسنتَ يا بنيّ، وهذه البقرة لك بما صنعت. وكانت بقيّة بقر كانت لهم.

قال: وقال ابن عبّاس ووهبٌ وغيرُهما: كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل، وكان له عجلة، فأتى بها إلى غَيضة وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة

---

(١) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجّاج المكّي، تابعي، مفسّر من أهل مكة، أخذ التفسير عن ابن عباس «الكاشف ٣/ ١٠٦».

(٢) أفريدون الملك: يقال: إنّه التاسع من ولد جمشيد من الطبقة الأولى القيشداذية، وفي أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السلام وهو ذو القرنين المذكور في القرآن على أحد الأقوال، وملك جميع الأرض وقسمها بين بنيه ومات «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

(٣) ذو القرنين: منهم من يقول إنه أفريدون الملك السابق الذكر ومنهم من يقول إنّه الإسكندر المقدوني...

لابني حتى يكبر. ومات الرجل، فشبّت العجلة في الغيضة[١] وصارت عَوانًا[٢] وكانت تَهرُب من كلّ من رامها؛ فلما كبِر الابن ـ وكان برًّا بوالدته، وكان يقسم الليلَ ثلاثة أثلاث: يصلي ثلثًا، وينام ثلثًا، ويجلس عند رأس أمّه ثلثًا؛ فإذا أصبح انطلق واحتطب على ظهره، ويأتي به السوق فيبيعُه بما شاء الله، ثم يتصدق بثلثه، ويأكل ثلثه، ويعطي والدته ثلثه.

وحكى الكسائيّ عن وهب قال: كان في بني إسرائيل عبد صالح، فمات وترك امرأته حاملًا، فولدت غلامًا، فسمّته مِيشَى، فكبِر. وكان يحتطب من المواضع المباحة، وينفق على نفسه وأمه، وكان كثير العبادة؛ فلم يزل كذلك حتى كبِر وضعف وعجز عن الاحتطاب.

قالوا: فقالت له أمه: إن أباك ورّثك عجلة وذهب بها إلى غَيضةٍ كذا واستودعها الله عزّ وجلّ فانطلِق إليها وادع إلٰه إبراهيم وإسحٰق ويعقوب أن يردّها عليك، وإنّ من علامتها أنك إذا نظرت إليها يخيّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ـ وكانت تسمّى المُذهَبة لحسنها وصُفرتها وصفاء لونها ـ فأتى الفتى إلى الغَيضة، فرآها ترعى، فصاح بها وقال: أعزم عليكِ بإلٰه إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب. فأقبلتْ تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها وقادها، فتكلّمتْ بإذن الله عزّ وجلّ وقالت: أيّها الفتى البارّ بوالدته، اركبني فإنّ ذلك أهوَن عليك. فقال: إنّ أمي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها. فقالت البقرة: وإلٰه بني إسرائيل لو ركبتَني ما كنتَ تقدر عليّ أبدًا، فانطلق فإنّك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله وينطلقَ معك لفعل، لبِرّك بوالدتك. فسار الفتى بها، فاستقبله عدوّ الله إبليس في صورة راع فقال: أيها الفتى، إني رجل من رعاة البقر، اشتقتُ إلى أهلي فأخذتُ ثورًا من ثيراني، فحملتُ عليه زادي ومتاعي، حتى إذا بلغتُ شطر الطريق ذهبت لأقضي حاجتي، فعدا الثورُ وسط الجبل وما قدرتُ عليه، وإني أخشى على نفسي الهَلَكة، فإن رأيتَ أن تحملني على بقرتك. فلم يفعل الفتى وقال له: اذهب فتوكّل على الله عزّ وجلّ فلو علم الله منك الصدق لبلّغك بلا زاد ولا راحلة. فقال له إبليس: إن شئتَ فبِعنيها بحكمك، وإن شئتَ فاحملني عليها وأعطيك عشرًا مثلها. فقال الفتى: إن أمّي لم تأمرني بذلك. فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يديه، فنفرت البقرة

(١) الغيضة: الموضع الكثير الشجر والماء.

(٢) العوان: نَصَفٌ قد ولدت بطنًا بعد بطن، وهي الوسط بين الكبيرة والصغيرة.

هاربةً في الفلاة، وغاب الراعي، فدعا الفتى باسم إلـه إبراهيم، فرجعت إليه وقالت: أيها الفتى البارُّ بوالدته، ألم تر إلى الطائر الذي طار، إنه إبليس عدوّ الله اختلسني، أما إنه لو ركبني ما قدرت عليّ أبدًا، فلمّا دعوتَ بإلـه إبراهيم جاء ملَك وانتزعني من يد إبليس وردّني إليك لبرِّك بأمّك وطاعتِك لها. فجاء بها الفتى إلى أمّه، فقالت له أمّه: إنك فقير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيامُ بالليل، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها. قال: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير، ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي. فكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثةَ دنانير، فانطلق بها الفتى إلى السوق فبعث الله عزّ وجلّ ملَكًا ليرى في خَلْقه قدرته، وليَخبُر الفتى كيف برّه بوالدته، وكان الله تعالى به خبيرًا؛ فقال له الملَك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير، وأشترط عليك رضا والدتي. فقال له الملَك: فأنا أعطيك ستة دنانيرَ ولا تستأمر[1] أمّك. فقال الفتى: لو أعطيتني وزنَها ذهبًا لم آخذه إلّا برضا أمّي. فردّها إلى أمّه، وأخبرها الخبر، فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضًا منّي فانطلق بها إلى السوق، وأتى الملَك، فقال: استأمرتَ والدتك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني ألا أنقُصَها عن ستة دنانير على أن أستأمرها. فقال الملَك: فإني أعطيك اثني عشر دينارًا على ألّا تستأمرها. فأبى ورجع إلى أمّه فأخبرها بذلك؛ فقالت: إنّ ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملَك من الملائكة يأتيك في صورة آدميّ ليختبرك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل الفتى ذلك؛ فقال له الملَك: اذهب إلى أمّك فقل لها: أمسِكي هذه البقرة، فإن موسى بن عمران يشتريها منكم لقتيل يُقتل من بني إسرائيل، فلا تبيعوها إلّا بمِلءِ مَسْكِها[2] دنانير. فأمسَكوا البقرة، وقدّر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على برّه بأمّه؛ وذلك أنه وُجد قتيل في بني إسرائيل اسمه (عاميل) ولم يُدرَ قاتلُه.

واختلفوا في قاتله والسببِ في قتله؛ فقال عطاء والسدّيّ: كان في بني إسرائيل رجل كثير المال، وله ابن عم مسكين لا وارث له غيره، فلما أبطأ عليه موتُه قتَلَه ليرثَه.

قال: وقال بعضهم: كان تحت عاميلَ بنتُ عمّ له تُضرَب مثلًا في بني إسرائيل بالحسن والجمال، فقتله ابن عمّها لينكحها.

---

(١) استأمر: شاور وعمل برأيها وأمرها. (٢) المسك: الجلد، جمعه مسوك.

وقال الكلبيّ: قتله ابن أخيه لينكح ابنته، فلمّا قتله حمله من قريته إلى قرية أخرى وألقاه هناك.

وقيل: ألقاه بين قريتين.

وقال عكرمة[١]: كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابًا، لكل سِبْط[٢] منهم باب، فوُجِد قتيل على باب سِبْط، وجُرَّ إلى باب سِبْط آخر؛ فاختصم السِّبطان فيه.

وقال ابن سيرين: قتله القاتل ثم احتمله فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يطلب بثأره ودمه ويدّعيه عليه.

قالوا: فجاء أولياء القتيل إلى موسى عليه السلام وآتوه بأناس وادّعوا عليهم القتل، وسألوه القصاص؛ فسألهم موسى عن ذلك، فجحدوا، فاشتبه أمرُ القتل على موسى عليه السلام ووقع بينهم خلاف.

قال الكلبيّ: وذلك قبل نزول القسامة في التوراة، فسألوا موسى عليه السلام أن يدعو الله ليبيّن لهم ذلك؛ فسأل موسى عليه السلام ربّه عزّ وجلّ؛ فأمرهم بذبح بقرة؛ فقال لهم موسى ما أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧]، أي تستهزىء بنا حين نسألك عن القتيل وتأمرنا بذبح البقرة؛ وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه. قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي من المستهزئين بالمؤمنين؛ فلما علم القوم أنّ ذبح البقرة عزمٌ من الله عزّ وجل، سألوه الوصف، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨].

قال: ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأتْ عنهم، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم؛ وإنما كان تشديدهم تقديرًا من الله عزّ وجلّ وحكمة.

قال: ومعنى ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي سَلْ؛ وهكذا في مصحف عبد الله: «سل لنا ربّك يبيّن لنا ما هي وما سنّها». قال موسى: إنه ـ يعني الله عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿إِنَّهَا

---

(١) عكرمة: عو عكرمة أبو عبد الله المفسّر، مولى ابن عباس، وعنه أخذ الحديث، ثبت مات سنة ١٠٦ هـ وقيل: ١٠٧ هـ. «الكاشف ٢/٢٤١».

(٢) السّبط عند بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب.

بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨]: لا كبيرة ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨] أي نَصَفٌ بين السنَّين.

وقال الأخفش: العَوان التي نُتِجتْ مرارًا، وجمعه عُون. ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨]: من ذبح البقرة، ولا تكرروا القول. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٩].

قال ابن عبّاس: شديدة الصُّفرة.

وقال قتادة وأبو العالية والربيع: صاف.

وقال سعيد بن جبير: صفراء القرنين والظِّلْف.

وقال الحسن: سوداء. والعرب تسمِّي الأسودَ أصفر.

وقال العتبيّ: غلط من قال: الصفراء هٰهنا السوداء، لأنّ هذا غلط في نعوت البقرة، وإنما هو من نعوت الإبل، وذلك أن السود من الإبل يشوب سوادَها صُفرة.

وقال آخر: إنه لو أراد السواد لما أكّده بالفُقوع، لأنّ الفاقع: البالغ في الصفرة، كما يقال: أبيض يَقَق، وأسوَدُ حالِك، وأحمرُ قانىء، وأخضر ناضِر. ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها، ويعجبهم حسنها وصفاء لونها، لأنّ العين تسرّ وتُولَع بالنظر إلى الشيء الحسن.

وقال عليّ رضي الله عنه: مَن لبس نعلًا صفراءَ قلّ همّه. لأنّ الله تعالى يقول: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: الآيتان ٦٩، ٧٠] أسائمة أم عاملة؟ ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٠] أي إلى وصفها.

قال رسول الله ﷺ: «وأيم الله[1] لو لم يستثنوا لما بُيِّنتْ لهم آخِرَ الأبد». ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] أي مذلَّلة للعمل. ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] أي تقلبها للزراعة، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] أي بريئة من العيوب.

---

(١) آيم الله: للقسم، أصله: أيمُنُ الله، تقديره: أيمن الله قسمي.

وقال الحسن: مسلَّمة القوائم، ليس فيها أثر العمل. ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١]، قال عطاء: لا عيب فيها.

وقال قتادة: لا بياض فيها أصلًا.

وقال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد.

وقال محمد بن كعب[1]: لا لون فيها يخالف معظم لونها. فلما قال هذا ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١]، أي بالوصف البيّن التامّ؛ فطلبوها فلم يجدوا كمال وصفها إلّا عند الفتى البارّ بوالدته؛ فاشتروها منه بملء مَسْكِها ذهبًا.

وقال السدّيّ: اشتروها بوزنها عشر مرّات ذهبًا.

وقيل: اشتروها بوزنها مرّة؛ قاله أبو عبيد.

وقيل: بوزنها مرّتين.

وقال الكسائيّ: إنهم أتوا إلى مِيشَى في بيع البقرة فقال: لا أبيعها إلّا بحضرة موسى. فرضوا بذلك، وأخرج البقرة إلى موسى، قال: بكم تبيعها؟ قال: المساومة بيني وبينك لا خير فيها، لا أبيعها إلّا بملء جلدها ذهبًا. فقال موسى لبني إسرائيل: ذلك لتشديدكم على أنفسكم فشدّد الله عليكم. فضمنوا له ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] من غلاء ثَمَنها.

وقال محمد بن كعب: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها.

وقال الكسائيّ: بوفاء المال؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٢]، يعني عاميل. ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٢]: اختلفتم، قاله ابن عبّاس ومجاهد.

وقال الضحّاك: اختصمتم.

وقال عبد العزيز بن يحيىٰ: شككتم.

وقال الربيع بن أنس[2]: تدافعتم. وأصل الدَّرْء: الدفع، يعني ألقى هذا على هذا وهذا على ذاك، فدافع كلُّ واحد عن نفسه لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ

---

(١) محمد بن كعب: هو محمد بن كعب القرظي، محدّث حجّة ثقة توفي سنة ١٠٨ هـ وقيل: سنة ١١٦ هـ «الكاشف ٣/ ٨١».

(٢) هو الربيع بن أنس، بصريّ نزل خراسان، محدّث صدوق حُبس بمرو ثلاثين سنة توفي سنة ١٣٩ هـ «الكاشف ١/ ٢٣٤».

﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرّعد: الآية ٢٢]، أي يدفعون. قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٣] يعني القتيل ببعض البقرة.

واختلفوا في هذا البعض ما هو.

فقال ابن عباس: ضربوه بالعظم الّذي يلي الغُضْروف، وهو المقبل.

وقال الضحّاك: بلسانها.

قال الحسين بن الفضل[1]: وهذا أولى الأقوال، لأنّ المراد كان من إحياء القتيل كلامُه، واللسان آلته.

وقال سعيد بن جبير: بعَجْمِ ذَنَبها.

قال يمان بن زرياب: وهو أولى التأويلات بالصواب، لأنّ العُصعُص أساس البدن الّذي رُكِّب عليه الخَلق، وأنه أوّل ما يُخلَق، وآخِرُ ما يَبلي.

وقال مجاهد: بذَنَبها.

وقال عكرمة والكلبيّ: بفخذها الأيمن.

وقال السدّيّ: بالبَضعة الّتي بين كتفيها.

وقيل: بأذنها. ففعلوا ذلك، فقام القتيل ـ بإذن الله عزّ وجلّ ـ وأوداجه تَشخُب دمًا، وقال: قتلني فلان. ثم مات وسقط مكانه؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٣].

قال الكلبيّ: ثم قالوا بعد ذلك: «لم نقتله نحن» وأنكروا، فلم يكونوا قطّ أقسى قلبًا ولا أشدَّ تكذيبًا منهم لنبيّهم عند ذلك، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

قال الكلبيّ: يبست واشتدّت.

وقال أبو عبيدة[2]: جفّت من الشدّة فلم تَلِن.

---

(١) هو الحسين بن الفضل بن عُمير البجلي، مفسّر معمّر، كان رأسًا في معاني القرآن أصله من الكوفة مات بنيسابور سنة ٢٨٢ هـ «الأعلام ٢/ ٢٥١».

(٢) أبو عبيدة: هو معمّر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، من أئمة العلم باللغة والأدب، قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، وهو من حفّاظ الحديث، مات سنة ٢٠٩ هـ «الأعلام ٧/ ٢٧٢».

وقيل: غلظت.

وقيل: اشتدّت.

وقال الزّجاج[١]: تأويل القسوة ذهاب اللّين والرحمة والخشوع والخضوع.

قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: الآية ٧٤]، أي من بعد ظهور الدَّلالات، فهي في غلظها وشدّتها ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ [البقرة: الآية ٧٤]، أي بل أشدّ قسوة.

ثم عدّد الله تعالى الحجارة وفضّلها على القلب القاسي، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤]، أي ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤].

ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار

وهذا البيت ليس هو البيت المقدّس الموجود الآن، وإنما هو الذي تسميه اليهود: «قبة الزمان» ويزعمون أن ذلك نص التوراة، وكان من خبر هذه القصة ما رواه الثعلبيّ بإسناده عن وهب بن منبّه قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يتّخذ مسجدًا لجماعتهم، وبيتَ قدس للتوراة، وتابوتًا للسكينة وقبابًا للقربان، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها، وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان، وحبالها من أصواف تلك الذبائح؛ وعهد إليه ألا تغزل تلك الحبالَ حائض، ولا يدبغَ تلك الجلودَ جُنُب؛ وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عَمَد من نحاس، طول كلّ عمود منها أربعون ذراعًا، ويجعل فيها اثني عشر قسمًا مُشَرجًا[٢]، إذا نُقِضتْ صارت اثني عشر جزءًا. يَحمل كلّ جزء بما فيه من العمد سبط من الأسباط من بني إسرائيل؛ وأمره أن يجعل سعةَ ذلك السرادق سِتَّمائة ذراع، وأن ينصب فيه سبعَ قباب، ستَّ قباب منها مشبكةً بقضبان الذهب والفضة، كلّ واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طول كل عمود منها أربعون ذراعًا، وعليها أربعة دسوتِ ثياب، الباطن منها سندس أخضر، والثاني أُرجُوان

---

(١) الزّجّاج: هو إبراهيم بن السّري بن سهل، أبو إسحٰق، عالم بالنّحو واللغة ولد ومات في بغداد سنة ٣١١ هـ «الأعلام ١/ ٤٠».

(٢) المشرج: الذي دوخل بين عراه وضمّ بعضها إلى بعض.

أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من جلود القربان[١] وقايةً لها من المطر والغبار، وحبالها التي تُمدّ بها من صوف القربان، وأن يجعل سعتها أربعين ذراعًا، وأن ينصب في جوفها موائد من فضّة مربّعةً مرصّعة يوضع عليها القربان، سعة كلّ مائدة منها أربع أذرع، كلّ مائدة منها على أربع قوائم من فضّة، طول كلّ قائمة ثلاث أذرع، لا ينال الرجل منها إلّا قائمًا؛ وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب، طوله سبعون ذراعًا، وأن يضعه على سبيكة من ذهب أحمرَ طولها تسعون ذراعًا، مرصّعةٍ بألوان الجواهر، وأن يجعل أسفله مشبَّكًا بقضبان الذهب والفضّة، وأن يجعل حباله التي يُمدّ بها من صوف القربان مصبوغةً بألوان من أحمر وأصفر وأخضر؛ وأن يُلبِسه سبعةً من الحُلَل، الباطن منها سندس أخضر، والثاني أرجوان أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من الحرير الأبيض، وسائرُها من الدِّيباج والوشي؛ والظاهر غاشيةٌ[٢] له من جلود القربان وقايةً له من الأذى والندى؛ وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعًا، وأن يفرش القباب بالقَزّ[٣] الأحمر؛ وأمره أن ينصب فيه تابوتًا من ذهب كتابوت الميثاق، مرصّعًا بأنواع الجواهر والياقوت والزمرد الأخضر، وقوائمه من الذهب، وأن يجعل سعته سبع أذرع في أربع أذرع، وعلوّهُ قامةَ موسى عليه السلام، وأن يجعل له أربعة أبواب: باب تدخل منه الملائكة، وباب يدخل منه موسى، وباب يدخل منه هارون، وباب يدخل منه أولاد هارون، وهم سَدَنة[٤] ذلك البيت وخُزّان[٥] التابوت، وأمر الله نبيّه موسى أن يأخذ من كلّ محتلم من بني إسرائيل مثقالًا من الذهب فينفقه على هذا البيت، وأن يجعل باقيَ المال الذي يحتاج إليه في ذلك من الحلي والحلل التي ورِثها موسى وأصحابه من فرعون وأصحابه؛ ففعل موسى ذلك، فبلغ عدد رجال بني إسرائيل ستمائة ألف وسبعَمائة وخمسين رجلًا فأخذ منهم ذلك المال.

وأوحى الله تعالى إليه أني منزّل عليك من السماء نارًا لا دخان لها ولا تُحرِق شيئًا، ولا تنطفىء أبدًا، لتأكل القرابين المتقبَّلة، وتُسرَج منها القناديلُ الّتي في بيت المقدس، وكانت من ذهب معلّقةً بسلاسلَ من ذهب، منظومةً باليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر؛ وأمره أن يضع في وسط البيت صخرة عظيمة من الرَّخام، وينقرَ فيها

(١) القربان: أي ما يذبح قربانًا لله تعالى. (٢) الغاشية: الغطاء.
(٣) القزّ: الحرير.
(٤) السدنة: الذين يقومون على خدمة البيت المقدّس.
(٥) الخُزّان: الحافظون له.

نُقرةً لتكون كانونَ تلك النار التي يُنزَل بها من السماء؛ فدعا موسى أخاه هارون وقال له: إن الله تعالى قد اصطفاني بنار يُنزِلها من السماء لتأكل القرابين المقبولة ولتُسرَج[1] منها القناديل، وأوصاني بها، وإني قد اصطفيتك لها وأوصيتك بها. فدعا هارون ابنيه وقال لهما: إن الله تعالى قد اصطفى موسى بأمر وأوصاه به، وإنه قد اصطفاني له وأوصاني به، وإني قد اصطفيتكما وأوصيتكما به. وكان أولاد هارون هم الذين يلون سِدانة بيت المقدس وأمرَ القربان والنيران؛ فشربا ذات ليلة ثم ثَمِلًا، ثم دخلا البيت وأسرجا القناديل من هذه النار التي في الدنيا، فغضب الله عليهما، وسلّط عليهما تلك النار حتى أحرقتهما، وموسى وهارون يدفعان عنهما النار ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحْريم: الآية ١٠] فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: هكذا أفعل بمن عصاني ممّن يعرفني، فكيف أفعل بمن لا يعرفني، والله أعلم.

ذكر ما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المَائدة: الآية ٢٠].

قال أبو إسحٰق الثعلبيّ: اختلفوا في معنى الملوك؛ فروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة فهو ملِك».

وقال أبو عبد الرحمٰن الحُبُليّ: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ ـ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: وإنّ لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك.

وقال الضحّاك: كانت منازلهم واسعة، فيها مياه جارية، فمن كان مسكنه واسعًا وفيه ماء جارٍ فهو ملِك.

وقال قتادة: وكانوا أوّل من مَلَكَ الخَدَم، وأوّل من سُخِّر لهم الخدم من بني آدم.

---

(١) تسرج: توقد.

وقال السدّيّ[١]: يعني وجعلكم أحرارًا تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط بمنزلة أهل الجزية، فأخرجكم الله تعالى من ذلك الذلّ.

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٠]، يعني من عالَم زمانكم.

وقال مجاهد: يعني المنّ[٢] والسلوى[٣] والحجر والغمام.

قال: ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدّسة ويجاهد الجبّارين؛ فأخرجهم موسى عليه السلام لذلك، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٢١].

قال الثعلبيّ: اختلفوا في الأرض المقدّسة ما هي.

فقال مجاهد: هي الطُّور وما حوله.

وقال الضحاك: هي إيلياء وبيت المقدس.

وقال عكرمة والسدّيّ وابن يزيد[٤]: هي أريحا.

وقال الكلبيّ: دمشق وفلسطين وبعض الأرْدُنّ.

وقال قتادة: الشأم كلّه.

قال الكسائي: فلمّا أخبرهم موسى بذلك قالوا: يا موسى إنّك قلت لنا حين أخرجتَنا من مصر: إن الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون، والآن فإنك تحملنا على ما هو أشقّ منه، وبيننا وبين الأض المقدّسة المَفاوزُ[٥] والقفار، وكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، قل لهم: إني منزِّل عليهم المنّ والسلوى، وقد أمرت الحجر أن يتفجّر لهم بالماء العذب، وأمرت الغمام أن

---

(١) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن السّدي، نسبة إلى سدّة، مسجد بالكوفة، كان يبيع بها المقانع جمع قناع، محدّث حسن الحديث توفي سنة ١٢٧ هـ «الكاشف ١/ ٧٥».

(٢) المنّ: ندىً ينعقد على شجر عسلًا ويجفّ جفاف الصّمغ، أو ما أنزله الله على بني إسرائيل بأعجوبة في التّيه ليقتاتوا به...

(٣) السّلوى: طائر أبيض يشبه السمَّاني... وهو ما أنزل على إسرائيل في التّيه.

(٤) ابن يزيد: لعلّه عبيد الله بن يزيد الطائفي، محدّث ثقة، حدّث عن ابن عباس، «الكاشف ٢/ ٢٠٦».

(٥) المفاوز: مفردها «المفازة» وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وسمّيت «مفازة» على سبيل التفاؤل بالنجاة...

يظلّهم ويسير معهم حيث ساروا؛ وألا تنقب[١] خِفافُهم ونعالُهم؛ وأمرت ثيابَهم أن يلبسها صغيرهم وكبيرهم.

فلما سمعوا ذلك طابت نفوسهم، وساروا نحو الأرض المقدّسة والغمام يظلّهم في مسيرهم، والسماء تمطر عليهم بالمنّ، والريحُ بالسلوى، ويجدون كلّ ما يحتاجون إليه، ويضيء لهم بالليل عمود من النور، وتهبّ الريح على السلوى فتَمَعَط ريشها فيطبخونها بغير تعب؛ ويقرع موسى عليه السلام الحجر فتتفجّر لهم اثنتا عشرة عينًا، تجري كلّ عين إلى سبط من الأسباط؛ وثيابهم جدد بيض لا تَخلُق، وهم في خفض[٢] ودعة.

وقال أبو إسحٰق الثعلبيّ، كان ما أنعم الله تعالى به عليهم أنهم قالوا لموسى في التِّيه: أهلكتَنا وأخرجتَنا من العمران إلى مَفاوزَ لا ظلّ فيها. فأنزل الله تعالى عليهم غمامةً بيضاء رقيقةً ليست بغمام المطر أرقّ وأطيب وأبرد، فأظلّتهم وكانت تسير معهم إذا ساروا، وتدور عليهم من فوقهم إذا داروا؛ وجعل لهم عمودًا من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر؛ فقالوا: هذا الظلّ والنور قد حصلا، فأين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ.

واختلفوا فيه؛ فقال مجاهد: هو شيء كالصمغ يقع على الأشجار، وطعمه كالشُّهْد.

وقال الضحّاك[٣]: هو الطَّرَنجبين.

وقال وهب: الخبز الرُّقاق.

وقال السدّيّ: عسل كان يقع في السَّحَر من الليل فيأكلون منه.

وقال عكرمة: أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم مِثلَ الزيت الغليظ.

وقيل: هو الزنجبيل.

وقال الزجّاج: جملة المنّ: ما يمنّ الله عزّ وجلّ به ممّا لا تعب فيه ولا نصب[٤].

---

(١) تنقب الخفاف: تخرق. (٢) الخفض من العيش: السهل المتسع.

(٣) كذا في تاريخ العيني، والذي في الأصول «مجاهد» وهو تبديل من الناسخ فإن مجاهد هو صاحب القول السابق.

(٤) النّصب: التعب.

فكان ينزل عليهم كلّ ليلة ويقع على أشجارهم مِثلَ الثلج، لكلّ إنسان منهم صاع كلّ ليلة؛ فقالوا: يا موسى، قتلَنا هذا المنُّ بحلاوته، فأدع لنا ربَّك أن يُطعِمنا اللحم. فدعا موسى عليه السلام، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم السَّلْوَى.

قالوا: واختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر المفسِّرين: هو طائر يشبه السُّمَانَى.

وقال أبو العالية ومقاتل: بعث الله ـ عزّ وجلّ ـ السحابة فمطرت السُّمَانَى في عرض مِيل وقدرِ طولِ رمح في السماء بعضه على بعض.

وقال عكرمة: طير يكون بالهند أكبر من العصفور.

فكان يأخذ كلُّ واحد منهم ما يكفيه يومًا وليلة من المنّ والسلوى، فإذا كان يوم الجمعة أخذوا ما يكفيهم عن يومين، لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٧] ولا تدّخروا لغد. فجنَوا لغد فقطع الله ذلك عنهم، ودوّد وفسد ما ادّخروا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: الآية ٥٧] معناه وما ضرّونا بالمعصية، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥٧] روى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: لولا بنو اسرائيل لم يخنز[1] الطعام، ولم يخبث[2] اللحم، ولولا حوّاء لم تخن أُنثى زوجها.

ثم قالوا: يا موسى، من أين لنا الشراب؟ فاستسقى لهم موسى؛ فأوحى الله تعالى إليه: أنِ اضرب بعصاك الحجر.

قال الثعلبيّ: واختلف العلماء في الحجر؛ فقال وهب: كان موسى ـ عليه السلام ـ يقرع لهم أقربَ حجر من عرض الحجارة فيتفجّر عيونًا، لكلّ سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطًا، ثم تسيل كلّ عين في جدول إلى سبط؛ فقالوا: إن فَقَدَ موسى عصاه مِتنا عطشًا. فأوحى الله تعالى إليه: لا تقرعنّ الحجارة بالعصا ولكن كلِّمها تُطعك لعلّهم يعتبرون. فكان يفعل ذلك. فقالوا: كيف بنا لو مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التي ليس فيها حجارة؟ فأمر موسى فحمَل معه حجرًا، فحيثما نزل ألقاه.

---

(١) خنز الطعام واللبن: فسد وأنتن.
(٢) خبث: فسُد.

وقال آخرون: كان حجرًا مخصوصًا بعينه، والدليل عليه قوله: «الحجر» فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص؛ وأمر أن يحمله، فكان موسى عليه السلام يضعه في مخلاته، وإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه وسقاهم.

وقال أبو روق[١]: كان الحجر من الغضار[٢]، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كل حفرة ماء عذب، فيأخذونه، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه؛ فيذهب الماء؛ فكان كلّ يوم يستقي منه ستّمائة ألف.

وقال سعيد بن جبير: هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه لغسله ففرّ بثوبه؛ فلما وقف أتاه جبريل فقال: يا موسى، إن الله تعالى يقول لك: ارفع هذا الحجر فإنّ لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة.

وقد تقدّم ذكر خبر الحجر.

وورد أيضًا في صحيح البخاريّ نحو ما تقدّم.

قال أبو إسحـٰق الثعلبيّ: وكان مما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل أنهم قالوا لموسى عليه السلام: من أين لنا اللباس؟ فخلّد الله تعالى ثيابهم التي عليهم حتى إنها لا تزيد على الأيام ومرورِها إلّا جِدّة وطراوة، ولا تَخلُق ولا تَبلَى، وتنمو على صبيانهم كما ينمون.

قال: ثم سئم بنو إسرائيل المنّ والسلوى، فقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١].

واختلف في الفُوم ما هو؟ فقال ابن عبّاس: هو الخبز، تقول العرب: «فَوِّمُوا لنا»، أي اختبِزوا.

وقال عطاء وأبو مالك: هو الحنطة، وهي لغة قديمة.

وقال العتبيّ: هو الحبوب كلّها.

وقال الكلبيّ والنضر بن شميل[٣] والكسائيّ والمؤرّج[٤]: هو الثُّوم.

---

(١) أبو روق: هو عطية بن الحارث، أبو روق الهمداني، محدّث صدوق «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

(٢) الغضار: الطين اللزج الأخضر الذي لا رمل فيه.

(٣) هو النّظر بن شميل المازني التميمي، أبو الحسن، أحد الأعلام بمعرفة أيّام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة، له تصانيف كثيرة، توفي بمرو سنة ١١٢ هـ «الأعلام ٨/ ٣٣».

(٤) هو مؤرّج بن عمرو بن الحارث السّدوسي، عالم بالعربية والأنساب من أهل البصرة، له مؤلّفات=

فقال لهم موسى عند ذلك: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١].

قالوا: مصرًا من الأمصار، ولذلك نوّنه؛ ولو أراد مصر بعينها لقال: «مصر» ولم يصرفه، كقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٩].

وقال الضحّاك: هي مصر فرعون.

واليهود يزعمون أنّ موسى عليه السلام وبني إسرائيل حُرِّم عليهم بنصّ التوراة الدخولُ إلى مصر حين خرجوا منها عند اتباع فرعون لهم وغرقِه، وأنهم لم يدخلوها بعد ذلك. والله أعلم.

ولنرجع إلى أخبار النقباء وقتال الجبّارِين.

ذكر خبر النقباء ومسيرهم إلى أريحا وقصّة عُوج بن عُوق[١] وخبرِ التِّيه

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المَائدة: الآية ١٢].

قال الثعلبيّ: وذلك أن الله تعالى وعد موسى عليه السلام أن يورِّثه وقَوْمَه الأرض المقدّسة، وهي الشأم. وكان يسكنها الكنعانيّون الجبّارون ووعدهم أن يهلكهم ويجعل أرض الشأم مسكن بني إسرائيل؛ فلمّا استقرّت ببني إسرائيل الدارُ بمصر أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا.

«هكذا قال الثعلبيّ: بمصر»[٢].

واليهود تنكر ذلك، ويقولون: إن نص التوراة عندهم أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه ونجّى موسى وبني إسرائيل، تنقلوا من مكان إلى آخر. ويذكرون أسماء الأماكن بالعبرانية ـ وليست تعرف الآن ـ وكان في خلال مسيرهم خبر التيه، وكلّ ما تقدّم ذكره من الأخبار يزعمون أنه في التيه؛ والله أعلم.

نعود إلى سياق الثعلبي.

= عديدة منها «غريب القرآن، وكتاب الأمثال، والمعاني، مات سنة ١٩٥ هـ «الأعلام ٣١٨/٧».

(١) كذا في القاموس وشرحه، وفي الأصل: عوج بن عنق.

(٢) تُشعِر هذه العبارة التي بين قوسين بأنّ قوله: «بمصر» محل نظر.

قال: فأمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا وأرض الشأم، وهي الأرض المقدَّسة وقال: يا موسى، إني قد كتبتها لكم دارًا وقرارًا، فاخرج إليها وجاهِد من فيها من العدوّ، فإني ناصركم عليهم، وخذ من قومك اثني عشر نقيبًا، من كل سبط نقيبًا يكون كفيلًا على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به.

فاختار موسى عليه السلام النقباء.

قال: وهذه أسماؤهم؛ «من سبط روبيل شامل بن زكور. ومن سبط شَمعون سافاط بن حرى. ومن سبط يهوذا كالَب بن يوقَنا. ومن سبط أبين حامل بن بكر بن سورا. ومن سبط يوسف وهو سبط افرايم يوشع بن نون. ومن سبط بنيامين قلطم بن رقوق. ومن سبط زبولون خدي بن سوري. ومن سبط يوسف وهو سبط منشي بن يوسف جديّ بن سوشي. ومن سبط أشير شيانون بن ملكيل. ومن سبط نفتالي حنا بن وقشي. ومن سبط دان جملائيل بن حمل. ومن سبط لاوي حولي بن مليكا»[1].

قال: فسار موسى ببني إسرائيل حتى إذا دنَوا من أرض كنعان ـ وهي أريحا ـ بعث هؤلاء النقباءَ إليها يتجسّسون له الأخبار ويعلمون علمها؛ فلقيهم رجل من الجبّارِين يقال له: عُوج بن عُوق، وكان طوله ثلاثةَ آلاف وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثًا وثلاثين ذراعًا.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: وكان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها، ثم يأكله. ويُروى أنه أتى نوحًا عليه السلام يوم الطُوفان فقال له: احملني معك في السفينة. فقال له: اذهب يا عدوّ الله فإني لم أومَر بك؛ وطبّق الماء ما على وجه الأرض من سهل وجبل فما جاوز ركبتي عُوج.

وعاش عُوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدي موسى.

قال: وكان لموسى عسكر فرسخ في فرسخ، فجاء عُوج حتى نظر إليهم، ثم جاء إلى الجبل وقوّر منه صخرة على قدر العسكر، ثم حملها ليُطبقها على العسكر، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور، وجعلت تنقر بمناقيرها حتى قوّرت الصخرة وانثقبتْ حتى وقعت في عنق عُوج، فطوّقته وصرعتْه، فأقبل موسى وطوله عشرُ أذرع

(١) هذه الأسماء وردت في التوراة ص ٢١٤ مخالفة تمامًا لما هنا، كذلك وردت في تاريخ العيني مخالفة بعض الشيء لما ذكره المؤلّف.

وطول عصاه عشرُ أذرع، ونزا[1] في السماء عشرَ أذرع، فما أصاب إلّا كعبَه وهو مصروع بالأرض، فقتله.

قالوا: وأقبلتْ جماعة كثيرة ومعهم الخناجر حتى خزّوا رأسه؛ فلما قُتل وقع على نيل مصر فسَكره[2] سنة.

قالوا: وكانت أمّ عُوج يقال لها: عناق، وهي إحدى بنات آدم لصلبه.

ويقال: إنها كانت أوّل من بغتْ على وجه الأرض، وكان كلّ إصبع من أصابعها ثلاثَ أذرع في ذراعين، في كلّ إصبع ظُفران حادّان مثل المِنجَلين، وكان موضع مقعدها جَريب[3] من الأرض، فلمّا بغتْ بعث الله تعالى إليها أسودًا كالفِيَلة وذئابًا كالإبل، ونسورًا كالحُمُر[4]، وسلّطها عليها فقتلوها وأكلوها.

قالوا: فلمّا لقي عُوج النقباء لقيهم وعلى رأسه حُزمة حطب، فأخذهم وجعلهم في حُزمتِه، وانطلق بهم إلى امرأته، وقال: انظري إلى هؤلاء الّذين يريدون قتالنا. فطرحهم بين يديها وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ قالت امرأته: لا، بل خلّ عنهم حتى يُخبِروا قومهم بما رأوا. ففعل؛ وجعلوا يتعرّفون أحوالهم.

وكان لا يحمل عنقودَ عنهم إلّا خمسة أنفس بينهم في خَشَبة، ويدخل في قشر شطر الرمّانة إذا نُزِعَ حبُّها خمسة أنفس.

قال: فلمّا خرج النقباء قال بعضهم لبعض: يا قوم إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم ارتدّوا عن نبيّ الله، ولكن اكتموا وأخبروا موسى وهارون فيكونا هما يَريان رأيهما. فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك؛ ثم انصرفوا إلى موسى عليه السلام وجاؤوا بحبّة من عنبهم وِقْر[5] رجل، ثم إنهم نكثوا العهد، وجعل كلُّ واحد منهم يَنهى سبطه عن قتالهم، ويخبرهم بما رأى، إلّا يوشع وكالَب.

قال: فلمّا سمع القوم ذلك من النقباء رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا متنا في أرض مصر، وليتنا نموت في هذه البرّيّة ولا يدخلنا الله أرضهم، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمةً لهم.

---

(١) نزا: وثب.
(٢) سكّره: سدّه.
(٣) الجريب: مكيال، أو مساحة.
(٤) الحُمُر: جمع حمار، والحُمر من الإبل: الأكثر صبرًا.
(٥) الوقر: الحمل.

وجعل الرجل يقول لأصحابه: تعالَوا نجعل علينا رأسًا وننصرف إلى مصر؛ فذلك قوله تعالى إخبارًا عنهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٢].

فلما قالوا ذلك وهمّوا بالانصراف إلى مصر، خرّ موسى وهارون عليهما السلام سجدًا، وخرق يوشع وكالب ثيابهما، وهما اللّذان أخبر الله تعالى عنهما بقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المَائدة: الآية ٢٣]، أي يخافون الله.

وقرأ سعيد بن جبير (يخافون) بضم الياء.

قال: كانا من الجبّارين، فأسلما واتبعا موسى. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٣]، لأن الله تعالى منجز وعده، وإنا أتيناهم فكانت أجسامهم عظيمة قويّة، وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٣] فأراد بنو إسرائيل أن يرجموها بالحجارة، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٤].

فلما قالوا ذلك غضب موسى وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٥]. وكانت عجلةٌ عجلها موسى عليه السلام فظهر الغمام على قبّة الزمان، وأوحى الله تعالى إلى موسى: إلى متى يعصيني هذا الشعب، وإلى متى لا يصدّقون بالآيات؟ لأقتلنهم جميعًا، ولأجعلنّ بدلهم شعبًا أشدَّ وأكثرَ منهم.

قال موسى: إلٰهي لو أنك قتلت هذا الشعب كلّه كرجل واحد قالت الأمم الذين سمعوا: إنّما قتل هذا الشعبَ من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدّسة، فقتلهم في البَريّة، وإنك طويلٌ صبرُك، كثيرةٌ نِعَمُك، وأنت تغفر الذنوب، وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء، فاغفر لهم ولا توبقهم[١].

فقال الله تعالى: قد غفرت لهم بكلمتك، ولكن بعدما سمّيتَهم فاسقين ودعوتَ عليهم، لأحرّمنّ عليهم دخول الأرض المقدّسة غيرَ عبديّ يوشع وكالَب ولأُتيهنّهم في هذه البرّيّة أربعين سنة، ولتُلقَيَنّ جِيَفُهُم في هذه القِفار؛ وأمّا بنوهم الّذين لم يعملوا الخير والشرّ فإنهم يدخلون الأرض المقدّسة، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ

(١) توبقهم: تهلكهم.

عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المَائدة: الآية ٢٦] في ستّة فراسخ، يسيرون كلَّ يوم جادِّين، حتى إذا سئموا وأمسوا، فإذا هم في الموضع الّذي ارتحلوا منه وكانوا سِتَّمائة ألف مقاتل، مات النقباء العشرة الّذين أفشَوا الخبر بغتة، وكلّ من دخل التيه ممّن جاوز عشرين سنة مات في التّيه غيرَ يوشع وكالب، ولم يدخل أريحا أحد ممن قال: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ [المَائدة: الآية ٢٤].

فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة، ونشأت النواشيء من ذراريّهم، ساروا إلى حرب الجبّارِين، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٦] والله المعين.

ذكر مسير موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل لحرب الجبّارِين ودخولهم القرية

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٨].

اختلف المفسّرون في القرية.

قال ابن عبّاس: هي أريحا، وهي قرية الجَبارِين، وكان فيها بقيّة من عاد يقال لهم: العمالقة.

وقيل: هي بلقاء[1].

وقال ابن كيسان[2]: هي الشأم.

وقال الضحّاك: الرملة والأرْدُنُ وفلسطين وتَدْمُر.

وقال مجاهد: بيت المقدس.

وقال مقاتل: إيلياء[3]. وقوله: رَغَدًا. أي موسَّعًا عليكم.

والباب: باب من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب.

---

(١) البلقاء: سمّيت بالبلقاء بن سوريّة من بني عَمّان بن لوط وهو الذي بناها، وهي إحدى كور الشّراة، وهي عن أريحا في جهة الشرق على مرحلة. انظر «صبح الأعشى ٤/ ١١٠».
(٢) هو صالح بن كيسان المدني، محدّث ثقة، جامع للفقه والحديث والمروءة «الكاشف ٢/ ٢١».
(٣) إيلياء: هي بيت المقدس «صبح الأعشى ٥/ ٢٢٨».

وقال مجاهد: هو باب في بيت المقدس يُعرَف إلى اليوم بباب حِطّة.

وقيل: هو باب القبّة الّتي كان موسى يصلّي إليها.

وعن مجاهد أيضًا: أنه باب في الجبل الّذي كلّم الله تعالى عليه موسى كالفُرضة[(١)].

وقوله: سُجَّدًا، أي منحنين متواضعين.

وقال وهب: قيل لهم: ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرًا لله عزّ وجلّ، وذلك أنّ موسى عليه السلام لما انقضت مدّة التّيه سار بالأبناء إلى القرية ودخلها، ودخل المؤمنون سجّدًا كما أمرهم الله تعالى. وقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٨]؛ قال قتادة: حُطّت عنّا خطايانا، أُمِروا بالاستغفار.

قال ابن عبّاس: يعني لا إلٰه إلا الله، لأنها تحطّ الذنوب.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٩].

قال مجاهد: طُؤْطِيء[(٢)] لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم، فلم يخفضوا ولم يركعوا ولم يسجدوا، ودخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا قولًا غير الذي قيل لهم، وذلك أنهم أمروا أن يقولوا: حِطّة؛ فقالوا: (هطا سمعاثا)، يعنون حنطةً سمراء استخفافًا بأمر الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا[(٣)] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٩]، وذلك أنّ الله تعالى أرسل عليهم ظُلمة وطاعونًا، فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفًا.

قال الكسائيّ[(٤)]: وغلب موسى على مدينة أريحا، وهرب من كان بها من الجبّارِين.

وقيل: إنما دخل موسى الآن أرضَ كنعان، وإن مدينة أريحا فتحها يوشع بن نون بعد وفاة موسى عليه السلام على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار يوشع.

---

(١) الفرضة: الخشبة التي يدور عليها الباب، والفرضة محطّ السفن من البحر.

(٢) طؤطيء: من طأطأ: أي خفض وانحنى. (٣) الرّجز: العذاب.

(٤) الكسائي: هو علي بن حمزة الكسائي، أبو الحسن، إمام في اللغة والنحو القراءة، له تصانيف كثيرة، منها: معاني القرآن، والقراءات، والمتشابه في القرآن، مات سنة ١٨٩ هـ «الأعلام ٤/ ٢٨٣».

ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بَلْعَم بن باعُورا وما يتّصل بذلك

قالوا: ولمّا دخل موسى ببني إسرائيل أرضَ كنعان، سار منها يريد مدينة بلقاء.

قال مقاتل: سمّيت بلقاء لأنّ ملكها كان يقال له: بالق، وكان بها بَلْعَمَ بن باعورا، وهو الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥] الآيات.

وقيل: نزلت الآيات في غيره - على ما نذكره إن شاء الله تعالى آخرَ القصّة -.

واختُلِف أيضًا في اسمه ونسبه.

فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو بَلْعَم بنُ باعُورا.

وقال ابن مسعود[١] - رضي الله عنه -: بلعم بن إبر.

وقال مجاهد: بلعم بن باعر.

وقال الثعلبيّ: قال أكثر المفسّرين: هو بِلعام بن باعورا بن أيدن بن مَارب بن لوط، وكان من الكنعانيّين.

وقال عطية عن ابن عبّاس: هو من بني إسرائيل.

وقال علي بن أبي طلحة[٢] عنه: هو من الكنعانيّين من مدينة الجبّارِين.

وقال مقاتل: هو من مدينة بلقاء.

قالوا: فلمّا أقبل موسى ببني إسرائيل إلى مدينة بلقاء، كان أهلها يعبدون الأصنام، فلمّا بلغ الملِكَ مسيرُ موسى عليه السلام إليه استشار أكابرَ دولته؛ فقالوا له: إنّ فرعون لم يطقه مع كثرة جنوده، فأنت أولى ألّا تطيقه، غير أنّ هٰهنا رجلًا يعرف ببَلْعام مجابَ الدعوة، التمِس منه أن يدعو عليهم ليكفيك ربّك أمرَ موسى. فبعث الملكُ إليه وأحضره وتحدّث معه في أمر موسى؛ فقال: حتى أستأذن ربّي. ودخل بلعم مصلّاه واستأذن في الخروج، فَأوحى إليه أن هذا العسكر هم بنو إسرائيل،

---

(١) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمٰن الهذلي، من السّابقين الأوّلين، محدّث ثقة، مات بالمدينة سنة ٣٢ هـ «الكاشف ٢/١١٦».

(٢) هو علي بن أبي طلحة، مولى آل العباس، محدّث، مات سنة ١٤٣ هـ «الكاشف ٢/ ٢٥٠».

وعليهم موسى رسولي، ولا تخرج إليهم. فقال بلعم لرسل الملك: إنّ ربي قد منعني من ذلك، فانصرفوا وعرّفوا الملِك.

وكان لبلعم امرأة، فأهدَى لها الملكُ هديّة نفيسة، وسألها أن تكلّم زوجها في التوجّه مع الملك؛ فسألته؛ فقال: قد استأذنتُ ربّي فنهاني. فلم تزل به حتى استأذن الله ثانيًا؛ فأوحى الله إليه: أني نهيتك عن ذلك، والآن قد جعلتُ الأمر إليك. فطابت نفسه بالخروج مع الملِك. حكاه الكسائيّ.

وقال الثعلبيّ في تفسيره، وعزاه إلى ابن عباس وابن إسحٰق والسدّيّ وغيرِهم: إن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبّارِين ونزل أرض كنعانَ من أرض الشأم، أتى قومُ بَلْعام ـ وكان عنده اسم الله الأعظم ـ فقالوا: إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحِلُّها بني إسرائيل، وإنّا قومك وبنو عمّك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردّ عنّا موسى وقومَه. فقال: ويلكم، هو نبيّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون، كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! وإني إن فعلتُ ذلك ذهبت دنياي وآخرتي. فراجعوه في ذلك، فقال: حتى أؤامر ربّي. ـ وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمَر به في المنام ـ فآمَرَ في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام: لا تدعُ عليهم. فقال لقومه: إني قد نُهيت عن الدعاء عليهم. فأهدَوا إليه هديّة فقبلها، ثم راجعوه في الدعاء عليهم، فقال: حتى أؤامر[1]. فآمر فلم يجرِ إليه شيء فقال: قد آمرت فلم يجر إليّ شيء. فقالوا: لو كره ربُّك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرّة الأولى. فلم يزالوا به يرققونه ويتضرّعون إليه حتى فتنوه فافتتن؛ فركب أتانًا له متوجهًا إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له: (حَبَّان)؛ فلما سار عليها غير كثير ربَضتْ[2]، فنزل عنها فضربها، حتى إذا آلمها قامت، فركبها فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت، فنزل عنها وضربها حتى إذا آلمها أُذِن لها بالكلام، فتكلّمتْ حجّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ ألا ترى الملائكة أمامي يردّونني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها؛ فخلّى الله سبيلها؛ فانطلقت حتى إذا أشرفتْ به على جبل (حَبّان) جعل يدعو عليهم، فلا يدعو بشرّ إلا صُرف به لسانُه إلى قومه؛ ولا يدعو لقومه بخير إلّا صُرِف لسانُه إلى بني إسرائيل؛ فقال قومه: يا بَلْعَم أتدري ما تصنع؟ إنما تدعو لهم

(١) أؤامر: أشاور في الأمر.

(٢) ربضت: أناخت.

وتدعو علينا. قال: فهذا ما لا أملك. واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلّا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمِّلوا النساء وزيِّنوهنّ وأعطوهنّ السِّلَع، ثم أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجلٍ أرادها؛ فإنّهم إن زنى منهم رجل واحد كُفيتموهم. ففعلوا؛ فلما دخل النساء العسكرَ مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها كُسْتى بنت صعور برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له: زمزى بن شلوم رأس سبط شَمْعون بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليهم السلام فقام إليها فأخذ بيدها حتى أعجبه جمالُها؛ ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال له: إني أظنك ستقول: هذه حرام عليك. قال موسى: أجل، هي حرام عليك، لا تقرَبها. قال: فوالله لا نطيعك في هذا. ثم دخل بها قبّته فوقع عليها فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل في الوقت؛ وكان فنحاص بن العَيزار بن هارون صاحب أمر موسى رجلًا قد أعطِيَ بَسْطة[١] في الخَلْق وقوّة في البطش وكان غائبًا حين صنع زمزى بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعونُ يجوس[٢] في بني إسرائيل فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت كلّها من حديد، ثم دخل عليهما القبّة وهما مضطجعان فنظمهما[٣] بحربته، ثم خرج بهما رافعًا حربته إلى السماء قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لبته ـ وكان بِكَر العيزار ـ وجعل يقول: اللهمّ هكذا تفعل بمن يعصيك؛ ورُفع الطاعون، فحُسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون ـ فيما بين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص ـ فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألفًا في ساعة واحدة من النهار.

قال: فمن هناك يُعطِي بنو إسرائيل ولَد فنحاص من كلّ ذبيحة ذبحوها الخاصرة[٤] والذراع واللَّبَّة[٥]، لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته، والبِكَر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بِكَر العَيزار بن هارون.

---

(١) البسطة: الزيادة والقوّة.

(٢) يجوس: من جاس جوسًا وجوسانًا خلال الدّيار: دار فيها وتردّد بينها بالإفساد والهلاك. . .

(٣) نظمهما: سلكهما في سلكٍ واحد.

(٤) في الأصول: «القبّة» والتصويب عن قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٨٢ «المطبعة البهيّة».

(٥) واللبة أعلى الصدر حيث تقع القلادة أو نقول هي الزوْر وهو ما ارتفع من الصدر إلى الكتفين.

قال الثعلبيّ أيضًا: وقال مقاتل: إن ملك البَلْقاء قال لبلعام: ادع الله على موسى. فقال: إنه من أهل ديني فلا أدعو عليه. فنحت الملكُ خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعوَ عليه، فلما عاين عسكَرهم قامت به الأتان أي وقفت، فضربها، فقالت: لِمَ تضربني وأنا مأمورة؟ فلا تظلمني، وهذه نارٌ أمامي قد منعتْني أن أمشيَ. فرجع فأخبر الملك؛ فقال: لتدعونّ عليه أو لأصلّبنّك. فدعا على موسى باسم الله الأعظم ألّا يدخل المدينة، فاستُجيب له، ووقع موسى في التّيه بدعائه، فقال موسى: يا ربّ بأيّ ذنب وقعنا في التّيه. فقال: بدعاء بلعام. قال: ربّ كما سمعتَ دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه. فدعا موسى أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان. فسلخه الله مما كان عليه، ونزع منه المعرفة، فخرجت كحمامة بيضاء، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيِّب وأبو روق وزيد بن أسلم[١]: نزلت هذه الآية في أميّة بن أبي الصَّلْت[٢]، وكانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب وعلم أن الله عزّ وجلّ مرسِل رسولًا في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ حسده وكان قد قصد بعض الملوك، فلما رجع مرّ بقتلَى بَدْر، فسأل عنهم؛ فقيل: قتلهم محمد. فقال: لو كان نبيًا ما قتل أقرباءه. فلما مات أتت أختُه فارعةُ رسولَ الله ﷺ فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها؛ فقالت: بينا هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقفَ البيت ونزلا، فقعد أحدهما عند رجليه والآخَر عند رأسه، فقال الّذي عند رجليه للّذي عند رأسه: أَوَعَى؟ قال: وَعَى. قال: أَزَكَا[٣]؟ قال: أَبَى. [قالت][٤]: فسألته عن ذلك؟ فقال: خير أريدْ بي فصُرِف عنّي. ثم غُشِي عليه، فلمّا أفاق قال: [من الخفيف]

كلُّ عيشٍ وإن تَطاوَلَ دهرًا ... صائرٌ أمرُه إلى أن يزولا

ليتني كنت قبلَ ما قد بدا لي ... في قِلال الجبال أَرعَى الوُعولا[٥]

---

(١) هو زيد بن أسلم الفقيه العمري، من رجال الحديث الموثوقين، قال ابن عجلان: ما هبت أحدًا هيبتي زيد بن أسلم، توفي سنة ١٣٦ هـ «الكاشف ١/٢٦٣».

(٢) هو أميّة بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعرٌ جاهلي، كان مطّلعًا على الكتب القديمة، أدرك الإسلام ولم يسلم، مات سنة ٥ هـ «الأعلام ٢/٢٣».

(٣) زكا: صلُح، وزكا الشيء: نما وزاد.

(٤) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي.

(٥) القلال: جمع «قلة» وهي أعلى الجبل.

إنّ يوم الحساب يومٌ عظيمٌ شاب فيه الصغير يومًا ثقيلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ أنشديني من شعر أخيك فأنشدتْه: [من الطويل]

لك الحمدُ والنَّعماءُ والفضلُ ربَّنا ولا شيء أعلى منك جَدًّا وأمجدُ

مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ لعزّته تعنو الوجوهُ وتسجدُ[١]

وهي قصيدة طويلة، حتى أتت على آخِرها.

وأنشدْته قصيدته الّتي يقول فيها: [من الخفيف]

يوقَف الناسُ للحساب جميعًا فشَقيٌّ معذَّبٌ وسَعيدُ

ثم أنشدتْه قصيدتَه الّتي يقول فيها: [من الخفيف]

عند ذي العرش تُعرَضون عليه يَعلَمُ الْجَهْرَ والسِّرارَ الخفيّا[٢]

يوم نأتي الرحمٰنَ وهو رحيمٌ إنّه كان وعدُه مأتيّا

يوم آتيه - مِثلَ ما قال - فردًا ثم لا أدرِ[٣] راشدًا أم غَويّا[٤]

أسعيدًا إسعادَه أنا أرجو أو مُهانًا بما اكتسبتُ شقيًّا

إنْ أُؤاخَذْ بما اجترمتُ فإنّي سوف أَلقَى من العذاب فَرِيّا[٥]

ربّ إن تَعفُ فالمعافاة ظنّي أو تعاقب فلم تعاقِب بريّا

فقال رسول الله ﷺ: آمن شعرُه وكفر قلبُه. وأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥] الآيات.

ومنهم من قال: إن الآيات نزلت في البسوس، وكان رجلًا أُعطِيَ ثلاث دعوات مستجابة، وكانت له امرأة، وكان له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها دعوةً واحدة. فقال: لكِ فيها دعوة، فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل. فدعا لها، فصارت أجمل امرأة في بني إسرائيل؛ فلما علمتْ أنّه ليس فيهم مِثلُها رغبتْ[٦] عنه، فغضب ودعا عليها، فصارت كلبة نبّاحة، فجاء بنوها وقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبة نبّاحة والناس يعيّروننا بها، فادع الله أن

---

(١) تعنو: تخضع.
(٢) السّرار: ما تخفي الأنفس.
(٣) يلاحظ أنه حذف الياء من قوله «لا أدري» لضرورة الوزن، وحقّها أن تثبت.
(٤) الغويّ: الضال.
(٥) اجترم: اكتسب من الإثم، والفري: العظيم.
(٦) رغبت عنه: كرهته.

يردّها إلى الحال الّتي كانت عليها. فدعا الله تعالى، فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات.

وقال أبو سعيد[1]: نزلت في أبي عامر بن نعمان بن صيفيّ الراهب الذي سمّاه رسولُ الله ﷺ: الفاسق، وكان قد ترهّب في الجاهليّة ولبس المُسوحَ وقدم المدينة، فقال للنبيّ ﷺ: ما هذا الذي جئتَ به؟ فقال: جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم. قال: فأنا عليها. فقال له النبيّ ﷺ: «لستَ عليها، ولكنّك أدخلتَ فيها ما ليس منها». ثم خرج إلى كفّار قريش.

وأخباره تُذكَر ـ إن شاء الله ـ في سيرة سيّدنا رسول الله ﷺ.

فهذا ما قيل في تفسير هذه الآية.

قال الكسائيّ: ونادى موسى في قومه بعد رفع الطاعون عنهم: «أن احملوا». فحملوا واقتتلوا. فقُتِل الملِك وبَلْعَم، وانهزم الباقون، وغنم بنو إسرائيل من النساء والولدان شيئًا كثيرًا. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر خبر وفاة هارون عليه السلام

قال الكسائيّ: ـ وذكر وفاة هارون إثْرَ خبر البقرة وقتل عاميل ـ قال: لمّا كان بعد قتل عاميل نظر هارون إلى جبل في التّيه بعيد من العسكر، فقال: يا موسى، ألا نمضي إلى ذلك الجبل فننظر إلى خضرته ونضارته. فمضيا من الغد ومعهما أولاد هارون، فأتوه فإذا هو جبل كثير المياه والعشب والكهوف وفيه كهف واسع يسطع نورًا، فدخلوه وإذا هم بسرير من ذهب عليه أنواع من الفرش، فصعد هارون إليه ونام، فجاء طولَه، فهمّ أن ينزل، فأتاه ملَك الموت في صورة شابّ حسن، فقبض روحه، وغسّلتْه الملائكة، وصلّى موسى عليه، وسدّوا باب الكهف، وعاد موسى إلى بني إسرائيل، فسألوه عن هارون، فأخبرهم بوفاته قالوا: بل قَتَلْتَه. فقال: ماذا لقيتُ منكم يا سفهاءَ بني إسرائيل، أقتل أخي وشقيقي؟ ثم دعا ربَّه أن يريَهم إيّاه على صورته. فأمر الله تعالى الملائكةَ أن يُخرجوا سَريره من الكهف، فأخرَجوه وحملوه في الهواء حتى نظرت إليه بنو إسرائيل، ثم نادت الملائكة: يا بني إسرائيل، هذا سرير هارون قد قبضه الله تعالى إليه.

---

(١) لعلّه أبو سعيد بن المعلّى الأنصاري، صحابي، من رجال الحديث توفي سنة ٧٣ هـ «الكاشف ٣/٣٠٠».

وقال أبو إسحـٰق الثعلبيّ في تفسيره في وفاة هارون عليه السلام قال السدّيّ: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أني متوفي هارون، فأت به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون عليهما السلام نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم يَريا شجرةً مِثلَها، وإذا بيتٌ مبني، وفيه سرير عليه فراش وإذا فيه ريح طيّبة، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه وقال: يا موسى، إنّي أحبّ أن أنام على هذا السرير. قال: نم عليه. قال: إني أخاف أن يأتي ربّ هذا البيت فيغضب عليّ. قال موسى: لا تَرهَب، أنا أكفيك رب هذا البيت، فنم. قال: يا موسى، بل نم معي، فإن جاء ربّ البيت غضب عليّ وعليك جميعًا. فلمّا ناما أخذ هارونَ الموتُ، فلما وجد حِسَّه قال: يا موسى خدعتَني، فلمّا قُبض عليه السلام رُفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورُفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون، قالوا: إن موسى قَتَل هارون وحسده لحبّ بني إسرائيل له. فلمّا أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا الله تعالى، فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض؛ فصدّقوه.

وقال الثعلبيّ أيضًا. وقال عمرو بن ميمون[1]: مات هارون عليه السلام في التِّيه، ومات قبل موسى، وكانا خرجا في التِّيه إلى بعض تلك الكهوف، فمات هارون، فدفنه موسى، وانصرف إلى بني إسرائيل، فقالوا: ما فعل هارون؟ قال: مات. قالوا: كذبت، ولكنّك قتلتَه لحبّنا إيّاه ـ وكان محبَّبًا في بني إسرائيل ـ فتضرّع موسى إلى الله تعالى وشكا ما لقي من بني إسرائيل؛ فأوحى الله إليه: أن انطلق بهم إلى قبره، فإنّي باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتًا وأنك لم تقتله. فانطلق بهم موسى إلى قبره، فنادى: يا هارون. فخرج من قبره ينفض رأسه؛ فقال: أنا قاتِلُك؟ قال: لا، ولكنّي مِتُّ. قال: فعُد إلى مَضجَعك. فعاد عليه السلام وانصرفوا.

ذكر وفاة موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام

قال أبو إسحـٰق الثعلبيّ رحمه الله قال ابن إسحـٰق: كان موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظَمَه، فأراد الله تعالى أن يحبّب إليه الموت ويكرِّه إليه الحياة؛ وكان يوشع بن نون يغدو عليه ويروح، فيقول له موسى: يا نبيّ الله ما أحدث الله إليك. فيقول له يوشع: يا نبيّ الله، ألم أصحبك كذا وكذا سنة، فهل كنتُ أسألك عن شيء

---

(١) هو عمرو بن ميمون الرّقي، من رجال الحديث، كان رأسًا في السّنَّة والورع مات سنة ١٤٥ هـ «الكاشف ٢/٢٩٦».

ممّا أحدث الله إليك حتى تكون أنت تبتدىء به وتذكره؟ ولا يَذكر له شيئًا.

فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحبّ الموت.

وعن وهب أنه قال ـ وذكر من كرامة موسى عليه السلام ـ أنه ضاق ببني إسرائيل ذرعًا لمّا كثّروا عليه؛ فأوحى الله تعالى إلى ألف نبيّ أن يكونوا أعوانًا له؛ فلمّا مال الناس إليهم وَجَد موسى في نفسه، فأماتهم الله تعالى لكرامته في يوم واحد.

والذي صحّ لنا من خبر وفاة موسى عليه السلام ما ثبت في صحيح البخاريّ وهو ما حدّثنا به الشيخان المُسْندان المعمَّران: شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن أبي طالب نعمة بن حسن بن عليّ بن سنان الشُّحْنة الصالحيّ الحجّار، وسِتُّ الوزراء أمّ محمد[1] (وزيرةُ) ابنةُ الشيخ الإمام العالم شمس الدين أبي حفص عمر ابن القاضي وجيه الدين أسعد بن المنجا التنوخيّ الدمشقيّان، قراءة عليهما، وأنا أسمع بالمدينة المنصوريّة بخُطّ (بين القصرين بالقاهرة المعزّيّة)، وذلك في يوم السبت السابع من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة، بقراءة الشيخ علاء الدين عليّ بن الماردينيّ، قالا: حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيىٰ الزبيديّ، قال: أخبرنا الشيخ أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السَّجزيّ الصوفيّ ثم الهَرَويّ، قال: أخبرنا الإمام جمال الدين أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود الداوديّ، قال: أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمويه التنوخيّ، قال: أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطهر الفهريّ، قال: حدّثنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفيّ مولاهم البخاريّ رحمه الله قال: حدّثنا محمود، حدّثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن ابن طاوس[2] عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أرسل مَلكُ الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه[3]، فرجع إلى ربّه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. فردّ الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطّت به يده بكل شعرة سنة.

---

(١) كنيتها في الدّرر الكامنة، أُم عبد الله.

(٢) لعلّه يريد طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني، أبو عبد الرحمٰن، من أكابر التابعين تفقهًا في الدّين ورواية الحديث مات سنة ١٠٦ هـ «الأعلام ٣/ ٢٢٤».

(٣) صكّه: دفعه.

قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيَه من الأرض المقدَّسة رمية بحجر. قال: قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثَم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب[١] الأحمر.

قال الثعلبي: وكان عمر موسى عليه السلام مائة وعشرين سنة، عشرون منها في مُلك أفريدون[٢]، ومائة سنة في مُلك منوجهر[٣]، وبعث الله تعالى بعد موسى يوشع عليهما السلام.

كمل الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري التيميّ القرشي المعروف بالنويريّ ـ رحمه الله تعالى ـ ويليه الجزء الرابع عشر، وأوّله: الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الخامس فيما كان بعد موسى بن عمران عليهما السلام، وهو أخبار يوشع بن نون وحزقيل وإلياس وإليسع وغيلا وأشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود عليهم السلام.

والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) الكثيب: التلّ من الرمل المستطيل المحدودب.

(٢) أفريدون هو التاسع من ولد جمشيذ، في أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السّلام يقال: إنّه ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم سورة الكهف «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

(٣) منوجهر: هو منوجهر بن إيراج، في أيّامه ظهر موسى عليه السّلام ويقال: إن فرعون موسى كان عاملًا له على مصر داخلًا تحت أمره، «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **التوراة**.

٣ ـ **تاج العروس**، للزبيدي، ط. مصر.

٤ ـ **تاريخ الطبري**، ط. أوروبا.

٥ ـ **تاريخ العيني**، دار الكتب المصرية.

٦ ـ **تفسير البخاري**، ط. بولاق.

٧ ـ **تفسير الألوسي**، ط. بولاق.

٨ ـ **تقويم البلدان**، لابن حوقل، ط. أوروبا.

٩ ـ **الدّرر الكامنة**، لابن حجر العسقلاني، ط. حيدرآباد.

١٠ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.

١١ ـ **صحيح البخاري**، دار الفكر.

١٢ ـ **الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين.

١٣ ـ **قصص القرآن**، للثعلبي، المطبعة البهية مصر.

١٤ ـ **قصص القرآن**، للكسائي، دار الكتب المصرية.

١٥ ـ **الكاشف**، للذهبي، دار الكتب العلمية.

١٦ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.

١٧ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

١٨ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات

الفنّ الخامس
في التاريخ

القسم الثاني
من الفنّ الخامس في قصّة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام
وخبره مع نُمْروذ، وقصّة لوط، وخبر إسحٰق ويعقوب، وقصّة يوسف وأيّوب وذي الكفل وشعيب

القسم الثالث
من الفنّ الخامس
يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون؛ وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغيلا وأشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متّى وجرجيس وبلوقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى، عليهم السلام، وأخبار الحواريين